الشيخ محمد سلمان الحجي

فصول معرفية

قراءة في أهمية الشأن العقائدي



أحمد عبد الله التماوي

فصول معرفية

قراءة في أهمية الشأن العقائدي

الشيخ محمد سلمان الحجي

فصول معرفية

قراءة في أهمية الشأن العقائدي

أحمد عبد الله التماوي

مكتبة فدك

سرشناسه : حجي، محمدسلمان
عنوان و نام پدیدآور : فصول معرفية قراءة في [illegible] / محمدسلمان الحجي؛ [گردآوری] احمدعبدالله [illegible]
مشخصات نشر : قم: باقيات، ۱۴۳۲ ق.= ۱۳۹۰.
مشخصات ظاهری : ۲۳۲ ص.
شابک 978-600-213-015-0
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت : عربی.
یادداشت : کتابنامه به صورت زیرنویس.
موضوع : شیعه -- عقاید
موضوع : اسلام -- عقاید
موضوع : کلام شیعه
موضوع : شیعه -- اصول دین
شناسه افزوده : [illegible]، احمدعبدالله
رده بندی کنگره : ۱۳۹۰ ح۲ف۶/۵/BP۲۱۱
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۲۱۷۲
شماره کتابشناسی ملی : ۲۳۲۸۹۸۰

فصول معرفية

الشيخ محمد سلمان الحجي

الناشر: باقيات

المطبعة: وفا

الكمية: ۱۰۰۰ نسخة

الطبعة: الاولى

القطع: وزيري

عدد الصفحات: ٢٣٤ صفحة

تاريخ الطبع: ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ.ق

شابك: ٠-٠١٥-٢١٣-٦٠٠-٩٧٨

عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٠٠٧٧٤٢٩٠٠

مركز التوزيع: ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي

رقم ١١٧، ١١٦ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤

مكتبة فدك

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى خليفة الله تعالى في أسمائه وصفاته

وإلى كلمته التامة

ومظهره الأتم

ومثله الأعلى

مولاي أبي الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام

أرفع هذا العمل المتواضع بيد خجولة إلى ساحة قدسه

راجيا أن يتقبله منا بأحسن القبول

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نِعَمٍ ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها، جَمٍّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، ونَدَبَهُمْ لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثني بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكر معقولها...»[(١)].

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله المبعوث رحمة للعالمين وواسطة فيض رب العالمين وعلى أهل بيته

---

(١) مقطع من خطبة الصديقة الشهيدة، والمحدثة العليمة فاطمة الزهراء عليها السلام، بحار الأنوار للمجلسي قدس سره ج٢٩ ص ٢٢٠.

المعصومين المطهرين خُزَّان علم الله ومستودع حكمته، لا سيما إمام العصر والزمان عليه السلام والذي بيمنه رُزِقَ الورى والذي به يُمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبعد.

لا يخفى على كل ذي لب ما للعقيدة الصحيحة المبنية على الأسس البرهانية من دور في صياغة الإنسان صياغة إلهية تسمو به إلى معارج الكمال والقرب من الله سبحانه وتعالى، وأن العقيدة الصحيحة هي التي تعطي العمل شكله ولونه وروحه، ومن ثَمَّ جاء التأكيد على أهمية اختيار العقيدة الصحيحة لكونها طوق نجاة الإنسان.

والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكنه أن يترقى في مراتب المعرفة الإلهية إلى درجات لا ينالها حتى المقربين من ملائكة الله سبحانه وتعالى، ولذا نجد أن الإنسان هو الذي يحقق الخلافة الإلهية، بمعنى خلافته تعالى في أسماءه وصفاته.

وعلى هدي هذه الحقيقة جاءت هذه الدراسة المعرفية لتلامس شيئاً من فضاءات العقيدة وأهميتها وخطورتها في تكوين الإنسان وصياغته، حيث يجد القارئ لهذه الدراسة أننا بحثنا فصولاً ثمانية نعتقد أنها من الأهمية بمكان وهي كالتالي:

الفصل الأول: تم الحديث عن أهمية المعرفة الإلهية، وإثبات كونها هي منشأ الحركة الحُبِّيَّة للحق تعالى.

الفصل الثاني: تحدثنا عن أقسام المعرفة الإلهية وأهمية العبادة.

الفصل الثالث: تحدثنا عن أهمية العقيدة وكونها المنطلق الذي من

خلاله يتحرك الإنسان نحو الحق تعالى، وأشرنا فيه أيضاً إلى أهمية الدرس العقدي والمعرفي في الأروقة العلمية، وضرورة جعله في الواجهة دائماً وعدم الغفلة عنه، فهو الآية المحكمة بتعبير النبيﷺ.

الفصل الرابع: تحدثنا عن أهمية نظرية المعرفة وخطورتها لكونها المعرف للآليات التي من خلالها نصل إلى المعرفة وكيفية تقييم هذه الآليات، وعلى هذا الأساس أشرنا إلى نبذة مختصرة عن أهم المدارس الفكرية في الحاضرة الإسلامية.

الفصل الخامس: تحدثنا عن أهمية الآيات والروايات التي اختزنت المعارف الإلهية وكيف أنها براهين عقلية واضحة لمن يتأمل ويتدبر، وذكرنا في هذا الفصل إلى الإشكالية في كيفية الإعتماد على الآيات والروايات في البحث المعارفي، وقمنا بعلاجها من خلال ذكر أجوبة سبعة على هذه الإشكالية، فلاحظ.

الفصل السادس: تحدثنا عن مدى اهتمام النبي وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بالبحث العقائدي والمعرفي وذلك من خلال عرض بعض الأساليب والطرق التي انتهجها المعصومونعليهم السلام في التأسيس والتأصيل العقائدي ودفع الإشكالات والشبهات وإعداد الكوادر العلمية لهذا المنحى.

الفصل السابع: تحدثنا عن مراتب الإعتقاد الناتج عن اختلاف الإستعدادات للمعتقدِين، وقمنا بذكر نموذجين معرفيين:

النموذج الأول: أهمية التوحيد وبعض مراتب الإعتقاد به.

النموذج الثاني: أهمية الإمامة الإلهية وبعض مراتب الإعتقاد بها.

الفصل الثامن: تحدثنا عن مفردة معرفية مهمة ألا وهي مفردة التقليد في أصول الدين حيث ذكرنا بعض جوانبها وتركنا البعض الآخر مراعاة للإختصار.

فجاءت هذه الدراسة المتواضعة محتوية هذه الفصول الثمانية والتي أسميناها (**فصول معرفية ـ قراءة في أهمية الشأن العقائدي**) والذي نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله في خدمة مذهب أهل البيت المعصومين عليهم السلام، وأن يتقبله بأحسن قبول إنه سميع الدعاء، وهو الغاية.

كلمة شكر

أتقدم بأسمى آيات الشكر والإمتنان والعرفان إلى كل مَنْ ساهم من قريب أو بعيد في إعداد هذه الدراسة وأخص بذلك أساتذتي الكرام في المعارف الإلهية حفظهم الله جميعاً، وإلى الأخ الحجة الفاضل الشيخ عبدالله الأسعد حفظه الله في إبداءه لبعض الملاحظات المهمة التي رفدني بها.

وأتقدم بشكر وامتنان وعرفان خاص إلى سماحة الأخ العزيز الشيخ أحمد التماوي حفظه الله على المساهمة في الإعداد معنا لهذه الدراسة في جلساتنا العلمية.

فالله تعالى أسأل أن يتقبل منا جميعاً هذا العمل وأن يجعله لنا جميعاً ذخراً في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يجعلنا جميعاً من الممهدين والمناصرين لمولانا صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه، إنه سميع الدعاء، وهو الغاية.

والحمدلله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

محمد سلمان الحجي (أبو عبدالأعلى)

عش آل محمد ـ قم المقدسة

مولد السبط الشهيد الإمام الحسين عليه السلام ١٤٣٢هـ

الفصل الأول

أهمية المعرفة الإلهية

* الحركة الحبيَّة الإلهية
* الإنسان الكامل بوابة المعرفة الإلهية
* فطرية الإعتقاد بالامامية الإلهية
* مراتب المعرفة الإلهية
* المعرفة الإلهية في كلمات المعصومين عليهم السلام

إن المعرفة الإلهية هي الهدف والغاية من إيجاد هذا العالم بأسره من مجرداته ومثالياته ومادياته إلى ما شاء الله من العوالم طولاً وعرضاً(1) والذي يسمى بعالم الإمكان والذي هو كل ما سوى الله تعالى إنما وجدت لغاية وهدف وهو معرفة الله سبحانه وتعالى، وما يستتبع هذه المعرفة من تفتق المنظومة المعرفية على أساسها.

حيث يجد الإنسان بوجدانه أنه مفطور على حب الكمال وانشداده إليه وهذه هي الفطرة الأصلية والتي تستتبع الهروب من النقص وهي الفطرة التبعية كما عبَّر بعض العلماء بذلك؛ وأن الكمال كل الكمال إنما هو في

---

(1) وقع خلاف بين العرفاء والحكماء والمتكلمين في تعدد العوالم حيث أشار العرفاء إلى خمسة عوالم وهي: الصقع الربوبي والذي فيه مقام الأحدية ومقام الواحدية والذي فيه عالم الأسماء والصفات ولوازمها التي هي الأعيان الثابتة، وعالم المظاهر الخلقية وهو عالم العقول وعالم المثال وعالم المادة فهذه أربعة عوالم بإضافة عالم الإنسان الكامل أو الكون الجامع.

وأما الحكماء فيعتقدون بتثليث العوالم: عالم العقل وعالم المثال وعالم المادة.

وأما بعض المتكلمين يعتقدون أن لا مجرد إلا الله تعالى وما سواه فهو ماديٌ إلا المحققين منهم يعتقدون وجود مجرد غير الله تعالى.

الإنشداد نحو المعرفة الإلهية والقرب منه ولذا جاءت الآيات والروايات تترى بهذا الصدد مشيرة لهذه الحقيقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١)، حيث جاء عن الإمام الباقر عليه السلام في معنى هذه الآية - إلا ليعبدون - أي (إلا ليعرفون)(٢) فجعلها عليه السلام في مرمى المعرفة الإلهية كونها الغاية من الخلق والإبداع الإلهي من هذا الإيجاد والخلق.

الحركة الحُبيّة الإلهية:

جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»(٣)، إن هذا الحديث القدسي العظيم في معناه يشير إلى أن الحركة الحبية تعني أن الله سبحانه أوجد هذا العالم لكي يُعرف فهذه الحركة الحُبِّيَّة ليست هي حركة تكاملية بحيث يمكن أن يقال أن الحق سبحانه وتعالى يستكمل بهذه المعرفة، لأن الحركة الإستكمالية لا تكون إلا في الوجود الذي يسعى للكمال والحق سبحانه كمال محض بل كل الكمال وجمال محض بل كل الجمال، كما ورد ذلك في دعاء البهاء المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «وكل كمالك كامل ... إلخ»(٤).

---

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) شرح أصول الكافي للمولى المازندراني ج٤ ص١٢٨.

(٣) المصدر السابق ج١ ص١٧ .

(٤) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي، دعاء يوم المباهلة ص٧٥٩ .

وهذا فيما يعني فلسفياً أنه لا توجد لله تعالى (حالة منتظرة) بمعنى أنه تعالى لا يتكامل أي لا يسعى نحو الكمال كما ينقل عن الرؤية الكونية الغربية عند بعض منظريها حيث يعتقدون أنه لا معنى لإله لا يتكامل، فمن ثَمَّ نفسر هذه الحركة الواردة في الحديث القدسي بالحركة الحُبِّيَّة، والتي تعني في بعض معانيها أن الله سبحانه وتعالى أحبَّ أن يوجد موجوداً يكون مرآة صافية لكمالاته سبحانه وتعالى ومَجْلاً تتجلى فيه الصفات الإلهية ومظهراً له تظهر فيه صفاته الجمالية والجلالية وتكون له الهيمنة والسيطرة بإذن الله على جميع موجوداته حيث تعود إليه وترجع إليه جميع حركة الأسماء الإلهية وهو ما نسميه بالإنسان الكامل أو ما يسمى بالكون الجامع والذي يعتبره العرفاء العالم الخامس والمحيط بجميع العوالم من مجردات ومثاليات والذي له حظ من جميع هذه العوالم وهذا بحث جليل وخطير في النُظم المعرفية العالية عند أهل المعرفة.

الإنسان الكامل بوابة المعرفة الإلهية:

إن الهدف من هذا الإيجاد هو معرفة الله سبحانه وتعالى عبر معرفة الإنسان الكامل والذي يكون بوابة لمعرفته تعالى كما ورد عندنا في الروايات الشريفة التي تشير إلى حقيقة «من عرفكم فقد عرف الله ومن جهلكم فقد جهل الله»[1] والذي مصداقه الأكمل والأتم النبي الخاتم والإمام

---

(١) فرائد السمطين ج٢ ص١٧٩ للمحدث الكبير الجويني الخراساني.

علي وبقية المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، حيث قام عندنا الدليل العقلي والنقلي على أنهم المظاهر التامة لله سبحانه وتعالى، وهذا بحث موكول لمحله في الإمامة الإلهية ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: «من رآني فقد رأى الحق»[(١)].

بمعنى أن من رأى الصفات النبوية في جماله وجلاله عرف الله سبحانه وتعالى في صفاته الجمالية والجلالية وكذا ما ورد في حق نفسه وخليفته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله: «علي مني و أنا منه»[(٢)].

وكذلك ما جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٣)] أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي ابن أبي طالب هو المثل الأعلى»[(٤)].

بمعنى أنه عليه السلام هو المظهر الأتم لاسم الله الأعظم، أي هو الحاوي لجميع الكمالات الإلهية جمالية كانت أم جلالية.

---

(١) بحار الأنوار ـ للعلامة المجلسي ج٥٨ ص٢٣٤.

(٢) كتاب الأمالي للصدوق ـ المجلس العشرون باب موعظة الرسول صلى الله عليه وآله ص١٤٩.

(٣) سورة النحل ٦٠.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج١ باب ٣٠ ص٢٢٨ ح١٣ ما جاء من الأخبار المنثورة.

فطرية الإعتقاد بالإمامة الإلهية:

من الوضوح بمكان أن أهم ركائز الإمامة الإلهية ـ التي نعتقد بها ـ تقوم على كونها فطرية، بمعنى أن الإنسان مفطور على حب الإنسان الكامل في العلم والعمل ومن ثَمَّ ينشدُّ الإنسان الناقص بفطرته إلى الإنسان الكامل ـ الإمام المعصوم ـ وهذا ما نعتقده نحن أتباع أهل البيت عليهم السلام بالنسبة إلى حاجة الإنسان لوجود الإمام المعصوم، وهذه الحاجة أمر فطري تكويني فالكل يجد تلك الحاجة إلا أنه ربما أخطأ في تشخيص المصداق ولذا جاءت التوصيات الحثيثة من الأئمة المعصومين عليهم السلام والتي تشير إلى ضرورة تعليم الناس محاسن كلامهم عليهم السلام لينشد الإنسان الناقص إلى الإنسان الكامل، بل نقول بأن كل المنظومة الإعتقادية إنما تتفتق من الفطرة حيث تندمج فيها اندماجاً تقوم على حقيقة واحدة وهي حب الكمال والإنشداد كفطرة أصلية والهروب من النقص كفطرة تبعية كما أشار إلى ذلك الإمام الخميني قدس سره[1].

إذن فالإنسان بل كل الموجودات إنما وجدت لغاية وهدف وهي المعرفة الإلهية وما يستتبعها من تفتق المنظومة الإعتقادية كما أشرنا لذلك آنفاً.

---

(١) كتاب جنود العقل والجهل.

مراتب المعرفة الإلهية:

إن المعرفة الإلهية لها مراتب مشككة وليست مرتبة واحدة متواطئة وعلى ذلك تتفاوت مرتبة الإنسان قرباً وبعداً من الله سبحانه فكلما صعد سقف المعرفة بالله وبأسمائه وصفاته وأنبيائه وأوليائه واليوم الآخر وسائر المعتقدات الحقة صعد سقف القرب منه سبحانه وتعالى بل إن الإنسان يحشرُ يوم القيامة على مرتبته الإعتقادية.

وهذه المعرفة إما معرفة حضورية أو حصولية، وبلا شك أن المعرفة الحضورية أرقى وأشرف من الحصولية، أو ما يسمى بالمعرفة التحققية والمعرفة التحقيقية، وهذا ما سوف يأتي إن شاء الله في الفصل الآتي من هذا الكتاب وفي كيفية الموازنة بين المعرفتين وكيفية جعل المعرفة الحصولية معرفة حضورية، لكن أحببنا في هذا الفصل أن نشير إلى أهمية المعرفة بالله وسائر المنظومة الإلهية وأنها مركوزة في أعماق الإنسان بحيث لا تحتاج إلا إلى إثارةٍ وإخراجٍ من مرحلة الكمون إلى مرحلة الظهور والبروز ولذا كان من أهم أدوار الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم يوقظون هذه الفطرة كما قال الإمام علي عليه السلام: «وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته»[1].

وعلى ذلك إذا التفت الإنسان إلى معرفة الله وتوحيده والإخلاص له يكون الإنسان متحققاً بتلك المعرفة الحضورية ـ التحققية ـ والتي هي أكمل

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١.

المعارف وألذها وأشرفها.

المعرفة الإلهية في كلمات المعصومين عليهم السلام:

جاء عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما رأس العلم؟ قال: معرفة الله حق معرفته»[(١)].

قال الإمام علي عليه السلام: «معرفة الله سبحانه أعلى المعارف»[(٢)].

وعنه عليه السلام: «العلم بالله أفضل العِلْمَين»[(٣)].

وعنه عليه السلام: «من عرف الله كمُلت معرفته»[(٤)].

وعنه عليه السلام: «أول الدين معرفته»[(٥)].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «أول عبادة الله معرفته»[(٦)].

ولذا كانت المعرفة بالله ألذ اللذائذ في الدنيا والآخرة وأشرفها حيث ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ما يسرني لو مِتُّ طفلاً وأُدخِلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربي»[(٧)].

---

(١) بحار الأنوار ج٣ ص١٤ ح٣٦.

(٢) غرر الحكم ٩٨٦٤.

(٣) غرر الحكم ١٦٧٤.

(٤) غرر الحكم ٧٩٩٩.

(٥) نهج البلاغة، خطبة ١.

(٦) كتاب التوحيد للصدوق ص٢٧.

(٧) حلية الأولياء ج١ ص٧٤، وكنز العمال للمتقي الهندي ج١٣ ص١٥١ ح٣٦٤٧٢.

وعن الإمام الصادقعليه السلام: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء»[(١)].

ومن هنا نجد من المناسب نقلاً للرواية الشريفة الواردة عن الإمام الصادقعليه السلام في وصف المحبة لأهل البيت والتوحيد والإيمان والإسلام والكفر والفسق كما عَنوَنَ ذلك صاحب كتاب تحف العقول عن آل الرسول الشيخ الحرّانيرحمه الله[(٢)] حيث نقل رواية هي من غرر الروايات والتي هي بحق وثيقة معرفية مهمة تشير إلى جملة من الحقائق ننقلها بكاملها لتكون تحت نظر القراء الأعزاء للتأمل فيها والتدبر في مضامينها.

قال سدير: دخل عليه رجلٌ فقال له ـ أي الإمام الصادقعليه السلام ـ: ممن الرجل؟ فقال من محبيكم ومواليكم، فقال له جعفرعليه السلام: لا يحب الله عبداً حتى يتولاه. ولا يتولاه حتى يوجب له الجنة. ثم قال له: من أي محبينا أنت؟ فسكت الرجل، فقال له سدير: وكم محبوكم يا ابن رسول الله؟ فقال: على ثلاث طبقات: طبقة أحبونا في العلانية ولم يحبونا في السر، وطبقة يحبونا في السر ولم يحبونا في العلانية، وطبقة يحبونا في السر والعلانية، هم

---

(١) الكافي ج٨ ص٢٤٧ ح ٣٤٧ عن جميل بن درّاج .

(٢) قال صاحب الروضاترحمه الله: الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني أو الحلبي كما في بعض النسخ: فاضل فقيه، ومتبحر نبيه، ومترفع وجيه له كتاب تحف العقول عن آل الرسول، مبسوط كثير الفوائد، معتمد عليه عند الأصحاب، أورد فيه جملة وافية من النبويات وأخبار الأئمةعليهم السلام ومواعظهم الشافية على الترتيب ... (من مقدمة كتاب تحف العقول عن آل الرسول) وغير ذلك من ثناء العلماء عليه في فضله وعلمه وفقاهته.

النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات وعلموا تأويل الكتاب وفصل الخطاب وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى، الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا وفتنوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كل بلاد قاصية، بهم يشفي الله السقيم ويغني العديم وبهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون وهم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وخطراً.

والطبقة الثانية النمط الأسفل أحبونا في العلانية وساروا بسيرة الملوك، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا.

والطبقة الثالثة النمط الأوسط أحبونا في السر ولم يحبونا في العلانية ولعمري لئن كانوا أحبونا في السر دون العلانية فهم الصوامون بالنهار القوامون بالليل ترى أثر الرهبانية في وجوههم، أهل سلم وانقياد.

قال الرجل: فأنا من محبيكم في السر والعلانية. قال جعفرعليه السلام: إن لمحبينا في السر والعلانية علامات يعرفون بها، قال الرجل: وما تلك العلامات؟ قالعليه السلام: تلك خِلالٌ أولها أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته وأحكموا علم توحيده. والإيمان بعد ذلك بما هو وما صفته، ثم علموا حدود الإيمان وحقائقه وشروطه وتأويله.

قال سدير: يا ابن رسول الله ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة؟ قال: نعم يا سدير ليس للسائل أن يسأل عن الإيمان ما هو حتى يعلم الإيمان بمَن.

قال سدير: يا ابن رسول الله إن رأيتَ أن تفسر ما قلت؟ قال

الصادقعليه السلام: من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك، ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقر بالطعن، لأن الاسم مُحدَثٌ، ومن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى فقد جعل مع الله شريكاً. ومن زعم أنه يعبد [المعنى] بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف، ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغَّر بالكبير وما قدروا الله حق قدره، قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قالعليه السلام: باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه. قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قالعليه السلام: «تعرفه وتعلم علمه وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا ليوسفعليه السلام: ﴿قالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْيُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي﴾ فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب أما ترى الله يقول:﴿ما كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ يقول: ليس لكم أن تنصبوا إماماً من قِبَل أنفسكم تسمونه مُحِقاً بهوى أنفسكم وإرادتكم.

ثم قال الصادقعليه السلام: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: مَن أنبت شجرة لم ينبته الله يعني من نصب إماماً لم ينصبه الله، أو جحد من نصبه الله، ومَن زعم أن لهذين سهماً في الإسلام. وقد قال الله: ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ

الْخِيَرَةُ﴾»[(١)(٢)].

تعليق وتوضيح:

أشارت هذه الرواية الشريفة إلى أن علامة المحب الحقيقي والموالي الصفي للأئمة المعصومين عليهم السلام هو ذلك الذي أحبهم في السر والعلانية وأهم تلك العلامات هو أنه عرف التوحيد حق معرفته وأحكم علم توحيده ذلك التوحيد المبني على المعرفة الحضورية الشهودية التحققية وهذا مما يكشف لنا عن أهمية المعرفة التوحيدية لله سبحانه وتعالى وكونها هي الغاية التي يسعى إليها الإنسان الموالي الذي يتكامل وينتقل من طور إلى طور ومن مرتبة إلى مرتبة في فضاء المعرفة الإلهية.

ولأهمية هذه الرواية علّق عليها العالم العارف والحكيم المتأله العلامة الطباطبائي قدس سره حيث قال: "إعلم أن حقيقة كل واحد من الأشياء كائنة ما كانت هي عينها الموجود في الخارج فحقيقة زيد مثلاً هي العين الإنساني الموجود في الخارج وهو الذي يتميز بنفسه عن كل شئ ولا يختلط بغيره ولا يشتبه شئ من أمره هناك مع من سواه .

ثم إنَّا ننتزع منه معاني ناقلين إياها إلى أذهاننا نتعرف بها حال الأشياء ونتفكر بها في أمرهما كمعاني الإنسان وطويل القامة والشاب وأبيض اللون

---

(١) سورة القصص ٦٩.

(٢) تحف العقول ص٣٢٥.

وغير ذلك وهي معان كلية إذا اجتمعت وانضمت أفادت نوعاً من التميز الذهني نقنع به .

وهذه المعاني التي ننالها ونأخذها من العين الخارجية هي آثار الروابط التي بها ترتبط بنا تلك العين الخارجية نوعاً من الإرتباط والإتصال كما أن زيداً مثلاً يرتبط ببصرنا بشكله ولونه ويرتبط بسمعنا بصوته وكلامه ويرتبط بأكفنا ببشرته فنعقل منه صفة طول القامة والتكلم ولين الجلد ونحو ذلك فلزيدٍ مثلاً أنواعٌ من الظهور لنا تنتقل بنحو إلينا وهي المسماة بالصفات وأما عين زيد ووجود ذاته فلا تنتقل إلى أفهامنا بوجه ولا تتجافى عن مكانه ولا طريقٍ إلى نيله إلا أن نشهد عينه الخارجية بعينها ولا نعقل منها في أذهاننا إلا الأوصاف الكلية (فافهم ذلك وأجِد التأمل فيه) .

ومن هذا البيان يظهر أنَّا لو شاهدنا عين زيد مثلاً في الخارج ووجدناه بعينه بوجه مشهود فهو المعروف الذي ميزناه حقيقة عن غيره من الأشياء ووجدناه واقعاً من غير أن يشتبه بغيره ثم إذا عرفنا صفاته واحدةً بعد أخرى استكملنا معرفته والعلم بأحواله .

وأما إذا لم نجده شاهداً و توسلنا إلى معرفته بالصفات لم نعرف منه إلا أموراً كلية لا توجب له تميزاً عن غيره ولا توحيد في نفسه كما لو لم نرى مثلاً زيداً بعينه وإنما عرفناه بأنه إنسان أبيض اللون طويل القامة حسن المحاضرة بقي على الإشتراك حتى نجده بعينه ثم نطبِّق عليه ما نعرفه من صفاته وهذا معنى قوله عليه السلام: «إن معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه».

ومن هنا يتبين أيضا أن توحيد الله سبحانه حق توحيده أن يُعرَفَ بعينه أولاً ثم تعرف صفاته لتكميل الإيمان به لا أن يعرف بصفاته وأفعاله فلا يُستوفى حقُ توحيده، وهو تعالى هو الغني عن كل شئ، القائم به كل شئ فصفاته قائمة به وجميع الأشياء من بركات صفاته من حياة وعلم وقدرة ومن خلق ورزق وإحياء وتقدير وهداية وتوفيق ونحو ذلك فالجميع قائم به مملوكٌ له محتاج إليه من كل جهة.

فالسبيل الحق في المعرفة أن يُعرَفَ هو أولا ثم تعرف صفاته ثم يعرف بها ما يعرف من خلقه لا بالعكس.

ولو عرفناه بغيره لن نعرفه بالحقيقة ولو عرفنا شيئاً من خلقه لا به بل بغيره فذلك المعروف الذي عندنا يكون منفصلاً عنه تعالى غير مرتبط به فيكون غير محتاج إليه في هذا المقدار من الوجود فيجب أن يُعرَفَ الله سبحانه قبل كل شئ ثم يعرف كل شئ بماله من الحاجة إليه حتى يكون حق المعرفة وهذا معنى قوله عليه السلام: «تعرفه وتعلم علمه ... إلخ».

أي تعرف الله معرفة إدراك لا معرفة توصيف حتى تستوفي حق توحيده وتمييزه وتعرف نفسك بالله لأنك أثر من آثاره لا تستغني عنه في ذهن ولا خارج ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك حتى تثبت نفسك مستغنياً عنه فتثبت إلهاً آخرَ من دون الله من حيث لا تشعر، وتعلم أن ما في نفسك لله وبالله سبحانه لا غنىً عنه في حال (ولعل تذكير الضمير الراجع

إلى النفس من جهة كسب التذكير بالإضافة)»[١].

هذا تمام كلام العلامةقدس سره ورأينا من المناسب أن نشير إلى أن الإمام الصادقعليه السلام أشار إلى أن المحبين على طبقات ثلاث وهم:

١ـ طبقة أحبوهم في السر ولم يحبوهم في العلانية.

٢ـ طبقة أحبوهم في العلانية ولم يحبوهم في السر.

٣ـ طبقة أحبوهم في السر والعلانية.

حيث وصفهم الإمامعليه السلام بأوصاف أنهم النمط الأعلى وهم الجماعة الذين يكون أمرهم واحد وأنهم شربوا من معين العلم الصافي ـ علم الأئمة المعصومينعليهم السلام ـ حيث علموا تأويل الكتاب، بمعنى أنهم وقفوا على الحقائق وبطبيعة الحال بأن هؤلاء هم الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً وخطراً ولذا يكون البلاء والضرّاء إليهم أسرع من غيرهم كما قالعليه السلام: «إن الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل حيث مستهم البأساء والضرّاء وزلزلوا وفتنوا فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كل بلاد قاصية».

ولكن رغم كل ذلك يشير الإمامعليه السلام إلى الآثار التكوينية لوجودهم حسب مقتضى النظام الأحسن والأكمل حيث قالعليه السلام: «بهم يشفي الله السقيم ويغني العديم ـ أي الفقير ـ وبهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون»، فهذه آثار تكوينية لوجود الموحد الحقيقي والعارف الحقيقي في

---

(١) حاشية العلامة الطباطبائيقدس سره على هذه الرواية ـ المصدر السابق.

نظر الإمام الصادقعليه السلام، وفي نهاية الرواية يشير الإمامعليه السلام أن المعرفة المقصودة والتي تترتب عليها هذه الآثار هي المعرفة الحضورية بالله سبحانه وتعالى وإن كان للمعرفة للحصولية دورٌ ما ممهدٌ للوصول إلى المعرفة الحضورية بحيث أعطى الإمامعليه السلام للمعرفة الحضورية مثالاً قرآنياً في قصة نبي الله يوسفعليه السلام في كيفية معرفة إخوة يوسف بنفس يوسفَ لا بمعرفته بغيره حيث قالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾(١) فقال: «فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره»وهذا معنى ما جاء عن الإمام عليعليه السلام (حيث روى سلمان الفارسي في حديث طويل يذكر فيه قدوم الجاثليق المدينة مع مائة من النصارى وما سأل عنه أبا بكر فلم يجبه ثم أرشد إلى أمير المؤمنين علي ابن أبي طالبعليه السلام فسأله عن مسائل فأجابه عنها، وكان فيما سأله أن قال له: أخبرني عرفت الله بمحمد أم عرفت محمداً بالله عز وجل؟ فقال علي بن أبي طالبعليه السلام: «ما عرفت الله بمحمدصلى الله عليه وآله، ولكن عرفت محمداً بالله عز وجل حين خلقه وأحدث فيه الحدود من طول، وعرض، فعرفت أنه مدبَّر مصنوع باستدلال وإلهام منه وإرادة كما ألهم الملائكة طاعته وعرفهم نفسه بلا شبه ولا كيف)(٢).

وجاء عن الإمام زين العابدينعليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي قوله: «بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدري ما

---

(١) سورة يوسف ٩٠.

(٢) كتاب التوحيد للصدوق ص٢٧٩ ح٤.

أنت»[1].

وهو في معنى الدعاء المعروف «اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرفني رسولك، فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني»[2].

ونختم هذا الفصل بكلام نوري لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام والذي يشير فيه إلى أن معرفة الله هي الغاية من الخلق والإيجاد حيث قال عليه السلام: «أيها الناس إن الله جلَّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة مَن سواه»[3].

---

(١) مصباح المتهجد ـ الشيخ الطوسي ص٥٨٢.

(٢) أصول الكافي ج١ باب في الغيبة ص٣٣٧ ح٥.

(٣) علل الشرايع للشيخ الصدوق ص٩.

الفصل الثاني

أقسام معرفة الله تعالى وعبادته

* المقام الأول: تقسيم المعرفة بالله تعالى
* المقام الثاني: آلية تحول المعرفة التحقيقية الحصولية إلى تحققية حضورية
* المقام الثالث: التلازم بين المعرفة الإلهية والسلوك الإنساني

بعد أن اتضح لنا في الفصل السابق شئ عن أهمية المعرفة الإلهية، نريد أن نتحدث في هذا الفصل عن مقاماتٍ ثلاثة وهي:

المقام الأول/ تقسيم المعرفة بالله تعالى.

المقام الثاني/ آلية تحول المعرفة التحقيقية الحصولية إلى تحققية حضورية.

المقام الثالث/ التلازم بين المعرفة الإلهية والسلوك الإنساني.

المقام الأول/ تقسيم المعرفة بالله تعالى.

إن المعرفة بالله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين معرفة حصولية وتسمى المعرفة التحقيقية ومعرفة حضورية وتسمى المعرفة التحققية.

قال أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري (حفظه الله) في ما نصه: "... أن المعرفة الحصولية تنقسم إلى ظاهرية ساذجة وتحقيقية برهانية، وأن المعرفة الحضورية تنقسم إلى تحققية إحاطية وتحققية غير إحاطية.

السؤال الذي يطرح نفسه وينبغي الإجابة عنه: ما هو الفرق بين المعرفة التحقيقية والمعرفة التحققية؟

بعبارة أخرى: ما هو الفرق بين التحقيق والتحقق؟

إن المراد من المعرفة التحقيقية هو اعتماد الأدلة العقلية القطعية في إثبات وجود الله تعالى ومعرفته وتوحيده، فلا تؤخذ هذه المعارف أخذ المسلَّمات وإنما لابد من إقامة البرهان الذي تحقق من مقدماته ومواده وأقيسته وقضاياه بما يُفضِي إلى القطع لتكون النتائج المتوخاة قطعية بتِيَّة أيضاً.

فما ذكره المتكلمون والحكماء الإلهيون في مصنفاتهم من دلائل على إثبات الواجب أو الصانع من قبيل برهان النُظُم وبرهان الإمكان والوجوب وبرهان الحدوث وبرهان الحركة والتغيُّر وبرهان النفس الإنسانية وبرهان العلة والمعلول وبرهان الصدِّيقين وغيرها من البراهين، فإنها تعتمد العقل في تأسيس وتقرير براهينها، وبذلك تعطي الباحث اتزاناً معرفياً صُورِياً، والمراد من الصورية هنا كونها لا تعدو دائرة الذهن.

وأما المعرفة التحققية بغض النظر عن كونها إحاطية أو غير إحاطية فإنها تسلك بالإنسان طريقاً آخرَ لمعرفة الله تعالى وتوحيده وهو طريق الكشف والشهود والمعاينة، ونتيجة الشهود ليست صوراً ذهنية وإنما حقائق قلبية وجودية تكوينية.

بعبارة أخرى: إن حصيلة التحقيق البرهاني هي أن يكون الباحث مظهراً لنتيجة ذلك السير العقلي، ولذا فإنه لا يخرج عن دائرة المفهوم والصورة الذهنية، وأما حصيلة التحقق الشهودي فهي أن يكون السالك مظهراً لنتيجة ذلك السير المعنوي القلبي، أي يكون السالك مظهراً لما تحقق به، فمن تحقق بالعدل يكون مظهراً فعلياً للعدل، فلا يكون مجرد عادلٍ

فحسب وإنما يكون عَدلاً فاجتمعت فيه كمالات العدل، وهكذا مَن تحقق بالوفاء وصار وفياً بل وفاءً، وهكذا الحال في سائر الشهود والتحقق، وكلٌّ بحسبه ومرتبته، وهذا ما أردنا قوله من كون نتائج الشهود والتحقق هي حقائق قلبية تكوينية.

ويمكن تقريب هذا المعنى الدقيق بمثال حسِّيٍ في متناول الجميع وهو الجوع والعطش، فمَن عرف ما هو الجوع وكيف يصيب الإنسان وكيف يتخلص منه دون أن يعيش بنفسه حالة الجوع فإن معرفته هذه معرفة تحقيقية، وأما مَن عاش الجوع بنفسه فإن معرفته بالجوع تكون تحققية حيث تعرَّض نفسُه للجوع وصار جائعاً، وشتَّان بين مَن عرف الجوع ومن عاشه، ولذا قيل: من وُصِفَ له الشهد ليس كمن ذاقه"[1].

المقام الثاني: آلية تحول المعرفة التحقيقية الحصولية إلى تحققية حضورية:

بعد أن اتضح الفرق لنا بين المعرفة التحققية والمعرفة التحقيقية يتضح جلياً أن المعرفة التحققية هي أشرف وأفضل وأكمل من تلك المعرفة التحقيقية، وذلك لأن في الأولى ـ المعرفة التحققية ـ يكون الإنسان متحققاً بالصفات والأسماء الإلهية وهذا ما ورد عندنا في الروايات والتي

(١) كتاب معرفة الله للسيد كمال الحيدري ج١ ص٢٤٨.

منها ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «تخلقوا بأخلاق الله»[(١)].

أي ينبغي على الإنسان الساعي نحو كماله وهو القرب إلى الله تعالى أن يتخلق بالأخلاق الإلهية أي يكون مظهراً للأسماء الإلهية بقدر سعته الوجودية وذلك أن يحصل على معانيها حقيقة لا مفهوماً وكما يقول علماء المنطق: "أن يكون ما عنده بالحمل الشائع لا بالحمل الأوّلي"[(٢)]، أي أن يكون متحققاً بالعدالة والرحمة لا أن يكون عنده مفاهيمها فقط وتصورات مركوزة في ذهنه، ومن هنا قال جملة من العرفاء: (أن من سمع ليس كمن ذاق).

ومن هنا يكون الكمال الحقيقي هو الذي يكون في القرب الإلهي وهذا لا يتحقق إلا في السير في الأسماء والصفات الإلهية والتي هي غير متناهية لعدم تناهي الذات الإلهية ولذا يكون التكامل والسعي في الحصول على الكمالات الإلهية غير متناهي وغير منقطع حتى في العوالم القادمة للإنسان كعالم البرزخ وما بعده من عوالم وهو ما يسميه العلماء والعرفاء

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني ج٩ ص٣٦٩.

(٢) قسَّم علماء المنطق الحَمْلَ إلى قسمين:

حملٌ أولي وحملٌ شائع صناعي، فالأول: حمل المفهوم على نفسه مثل الإنسان إنسانٌ أو الحجر حجرٌ أو الإنسان حيوان ناطق وما إلى ذلك.

والثاني: حمل المفهوم على مصداقه مثل قولنا (زيد ضاحك وزيد عالم) وسمي الحمل الشائع بالصناعي لكثرة استعماله في العلوم والمحاورات العرفية وقُسِّم أيضا هذا الحمل إلى حمل شائع بالذات وحمل شائع بالعَرَض.

الشامخون بالسير في السَفر الثاني والذي يكون من الحق إلى الحق بالحق "وهو السَفر الذي لا نهاية له في عالم الأسماء والصفات الإلهية حيث التحقق بها فيكون المسافر فيها مظهراً لها، وهذا هو معنى التحقق فيها والتعرف بها وتتم فيه ولايته".

إن في هذا السَفر اللامتناهي تُرسَمُ حدود السفر فيه بقدر ما يحمله المسافر من متاع: «آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر»[1].

وما يتسع له إناءه ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[2]، وفي ضوء ذلك تتحدد مراتب السالكين من أنبياء ومرسلين وأوصياء وأولياء وصدِّيقين وغير ذلك من الصالحين ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[3] ...إلخ"[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ص١٧.

(٢) الرعد ١٧.

(٣) الإسراء ٢١.

(٤) كتاب من الخلق من إلى الحق رحلات السالك في أسفاره الأربعة للعلامة السيد كمال الحيدري ص ١٩٩.

إشارة: إن حركة الإنسان نحو الله تمر بأربعة أسفار هي:

السفر الأول: من الخلق إلى الحق .

السفر الثاني: من الحق إلى الحق بالحق.

السفر الثالث: من الحق إلى الخلق بالحق .

السفر الرابع: من الخلق إلى الخلق بالحق ولتجلية حقيقة هذه الأسفار يُرجع إلى المصدر السابق.

وعلى ضوء ما تقدم يتضح لنا جلياً أن الكمال كل الكمال يكمن في المعرفة التحققية لا في المعرفة التحقيقية وإن كان للمعرفة التحقيقية دور إعدادي لتلك المعرفة.

آلية تحول المعرفة التحقيقية إلى تحققية:

إن الإنسان الساعي نحو كماله يمكنه أن يحوِّل المَعرفة التحقيقية إلى معرفة تحققية وذلك يكمن عبر العبودية التامة لله سبحانه وتعالى والذي يكون عبر خضوع الإنسان للبرامج الإلهية الموصلة له إلى الطهارة ظاهراً وباطناً والتي من أسسها التقوى، وما أدراك ما التقوى التي تعني تنقية الإنسان باطناً وظاهراً من الموانع والحُجُب لاستقبال الفيض الإلهي، وكما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[(١)]، ومن هنا نجد التأكيد الحثيث في القرآن وكلام المعصومين عليهم السلام على التحلي بالحكمتين النظرية والعملية أي بالعلم والعمل وأن الإنسان تكمن حقيقته في علمه وعمله وهذه حقيقة أشار إليها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله «أن ثروة العاقل علمه وعمله»[(٢)]، فإذن لابد للإنسان أن يحوِّل ما تعلمه تحقيقا وحصولاً إلى تحقق وشهود عبر العبودية لله والتي باطنها الطهارة وطريقها التقوى، وهذا فيما يعني أن المعرفة لا تكمل ولا تصل إلى التحقق إلا بالعبودية له سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ نجد أن أكمل أوصاف الإنسان الكامل والذي يتمثل في

(١) البقرة ٢٨٢.

(٢) غرر الحكم ٤٧٠٨.

أعلى مصاديقه بالنبي الخاتمﷺ وهو وصف العبودية، حيث وصفه الله تعالى بالعبد المطلق في القرآن حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١].

وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[٢]، حيث أن العبودية هي أفضل أوصافهﷺ حتى في أعلى مراتب قربه من الله سبحانه وتعالى وعلى هذا فمَن أراد أن يكون متحققا بالمعرفة الإلهية والقرب منه تعالى لابد أن يكون عبداً لله سبحانه وتعالى، كما قال الإمام الصادقعليه السلام: «إن أفضل الفرائض وأوجبها على الإنسان معرفة الرب والإقرار له بالعبودية»[٣]، حيث أشار هذا النص الشريف إلى موازنة دقيقة بين المعرفة المطلوبة والعبودية لله حيث قال: «والإقرار له» وهنا الإقرار ليس مطلق الإقرار ولو مفهوماً بل بمعنى التحقق الذي يكون بالعبودية التامة لله سبحانه وتعالى ولذا كانت أفضل الفرائض.

المقام الثالث/ التلازم بين المعرفة الإلهية والسلوك الإنساني.

من الوضوح بمكان أن الدين ينقسم إلى قسمين:

---

(١) الإسراء ١.

(٢) النجم ١٠.

(٣) بحار الأنوار ج٤ ص٢٦ ح٣٤.

الأول: الأصول أو ما يسمى بالرؤية الكونية والتي تعني مجموعة من المعتقدات والنظرات الكونية المتناسقة حول الكون والإنسان بل حول الوجود بصورة عامة وهي ما نعتقده في الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

الثاني: الفروع أو ما يسمى بالإيديولوجية في إحدى معانيها والتي تعني مجموعة من الآراء الكلية المتناسقة حول سلوك الإنسان وأفعاله[١].

الأيديولوجية منبثقة من الرؤية الكونية:

وعلى ضوء هذا التقسيم يتضح لنا أن الرؤية الكونية والبنية العقائدية هي الأساس والقاعدة التي يتحرك عليها المنهج السلوكي والحقوقي للإنسان فلا يمكن أن نجد منهجاً سلوكياً لا يُؤَسَسُ ولا يُنظَّر له برؤية كونية وبنية عقائدية لأن التلازم بينهما لا ينفك فالكل يعيش تحت مظلة من العقائد والأسس الفكرية والنظرية حتى مَن يدعي أنه لا يمتلك رؤية ولا عقيدة بل يعيش بلا عقيدة تكون في الواقع هذه عقيدته وهذه رؤيته، وعلى هذا الأساس أن كل عقيدة تؤثر بصورة شعورية أو غير شعورية على قيم الإنسان ومن هنا كلما كانت العقيدة والرؤية صحيحة ومبنية على الإستدلال الصحيح فبطبيعة الحال تفرز منهجاً وسلوكاً صحيحا يسعد الإنسان والعكس بالعكس.

---

(١) دروس في العقيدة الإسلامية للأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي ص٣٥.

وهـذه المسـألة باتـت مـن الوضـوح بمكـان حتـى فـي الأكاديميـات العلمية فضـلاً عـن الحـوزات ـ التـي تعنـى بشـؤون النـاس فـي تنظـيم البُعـد السلوكي للمكلف ـ نجدها تعتني عناية كبيرة في مسألة التأسيس والتنظير وهذا يكشف فيما يكشف عن خطورة هذا البُعد في إسعاد البشرية ومن ثَـمَّ تنوعت المدارس المعرفية البشـرية عموماً والمنـاهج الدينيـة خصوصاً مـن منهج كلامي ومنهج فلسفي ومنهج عرفاني، فالكل يسعى لإيجاد الأطروحة والأسس النظرية والصياغات العقدية لهذا الإنسان، وكل هـذا يكشـف عـن أهميـة هـذا البُعـد والـذي سـوف نشير إلـى بعـض مفاصـله فـي القـادم مـن الأبحاث إن شاء الله تعالى.

الكلم الطيب والعمل الصالح:

إن المتتبع في الآيات والروايات يجد التأكيد الحثيث علـى ضـرورة التمازج بين البعد النظري والبعد العملي قـال تعـالى: ﴿إِلَيْـهِ يَصْـعَدُ الْكَلِـمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[١].

فالكلم الطيب بقرينة المقابلة هو العقيدة الصحيحة المرتفعة إلـى الله تعالى وباتحاد المُعتقِد مع عقيدته يكون الصاعد إليه تعالى هو الإنسان نفسُـه عبـر مـدارج الكمـال، حيـث أن العمـل الصـالح وهـو السـلوك المسـتقيم والمتشعب من الكلم الطيب هو الذي يرفع ذلـك الإنسـان ومـن ثـمَّ نجـد أن

(١) فاطر ١٠.

المعرفة بالله تعالى وبكل ما يتفرع عليها من عقائد حقة تدعو إلى العمل بمقتضاها وسلوك الطريق المستقيم قال رسول الله ﷺ: «مَن عرف الله وعظمه منع فاه من الكلام وبطنه من الطعام وعفَّى نفسه بالصيام والقيام»[١]، وقال ﷺ: «أفضل العبادة العلم بالله والتواضع له»[٢].

وقال الإمام علي عليه السلام: «يسير المعرفة يوجب الزهد في الدنيا»[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عز وجل»[٤].

وعنه عليه السلام: «مَن قال لا إله إلا الله مخلِصاً دخل الجنة وإخلاصه أن تحجزه لا إله إلا الله عمَّا حرَّم الله عز وجل»[٥].

المعرفة، المحبة، الإخلاص:

ومن هنا جاء البحث في أن المعرفة بالله سبحانه وتعالى تورث المحبة له وأن المحبة له تورث الإخلاص له وذلك لأن الإنسان إذا عرف أن الله محض الجمال والكمال عشقه وأحبه لكون الإنسان مفطوراً على حب الجمال والكمال قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا

---

(١) أصول الكافي ج٢ ص٢٢٦ ح٢٥.

(٢) تحف العقول ص٣٥٧.

(٣) غرر الحكم ١٠٩٨٤.

(٤) أصول الكافي ج٢ ص٦٠ ح٣.

(٥) كتاب التوحيد للصدوق قدس سره ص٣٠.

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[١].

وهذه الفطرة باقية لا تتبدل ولا تتغير قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[٢]، "فحب الكمال وطلب تحصيله هما سنة الله في خلقه وهما من أصول الفطرة الأولى التي فُطِرَ عليها الإنسان ولا ينتقص ذلك بما نشاهده من انحرافات جسيمة عن مستلزمات هذه الفطرة السليمة والصبغة الحسنة فذلك لا يُعد إبطالاً لها وإنما هو استعمال خاطئ لها في غير ما أُريد لها"[٣].

يقول العلامة السيد الطباطبائي قُدّسَ سِرُّه: "وأما الإنحراف المشهود عن أحكام الفطرة فليس إبطالاً لحكمها بل استعمالاً لها في غير ما ينبغي من نحو الإستعمال نظير ما ربما يتفق أن الرامي لا يصيب الهدف في رميته فإن آلة الرمي وسائر شرائطه موضوعة بالطبع للإصابة إلا أن الإستعمال يوقعها في الغلط"[٤].

فالفطرة باقية على أصلها وفصلها في حب الكمال والسعي لبلوغه ولكن الإشكالية تكمن في تحديد المصداق، والخطأ في تعيين المصداق المطلوب حقاً يؤدي إلى الإنحراف فيتصور البعض أن كماله المطلوب هو

---

(١) سورة الروم ٣٠.

(٢) سورة فاطر ٤٣.

(٣) كتاب معرفة الله من أبحاث العلامة السيد كمال الحيدري بقلم طلال الحسن ج١ ص٣٣

(٤) الميزان ج٥ ص٣٣٨.

المال أو الجاه أو السلطان أو الملذات ..."[١].

على هذا يتضح لنا أن المعرفة لابد أن تستلزم المحبة والمحبة تستلزم الإخلاص وذلك يعني خضوع الإنسان تحت ما أراده الله سبحانه منه وهذا ما أسميناه بأن كمال الإنسان في عبوديته لله سبحانه وتعالى.

فينبغي على الإنسان في سيره العلمي خصوصاً طالب العلم الحوزوي أن يُخضِعَ ما تعلمه حصولاً إلى مسار المعرفة الحضورية الشهودية التحققية، وهذه حقيقة أشار إليها جملة من الأعلام الكبار منهم الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّه حيث قال: "فالحكيم لا يكون إلهياً والعالم لا يكون ربانياً وروحانياً إلا إذا كان كل علمه إلهياً وربانياً، ولو فرض أن عالماً بَحَثَ عن التوحيد والتجريد ولكن لم يكن باعث هذا العلم طلب الحق وحب الله تبارك وتعالى، بل كان الداعي له - إلى هذا العلم - نفس العلم وفنونه البديعة، والنفس وجلواتها فلا يكون علمه آية وعلامة ولا حكمته حكمة إلهية بل نفسانية وطبيعية.

فما اشتهر عند العلماء أن قسماً من العلوم مطلوب في نفسه، وتقابله العلوم العملية ليس تماماً - في نظري القاصر - بل لجميع العلوم المعتبرة سمة المقدَّمِيَّة، غاية الأمر كل واحد مقدمة لشئ وعلى نحو خاص فعلم التوحيد والتوحيد العلمي مقدمة لحصول التوحيد القلبي الذي هو توحيد عملي ويحصل بالتأمل والتذكر والإرتياض القلبي.

---

(١) كتاب معرفة الله من أبحاث العلامة السيد كمال الحيدري بقلم طلال الحسن ج١ ص٣٣.

فلرب أشخاص صرفوا العمر في التوحيد العلمي وصرفوا الوقت بالمطالعة والبحث والتعليم والتعلم ولكن لم يجدوا صبغة التوحيد ولم يصبحوا علماء إلهيين أو حكماء ربانيين، بل تزلزلت قلوبهم أكثر من غيرهم وهذا لأن علومهم لم تكن متسمة بِسِمَةٍ ولم يكن لهم شغل بالرياضات القلبية وزعموا أن هذا الطريق يطوى بالمدارسة فحسب.

يا أيها العزيز: إن جميع العلوم الشرعية مقدمة لمعرفة الله تبارك وتعالى ولحصول حقيقة التوحيد في القلب التي هي صبغة الله ﴿مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾(1)، غاية الأمر أن بعضها مقدمة قريبة وبعضها مقدمة بعيدة وبعضها مقدمة بواسطة.

وبعضها الآخر مقدمة مع الواسطة فعلم الفقه مقدمة للعمل، والأعمال العبادية هي بنفسها مقدمة لحصول المعارف وتحصيل التوحيد والتجريد إن أُديت بآدابها الشرعية القلبية والقالبية والظاهرية والباطنية ولا يمكن مناقضة ذلك بالقول إنه لم يحصل من عباداتنا طوال أربعين أو خمسين سنة أي معارف وحقائق، والسبب أنه لم يحصل من علومنا كيفية حتى ولا حال.

ولم يكن وليس لنا أي ارتباط بالتوحيد والتجريد وهما قرة عين الأولياء عليهم السلام وتلك الشعبة من علم الفقه والتي تتكفل بسياسة المدن وتدبير المنزل وتعمير البلاد وتنظيم العباد أيضاً مقدمة للأعمال التي لها دخل تام

---

(1) سورة البقرة ١٣٨.

في حصول التوحيد والمعارف"(١).

وعلى هذا المسار نفسه نجد مفكراً إسلامياً يكتب: "إن أصول الدين الخمسة التي تمثل على الصعيد العقائدي جوهر الإسلام والمحتوى الأساسي لرسالة السماء هي في نفس الوقت تمثل بأوجهها الإجتماعية على صعيد الثورة الإجتماعية التي قادها الأنبياء الصورةَ المتكاملة لأسس هذه الثورة"(٢).

وبعبارة أخرى نقول: إن العقيدة لا تعني فقط الإلتزام النظري المجرد والفارغ عن العمل، بل إن هذه المقولة تختزن في داخلها الحرارة الكافية لحث الملتزم بها نحو العمل والجهاد في سَوح الكفاح وأن تعيش هذه العقيدة في ضمير الإنسان وشعوره، فهي المحرك له نحو كل كمال ومن ثَمَّ نجد مثلاً أن الإعتقاد بوجود الله عز شأنه لا يكفي فيه إقامة مجموعة من البراهين في إثبات وجوده سواء عُرِضَت هذه البراهين باللغة الفلسفية أم بغيرها بل لابد من دراسة وقراءة العقيدة في أبعادها الروحية ومعطياتها التربوية، فكما عندنا توحيد نظري يقوم على نفي الشريك كذلك عندنا توحيد عملي يُمَنهِج سلوك الإنسان نافياً الشريك الباطني وهو الهوى قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(٣).

---

(١) كتاب جنود العقل والجهل للإمام الخميني قدس سره ص٨.

(٢) الإسلام يقود الحياة ـ الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره ص٣٨.

(٣) سورة الجاثية٢٣.

المنهج القرآني في التربية:

إن المنهج التربوي في الطرح العقائدي هو منهج قرآني حيث نجد القرآن الكريم يعالج هذه المقولات العقائدية مشفوعة باللغة التربوية لتعطي الإنسان دفعات مؤثرة تساهم في صياغته وتشكيله ليكون إنساناً إلهياً وهكذا يتجلى هذا المنهج في كلمات أهل البيت عليهم السلام كما ذكرنا آنفاً، وقِس على ذلك بقية المقولات العقائدية الأخرى كالعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

ومن ثَمَّ يتضح لنا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأس الحكمة مخافة الله»[(١)]، وهذا فيما يعني أن بداية الحكمة هو الخوف من الله سبحانه وتعالى بل لا يكون الحكيم حكيماً إلا بهذا الخوف وفي هذا المسار يقول المرحوم العارف الكبير محمد تقي المجلسي قدس سره في ذلك:

"رأس الحكم ـ جمع الحكمة ـ مخافة الله فإنها سبب إفاضة العلوم الحقة أو مبالغة فتشمل ترك المنهيات والعمل بالواجبات بل اجتناب الشبهات منها أيضاً ... ويلزمها اللَمَّ بالجميع وهو عين الحكمة "[(٢)]، ومن ثَمَّ جاء الحث والتأكيد على الحكمة بهذا المعنى في قول الإمام الصادق عليه السلام: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه وبصَّره عيوب الدنيا دائها ودوائها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام»[(٣)].

---

(١) مَن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج٤ ص٣٧٦.

(٢) روضة المتقين المولى محمد تقي المجلسي ج١٣ ص٣.

(٣) مَن لايحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج٤ ص٤١٠.

وتعميقاً لما نحن فيه نشير إلى كلام العلامة الطباطبائي قدس سره في المقام حيث قال:

"إنَّ العبادة وهي التوجه إلى الله سبحانه لا تتحقق من دون معرفة ما، وإن كانت هي أيضاً مقدمة أو محصلة للمعرفة فإتيانها بحقيقتها المقدورة يحتاج إلى سير في المعرفة.

وإن كانتا كالمتلازمتين كما في خبر إسماعيل بن جابر عن الصادق عليه السلام: «العلم مقرون بالعمل فمَن عَلِمَ عَمِلَ ومَن عَمِلَ عَلِمَ»[1].

وبعبارة أخرى يلزم أن تقع العبادة عن معرفة حتى تنتج معرفة كما في النبوي صلى الله عليه وآله: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم»"[2].

الحب الإلهي وعبادة الأحرار:

رأينا من المناسب في ختام هذا الفصل أن نشير إلى الطرق التي من خلالها يكمن التلازم بين العلم والعمل وبين الرؤية الكونية والأيديولوجية وهي مسألة ضرورية في المنهج العلمي المتبع وعلى أساسها يحدد الإنسان مقصوده نحو الكمال المطلوب لأن الآلية والوسيلة لها دخالة في تلون الهدف المنشود و كما أشارت جملةٌ من الروايات إلى تقسيم العبادة على أقسام ثلاثة: (ـ بيان ذلك ـ: إن العبادة تتصور على ثلاثة أقسام:

---

(١) شرح أصول الكافي للمولى المازندراني ج٢ ص١٣٥ باب من عمل بغير علم.

(٢) رسالة الولاية للعلامة الطباطبائي قدس سره ص٢٤٤.

أحدها: العبادة طمعاً في الجنة.

والثاني: العبادة خوفاً من النار.

والثالث: العبادة لوجه الله لا خوفاً ولا طمعاً.

وغير القسم الثالث: حيث إن غايته الفوز بالراحة أو التخلص من العذاب فغايته حصول مشتهى النفس.

فالتوجه فيه إلى الله سبحانه إنما هو لحصول مشتهى النفس ففيه جعل الحق سبحانه واسطة لحصول المشتهى.

والواسطة من حيث هي واسطة غير مقصودة فهي بالحقيقة ليست عبادة للشهوة.

بقي القسم الثالث وهو العبادة بالحقيقة، وقد وقع التعبير عنه مختلفاً، ففي الكافي مسنداً عن هارون عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «العبادة ثلاثة : قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى للثواب فتلك عبادة الأُجراء وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له ، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»[١].

وفي نهج البلاغة: «إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[٢].

---

(١) الكافي ج٢ ص٨٣ ح٥.

(٢) نهج البلاغة خطبة ٢٣٧ شرح محمد عبده.

وفي العلل والمجالس والخصال: عن يونس عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وطبقة يعبدونه خوفا من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكني أعبده حبا له عز وجل فتلك عبادة الكرام لقوله عز وجل: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[1][2].

ولقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[3]، فمن أحب الله عز وجل أحبه الله، وإن أحبه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[4].

وعن المناقب كان يعني رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي حتى يغشى عليه فقيل له: «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[5].

أقول: والشكر والحب مرجعهما واحد، فإن الشكر هو الثناء على الجميل من حيث هو جميل فتكون العبادة توجها وتذللاً له سبحانه لأنه

---

(١) النمل ٨٩

(٢) علل الشرايع ج١ باب علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم ص١٩ ح٨، والخصال ص١٨٨ ح٢٥٩.

(٣) سورة آل عمران ٣١.

(٤) الواقعة ٧٩.

(٥) الخرائج والجرائح ـ قطب الدين الراوندي ج٢ ص٩١٧.

جميل بالذات، فهو سبحانه هو المقصود لنفسه لا لغيره، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

فغاية خلقهم أي وجودهم أي كمال وجودهم، هو عبادته سبحانه، أي التوجه إليه وحده، والتوجه وسط غير مقصود بالذات، فهو سبحانه غاية وجودهم، ولذا فسَّر العبادة ههنا في الأخبار بالمعرفة.

وقال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٣].

وكذلك الحب انجذاب النفس إلى الجميل من حيث هو جميل، وعنده سبحانه الجمال المطلق.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾[٥].

---

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) الإسراء ٢٣.

(٣) غافر ٦٥.

(٤) آل عمران ٣١.

(٥) البقرة ١٦٥.

وسيأتي رواية الديلمي[١]، وفي دعاء كميل «واجعل قلبي بحبك متيما»[٢]، وفي مناجاة علي عليه السلام: «إلهي أقمني في أهل ولايتك مقام مَن رجا الزيادة من محبتك»[٣]، وحديث الحب كثير الدور في الأدعية.

وإن تعجب فعجب قول مَن يقول: إن المحبة لا تتعلق به سبحانه حقيقة، وما ورد من ذلك في خلال الشريعة مجاز يُراد به امتثال الأمر والإنتهاء من النهي، وهذا دفع للضرورة ومكابرة مع البداهة.

ولعمري كم من الفرق بين يقول: إن المحبة لا تتعلق بالله سبحانه ومَن يقول: إن المحبة لا تتعلق إلا بالله سبحانه"[٤].

ولا يخفى أن محبة الله تستدعي محبة رسوله ومحبة أوليائه عليهم السلام بل محبة كل مؤمن مدحه الله في كتابه وذلك لكون محبوب المحبوب محبوبٌ، بل لا يمكن أساساً التفكيك بين هذه المحبوبات فيما بين بعضها البعض فمن يدعي حب الله ولا يحب رسوله فإنه لا يحب الله حقيقة وكذا مَن يدعي أنه يحب الله ورسوله ولا يحب الأئمة المعصومين الصادقين عليهم السلام من أوليائه كذلك لا يحب الله تعالى حقيقة، فما عليه البعض من هذا التفكيك بين هذه المحبوبات المقدسة أمرٌ باطل بحكم العقل والنقل، وفي

---

(١) بحار الأنوار ج٧٧ ح٢٨.

(٢) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٨٤٣

(٣) بحار الأنوار ج٩٨ ص٩٨ و ونهج السعادة ج٦ ص١٤٥.

(٤) كتاب طريق عرفان ترجمة وشرح ومتن رسالة الولاية عارف بالله علامة آية الله سيد محمد حسين الطباطبائي(فارسي) ص٢٠١.

هـذا الصـدد يقـول العـارف الكبيـر والفيلسـوف العظـيم المـولى الفـيض الكاشاني رحمه الله في ذيل قوله تعالى: ﴿قُـلْ إِن كُنـتُمْ تُحِبُّـونَ اللّـهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ ما هذا نصه:

"المحبة من العبد ميل النفس إلى الشئ لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه ومن الله رضاه على العبد وكشف الحجاب عن قلبه والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله وأن كل ما يراه كمالا من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقر به إليه فعلامة المحبة إرادة الطاعة والعبادة والإجتهاد البليغ في اتباع من كان وسيلة له إلى معرفة الله تعالى ومحبته ممن كان عارفاً بالله محباً إياه محبوباً له فإن مَن هذه صفاته إنما نال هذه الصفات بالطاعة على الوجه المخصوص وهو رسول الله صلى الله عليه وآله ومَن يحذو حذوه فمَن أحب الله لا بد له من اتباع الرسول في عبادته وسيرته وأخلاقه وأحواله حتى يحبه الله فإن بذلك يحصل التقرب إلى الله وبالتقرب يحصل محبة الله تعالى إياه كما قال تعالى في الحديث القدسي: ﴿وإن العبد ليتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه﴾[1]، وأيضا لما كان الرسول حبيب الله فكل مَن يدعي محبة الله لزمه محبة الرسول لأن محبوب المحبوب محبوب ومحبة الرسول إنما تكون بمتابعته وسلوك سبيله قولاً وعملاً وخلقاً وحالاً وسيرةً وعقيدةً ولا يتمشى دعوى محبة الله إلا بهذا فإنه

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني ج١ ص٦٥.

قطب المحبة ومظهرها فمَن لم يكن له من متابعته نصيب لم يكن له من المحبة نصيب ومَن تابعه حق المتابعة ناسب باطنه وسره وقلبه ونفسه باطن الرسول وسره وقلبه ونفسه وهو مظهر محبة الله فلزم بهذه المناسبة أن يكون لهذا التابع قسطاً من محبة الله بقدر نصيبه من المتابعة فيُلقي الله محبته عليه ويسري من باطن الرسول نور تلك المحبة إليه فيكون محبوباً لله مُحِباً له ومَن لم يتابعه يخالف باطنه باطن الرسول فبعد عن وصف المحبوبية وزوال المحبة عن قلبه أسرع ما يكون إذ لو لم يحبه الله لم يكن محبا له وفي حكم الرسول مَن أمر الله والرسول بحبه واتباعه وهم الأئمة والأوصياء عليهم السلام.

في الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث: «من سره أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعته وليتبعنا ألم تسمع قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1] والله لا يطيع الله عبدٌ أبداً إلا أدخل الله عليه في طاعته اتباعنا ولا والله يتبعنا عبدٌ أبداً إلا أحبه الله ولا والله لا يدع أحد اتباعنا أبداً إلا أبغضنا ولا والله لا يبغضنا أحد أبداً إلا عصى الله ومَن مات عاصيا لله أخزاه الله وأكبه على وجهه في النار»[2].

ومن الواضح قرآنيا وروائيا أن اتباع النبي وأهل بيته عليهم السلام اتباعاً حقيقياً هو الذي يورث محبة الله للعبد كما أن العبد ينبغي في حركته أن

---

(١) آل عمران ٣١.

(٢) تفسير الصافي للمولى الفيض الكاشاني ج١ ص٣٢٦.

يكون مُحِبَاً لله كما أشرنا سابقاً وخير آية تدل على ذلك والتي تُعتبَر من غرر الآيات هو قوله تعالى: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) حيث أشارت إلى أن مَن أراد أن يكون محبوباً فضلاً عن كونه مُحِبَاً لا يكون إلا بهذا الإتباع الحقيقي والإنصهار في الصراط المحمدي المستقيم عبر ما جاء به من معارف حقيقية ومناهج سلوكية ومن هنا كان الدين هو الحب لله ولأوليـاءه والبغض لأعداء الله وكما ورد عن ربعي بن عبد الله قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام: «جُعلتُ فداك، إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم، فينفعنا ذلك؟ فقال: «إي والله، وهل الدين إلا الحب والبغض! قال الله: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»(٢).

رزقنا الله وإياكم المحبة الإلهية التي تطهر قلوبنا عن كل ما سواه كما قال الإمام الصادق عليه السلام في ذيل قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾: يطهرهم عن كل شئ سوى الله(٣).

---

(١) آل عمران ٣١.

(٢) آل عمران ٣١، مستدرك الوسائل ج١٥ ص١٢٩.

(٣) تفسير مجمع البيان للطبرسي ج١٠ ص٢٢٣.

الفصل الثالث

أهمية البحث العقائدي

* عظمة العلم وأهمية العالم
* العلم كمال وجودي
* علم العقائد أشرف العلوم
* علم العقيدة الآية المحكمة
* دور أصحاب الائمة عليهم السلام في الساحة العقائدية
* دور العلماء في الساحة العقائدية
* توصية وتأكيد على أهمية الدرس العقائدي

بعد أن اتضح في الفصل الأول أهمية معرفة الله سبحانه وتعالى واتضح أيضاً تقسيم هذه المعرفة في الفصل الثاني نشير في هذا الفصل إلى العلم الذي يتكفل الحديث عن معرفة الله وأسمائه وصفاته وسائر ما يترتب عليها من أمور معرفية، وهذا العلم هو ما يسمى بعلم أصول الدين أو علم العقيدة والذي تختلف المدارس المعرفية في كيفية إبرازه وبلورة مقدماته ونتائجه وما يترتب عليه من ثمرات، فنجد أُطُراً خاصة لكل مدرسة سواء كانت كلامية أم فلسفية أم عرفانية في إبراز هذا العلم والتي سوف يأتي الحديث عنها في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى.

حيث يتضح أن مقصود هذه المدارس هو كيفية الوصول إلى هذه المعرفة، ولكن لكل مدرسة آليات وأساليب تخصها للوصول إلى تلك المعرفة.

عظمة العلم وأهمية العالم:

قبل أن نخوض في الحديث عن أهمية علم المعرفة أو البحث العقائدي تجدر الإشارة إلى نقل طائفة من الآيات والروايات الدالة وبكثافة على عظمة العلم وأهمية العالم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

---

(١) فاطر ٢٨.

(٢) الزمر ٩.

(٣) آل عمران ١٨.

(٤) آل عمران ٧.

(٥) الرعد ٤٣.

(٦) المجادلة ١١.

(٧) العنكبوت ٤٩.

الْعَالِمُونَ﴾[١].

وهذه طائفة من أقوال أهل العصمة والطهارة ننقلها لكم للفائدة ومن باب«كلامكم نور»:

قال النبيﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢].

وعنهﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٣].

وعنهﷺ: «فضل العالم على العابد سبعون درجة، بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً، وذلك لأن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها ، والعابد يقبل على عبادته»[٤].

وعنهﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت في الماء ليصلُّون على معلم الناس الخير»[٥].

وعنهﷺ أنه قال لمعاذ: «لإن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»[٦].

وعنهﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة

---

(١) العنكبوت ٤٣.

(٢) صحيح البخاري ج٢ ص٣٦ و٣٧.

(٣) الكافي ج١ ص٣٠.

(٤) الترغيب والترهيب ج١ ص١٠٢.

(٥) سنن الترمذي - ج٥ ص٥٠.

(٦) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص١٤٧.

جارية، أو علم ينفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)].

وعنه ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[(٢)].

وعنه ﷺ: «أيما ناشٍ نشأ في العلم والعبادة حتى يكبر أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثواب اثنين وسبعين صدِّيقا»[(٣)].

وعنه ﷺ: «يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»[(٤)].

وعنه ﷺ:«أفضل الصدقة أن يعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه»[(٥)].

وعنه ﷺ: «قليلُ العلم خير من كثير العبادة»[(٦)].

وعنه ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه واقتبسوه من أهله، فإنَّ تعلمه لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعلم به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله تعالى، لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبيل الجنة، والمؤنس في

---

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٤١٠.

(٢) سنن الترمذي ج٥ ص٢٨.

(٣) كنز العمال ج١٠ ـ ١٥١.

(٤) المصدر السابق ج١ ص١٧٢.

(٥) سنن ابن ماجة ج١ ص٨٩.

(٦) غرر الحكم ج٤ ٥٠٦.

الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة تقتبس آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلواتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسُمَّاع البر وأنعامه، إن العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، ومجالس الأبرار، والدرجات العلا في الآخرة الأولى.

الذكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام. والعلم إمام، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه»[١].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس: إعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، إن المال مقسوم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم، وقد ضمنه وسَيَفِي لك، والعلم مخزون عند أهله، وقد أُمرتم بطلبه من أهله، فاطلبوه»[٢].

وعنه عليه السلام: «العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات

---

(١) أمالي الطوسي ج٢ ص١٠٢و١٠٣.

(٢) أصول الكافي - ج١ ص٣٠.

العالم ثُلِمَ في الإسلام ثُلمَة لا يسدها إلا خلف منه»[١].

وعنه عليه السلام: «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نُسِبَ إليه، وكفى بالجهل ذماً أن يبرأ منه من هو فيه»[٢].

وعن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج، إن الله تعالى أوحى إلى دانيال: ﴿أنَّ أمقتَ عبادي إليَّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم التارك للإقتداء بهم، وأنَّ أحبَّ عبيدي إليَّ التقي الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التابع للحلماء القابل عن الحكماء﴾»[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من علَّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به، ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علم باب ضلالة كان عليه مثل أوزار من عمل به، ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئا»[٤].

وعنه عليه السلام: «عالمٌ يُنتَفَعُ بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[٥].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»[٦].

وقال معاوية بن عمار رحمه الله للإمام الصادق عليه السلام: «رجلٌ راويةٌ

---

(١) بصائر الدرجات ص٤.

(٢) شرح المهذب ج١ ص٣٣.

(٣) أصول الكافي ج١ ص٣٥ ح٥.

(٤) المصدر السابق ص٣٥ ح٤.

(٥) المصدر السابق ص٣٣ ح٨

(٦) المصدر السابق ص٣٢ ح٣.

لحديثكم يَبُثُّ ذلك في الناس ويشدده في قلوبهم وقلوب شيعتكم، ولعل عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرواية أيهما أفضل؟ قال: الراوية لحديثنا يشد به قلوب شيعتنا أفضل من ألف عابد»[1].

وعنه عليه السلام قال: «ما من أحد يموت من المؤمنين أحبُّ إلى إبليس من موت فقيه»[2].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «إذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض التي كان يعبد الله عليها، وأبواب السماء التي كان يصعد منها أعماله، وثُلِمَ في الإسلام ثُلمَةٌ لا يسدها شيء، لأن المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها»[3].

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وحضرت امرأة عند فاطمة الصدِّيقة عليها السلام، فقالت: إن لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها عن ذلك، ثم ثنَّت فأجابت، ثم ثلثَّت، إلى أن عشَّرت فأجابت، ثم خجلت من الكثرة، وقالت: لا أشق عليك يا بنت رسول الله.

قالت فاطمة عليها السلام: هاتي سلي عما بدا لك، أرأيت من اكتُريَ يصعد يوما إلى سطح بحمل ثقيل وكِراه مائة ألف دينار أيثقل عليه؟ قالت: لا،

(١) المصدر السابق ص٣٣ ح٩.

(٢) المصدر السابق ص٣٨ ح٦.

(٣) المصدر السابق ص٣٨ ح٣.

فقالت: أكريتُ [أكتَريتُ] أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤا، فأحرى أن لا يثقل عليَّ، سمعت أبيﷺ يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجِدِّهم في إرشاد عباد الله، حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور، ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم! هؤلاء تلامذتكم، والأيتام الذين كفلتموهم، ونعشتموهم، فاخلعوا عليهم خلعَ العلوم في الدنيا، فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أُخذ عنهم من العلوم، حتى أن فيهم - يعني في الأيتام - لَمَن يُخلع عليه مائة ألف حُلة، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم، ثم إن الله تعالى يقول: ﴿أعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتى تتموا لهم خلعهم وتضعِّفوها﴾، فيتم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم، ويضاعف لهم، وكذلك مرتبتهم ممن خلع عليهم على مرتبتهم. قالت فاطمة عليها السلام: يا أمة الله إن سلكا من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة، وما فضل ما طلعت عليه الشمس؟ فإنه مشوب بالتنغيص والكدر»[(١)].

وقال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: «فضل كافل يتيم آل محمد [المنقطع] عن مواليه الناشب في [تيه] الجهل، يخرجه من جهله، ويوضح له ما اشتبه عليه [على فضل كافل يتيم] يطعمه ويسقيه، كفضل الشمس على

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري ص١٣٥ الطبعة القديمة.

السُّها»[١].

وقال الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: «من كفل لنا يتيماً، قطعته عنا محنتنا باستتارنا، فواساه من علومنا التي سقطت إليه حتى أرشده بهداه [وهداه] ، قال له الله عز وجل: ﴿يا أيها العبد الكريم المواسي! إني أولى بهذا الكرم، اجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كل حرف علمه ألف ألف قصر، وضمُّوا إليها ما يليق بها من سائر النعم﴾»[٢].

وقال الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام: «علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، ويمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا، وعن أن يتسلط إبليس وشيعته النواصب، ألا فمَن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف ألف مرة، لأنه يدفع عن أديان محبينا، وذاك يدفع عن أبدانهم»[٣].

العلم كمال وجودي:

لا يخفى على المتأمل في هذه الآيات والروايات العظيمة والشريفة ما للعلم من مكانة عظيمة بل أن العلم حياة وكمال وجودي بمعنى أنه كمال في كل النشآت ولا يمكن أن يقف الإنسان على حدٍ ينتهي إليه بل وكما

(١) بحار الأنوار ج٢ ص٣ ح٤.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص٤ ح٥.

(٣) المصدر السابق ج٢ ص٥ ح٨

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال ـ دنيا ـ»[١]، وهذا فيه دلالة وافية على أن الإنسان يتنقل من طور إلى طور ومن درجة إلى درجة إلى مالا نهاية بل أن كل أمر مادي له حد ينتهي إليه ويضمحل ويزول، ولكن العلم لا ينتهي إلى حدٍ لكونه أمر مجرد، ومن هنا عُرِّف العلم عند الحكماء: بأنه حضور مجرد لدى مجرد، وذلك لكون وعاء العلم هو النفس الناطقة التي تتسع بالعلم ولا تضيق كما قال سيد الحكماء أمير المؤمنين عليه السلام: «كل وعاء يضيق بما فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع»[٢]، فهذه الآيات والروايات تشير إلى أن حياة الأرواح والنفوس إنما تكون بالعلم والمعرفة بل وعدم الوقوف على حد منهما ولذا من يتصور أنه يكتفي بما عنده فهو مريض غير سوي الفطرة والعقل، وفي هذا الصدد ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «العلم أكثر من أن يُحصى فخذ من كل شئ أحسنه»[٣] وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم لا ينتهي»[٤]، وعنه عليه السلام: «العلم أكثر من أن يُحاط به»[٥]، وعنه عليه السلام: «من ادعى من العلم غايته فقد أظهر من الجهل ـ جهله ـ نهايته»[٦].

(١) المصدر السابق ج١ ص١٨٣ ح٨٣

(٢) المصدر السابق ج١ ص١٨٣ ح٨٢

(٣) المصدر السابق ص٢١٩ ح٥٠.

(٤) غرر الحكم ١٠٥٤.

(٥) المصدر السابق ١٨١٩.

(٦) المصدر السابق ٩١٩٣.

ومن ثَمَّ كان من خصائص العالِم الحقيقي أي العالِم بالحمل الشائع ـ وهو الذي تظهر عليه آثار العلم ـ أنه لا يشبع من العلم ولا يمل من التعلم كما قال أمير المؤمنينعليه السلام في ذلك: «العالِم من لا يشبع من العلم و لا يتشبع به»(١)،وقالعليه السلام أيضا: «العالِم الذي لا يمل من تَعَلُّمِ العلم»(٢).

بعد هذه الإطلالة الكاشفة عن أهمية العلم وعلو شأن العالِم كما أشارت إليه الآيات والروايات فلا عجب أن يكون العلم هو السبب الكلي لخلق هذا العالم العلوي والسفلي طُراً كما قال الشهيد الثاني(٣).

علم العقائد أشرف العلوم:

وعلى ضوء ما تقدم يأتي هذا التساؤل عن أقسام العلوم وما هو العلم الأهم منها والأشرف؟

لا يخفى أن العلوم كثيرة ومتنوعة ولكن حصرت في بعض الأقسام كما أشارت الروايات الواردة عن المعصومين سلام الله عليهم أجمعين حيث نجد أن رسول اللهصلى الله عليه وآله جعل العلم على قسمين: «علم الأديان وعلم الأبدان»(٤)، وقسَّمه الإمام عليعليه السلام أربعة أقسام: «الفقه للأديان والطب

---

(١) المصدر السابق ١٧٤٠.

(٢) المصدر السابق ١٣٠٣.

(٣) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد تحقيق رضا المختاري ص٩٣.

(٤) بحار الأنوار للمجلسي ج١ ص٢٢.

للأبدان والنحو للسان والنجوم لمعرفة الأزمان»[1]،كما ورد ذلك في الروايات، ولا يخفى أن أشرف هذه العلوم هو العلم المرتبط بالأديان وهو ما يسمى بفقه الأديان، ومن الوضوح بمكان أن علوم الأديان كثيرة وأهمها علم العقيدة ويسمى بالفقه الأكبر وعلم الفروع ويسمى بالفقه الأصغر والعلوم الأخرى المرتبطة بالإستدلال والإستنباط الشرعي، فكل ماله دخالة في الإستدلال يعتبر من العلوم المهمة في نظر طالب العلم بالمعنى الخاص ـ أي طالب العلوم الدينية ـ ولكن لا يخفى أن بين هذه العلوم مهم وأهم.

وعليه ما هو العلم الذي له التقدم والشرف على غيره والذي ينبغي أن يكون محط أنظار المشتغلين بالكمال العلمي؟

مما لا ريب فيه أن علم العقيدة والمعارف هو أشرف العلوم وأهمها على الإطلاق وذلك لأمور منها:

الأول: إنطلاقا من حقيقة أن شرف كل علم تابع لشرف معلومه.

فلو سبرنا هذه العلوم المتداولة في الفضاء الحوزوي ـ حفظ الله حوزاتنا الشريفة ومراجعنا العظام وأعلى الله كلمتهم ـ نجد أن العلوم تحدد بموضوع على أن لكل علم موضوعاً أوغايةً أوهدفاً على القول الآخر الذي لا يرى تلك الضرورة، من هنا لو جئنا لسبر هذه العلوم أو غايات هذه العلوم نجدها مختلفة ومتفاوتة في الشرف والأهمية، فعندما نأتي إلى علم الفقه ـ الفروع ـ يكون موضوعه هو المكلَّف وما يرتبط به في سلوكه وحركته،

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٢١٨.

وعندما نأتي مثلا إلى علم النحو فموضوعه آخر الكلمة، وعندما نأتي إلى علم الأصول نجد موضوعه هو الأدلة الأربعة أو العناصر المشتركة أو ما إلى ذلك(١).

ولكن عندما نأتي إلى علم العقيدة أو البحث العقدي فإن موضوعه هو معرفة الله سبحانه وتعالى من خلال أسمائه وصفاته ومنه يتضح أن هذا العلم هو أشرف العلوم وأعلاها كعباً وأرفعها شأناً لكونه يبحث عن أشرف معلوم وأعلى معلوم وهو الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله وسائر المنظومة الإعتقادية كالعدل والنبوة والإمامة والمعاد وغيرها.

قال آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني (دام ظله) في شرف علم أصول الدين ما نصه: "الإنسان يعشق العلم بفطرته، لأن ما به يكون الإنسان إنساناً هو العقل، وثمرة العقل هو العلم، ولهذا إذا قلت للجاهل: يا جاهل، يحزن، مع أنه يعلم بكونه جاهلاً، بينما إذا نسبته إلى العلم يفرح، وهو يعلم أنه ليس بعالم.

---

(١) قُسِّمَت العلوم إلى علوم حقيقية وعلوم اعتبارية وفي العلوم الحقيقية يُبحث عن موضوع ذلك العلم وأما العلوم الإعتبارية فليس كذلك، بل يبحث فيها عن الغاية والهدف منها، وعلى هذا اختلف الأعلام فيما بينهم هل أن علم الأصول وعلم الفقه علمان حقيقيان حتى يُبحث لهما عن موضوع أم علمان اعتباريان ليكون البحث فيهما عن الغاية والهدف، وهذا بحث موكول إلى محله، فتأمل.

وأما علم العقيدة فلا إشكال ولا ريب في أنه علم حقيقي يبحث عن الحقائق الوجودية والعلة الأولى وكيفية صدور الكثرة منها فله موضوع بلا شك.

وحيث أن الإسلام دين الفطرة، فقد جعل نسبة العلم إلى الجهل نسبة النور إلى الظلمة، ونسبة الحياة إلى الموت «إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه»[١]، «العالم بين الجهال كالحي بين الأموات»[٢].

وكل علم وإن كان بذاته شريفاً إلا أن مراتب العلوم متفاوتة بسبب عدة أمور كموضوع العلم، ونتيجته، ونوع الإستدلال فيه، فالعلم الباحث عن الإنسان أشرف من العلم الباحث عن النبات، بنسبة فضل الإنسان على النبات، والعلم الباحث عن ضمان سلامة الإنسان أشرف من العلم الباحث عن ضمان أمواله، بنسبة شرف حياة الإنسان على ماله، والعلم الذي يقدِّمُ نتائجه من البرهانيات أشرف من العلم الذي يستند إلى الفرضيات، بنسبة شرف اليقين على الظن.

وعلى هذا، فإن أشرف العلوم هو العلم الذي موضوعه (الله) تبارك وتعالى، مع ملاحظة أن نسبة شرف الله تعالى على غيره ليست كنسبة البحار إلى القطرة، ولا كنسبة الشمس إلى الذرة، بل هي نسبة غير المتناهي إلى المتناهي، وبالنظرة الدقيقة فإن الفقير بالذات لا يمكن أن يكون طرفاً في النسبة مع الغني بالذات: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[٣].

---

(١) مشكاة الأنوار ص٥٦٣.

(٢) بحار الأنوار للعلامة للمجلسي ج١ ص١٧٢ ح٢٥.

(٣) طه ١١١.

وثمرة هذا العلم هي الإيمان والعمل الصالح، اللذان هما الوسيلة الوحيدة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولتأمين حقوق الفرد والمجتمع ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١).

وطريقة الإستدلال فيه هي الدليل والبرهان المفيد لليقين، ولا يتبع فيه الظن ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾(٢)، ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٣)، ﴿إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾(٤). وبذلك يتضح مدلول الحديث الشريف: «إن أفضل الفرائض وأوجبها على الإنسان معرفة الرب والإقرار له بالعبودية»(٥)(٦).

الثاني: أن علم العقيدة يبحث عن أصول الدين والتي هي أساس العلوم الشرعية والقاعدة التي تنطلق منها فإنها أساسها والتي تؤول إليها وذلك أن التقرب المعنوي إلى الله سبحانه وتعالى بالعبادة وسائر القربات لا يتأتى إلا بالمعرفة وأحكامها والتي تكون في رتبة أعلى من رتبة العمل ومن ثَمَّ فإن العلم الذي يتكفل توضيح هذه المعرفة والإستدلال عليها وما إلى

---

(١) النحل ٩٧.

(٢) النحل ١٢٥.

(٣) الإسراء ٣٦.

(٤) يونس ٣٦.

(٥) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج٤ ص٥٥.

(٦) منهاج الصالحين لآية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني دام ظله ج١ ص١١.

ذلك هو الذي يكون له الشرف والتقدم وإلا أصبحت كل العلوم الشرعية لا أساس لها ولا معنى لها.

وفي هذا الصدد يقول الشهيد الثاني قدس سره في معرض قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[(١)]، قال قدس سره: "وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم لا سيما علم التوحيد الذي هو أساس كل علم ومدار كل معرفة..."[(٢)].

وقال أيضاً قدس سره في معرض آداب المعلِّم في درسه: "الثاني عشر: إذا تعددت الدروس فليقدم منها -أي المعلِّم- الأشرف فالأشرف والأهم فالأهم فيقدم أصول الدين ثم التفسير ثم الحديث ثم أصول الفقه ثم الفقه ثم النحو ثم المعاني، وعلى هذا قياس باقي العلوم بحسب مرتبتها والحاجة إليها"[(٣)].

وكذا قال قدس سره في معرض تقسيم العلوم الشرعية الأصلية: "وهي (أربعة): علم الكلام وعلم الكتاب العزيز وعلم الأحاديث النبوية وعلم الأحكام الشرعية المعبر عنها بالفقه.

فأما علم الكلام: ويعبَّر عنه بأصول الدين فهو أساس العلوم الشرعية

---

(١) الطلاق ١٢.

(٢) منية المريد في آدب المفيد والمستفيد ص٩٣.

(٣) المصدر السابق ص٢١١.

وقاعدتها لأنه به يعرف الله تعالى ورسوله وخليفته وغيرها مما يشتمل عليه، وبه يعرف صحيح الآراء من فاسدها وحقها من باطلها، وقد جاء في الحث على تعلمه وفضله كثير من الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1]....إلخ"[2].

وفي السياق نفسه قال العالم الكبير والفقيه المتضلع الشيخ المقداد بن عبدالله السِوَرِي الحلي الأسدي قُدِّسَ سِرُّه في معرض بيان عبارة العلامة الحلي في كتاب الباب الحادي عشر فيما يجب على عامة المكلَّفين في معرفة أصول الدين ما نصه: "وسُمِيَ هذا الفن أصولَ الدين لأن سائر العلوم الدينية من الحديث والفقه والتفسير مبنية عليه فإنها متوقفة على صدق الرسول وصدق الرسول متوقف على ثبوت المُرسِل وصفاته وعدله وامتناع القبح عليه"[3].

ولذا سُمِّي هذا العلم بأسماء عديدة منها: علم التوحيد والصفات، وعلم الفقه الأكبر، وعلم النظر والإستدلال وما إلى ذلك.

علم العقيدة الآية المحكمة:

قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنما العلم ثلاثة آية محكمة أو فريضة عادلة أو

---

(١) محمد ١٩.

(٢) المصدر السابق ص٣٦٥.

(٣) الباب الحادي عشر ص٢.

سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل»[(١)].

فإن الآية المحكمة هو علم العقيدة والمعارف الإلهية والسنة القائمة هو علم الأخلاق والسلوك والفريضة العادلة علم الفروع أو ما يسمى بالفقه الأصغر، فالتَرتُبِيَّة في كلام النبي صلى الله عليه وآله شاهد آخر على عظمة علم المعرفة، ولذا نجد جملة من الأعلام يؤكدون على أهمية هذا العلم.

قال الحكيم المتأله والعارف الكبير صدر الدين الشيرازي قدس سره المعروف بـ(الملا صدرا) في معرض الإشارة إلى عمدة مقاصد القرآن الكريم حيث قال:

"اعلم أن المقصد الأقصى واللباب الأصفى من نزول الكتاب الإلهي، دعوة العباد إلى الملك الأعلى ـ رب الآخرة والأولى ـ والغاية المطلوبة فيه تعليم ارتقاء العبد من حضيض النقص والخسران إلى الكمال والعرفان، وبيان كيفية السفر إليه تعالى، ففصوله وأبوابه وسوره وآياته منحصرة في ستة مقاصد: ثلاثة منها كالدعائم والأصول والأعمدة المهمة، وثلاثة منها كاللواحق والمتممات.

أما الأصول الثلاثة المهمة: فالأول: منها معرفة الحق الأول وصفاته وآثاره.

والثاني: معرفة الصراط المستقيم ودرجات الصعود إلى الله وكيفية السلوك إليه.

---

(١) الكافي ج١ ص٣٢ ح١.

والثالث: معرفة المعاد والمرجع إليه وأحوال الواصلين إليه وإلى دار الرحمة وكرامته وهو علم المعاد والإيمان باليوم الآخر.

وأما الثلاثة اللاحقة: فأحدها: معرفة المبعوثين من عند الله تعالى، لدعوة الخلق ونجاة النفوس وهم قوّاد سفر الآخرة ورؤساء القوافل.

وثانيها: حكاية أقوال الجاحدين وكشف فضائحهم وتسفيه عقولهم في ضلالتهم، والمقصود التحذير عن طريق الباطل.

وثالثها: تعليم عمارة المنازل والمراحل إلى الله تعالى والعبودية وكيفية أخذ الزاد والراحلة لسفر الآخرة والإستعداد برياضة المركب وعلف الدابة، والمقصود منه كيفية معاملة الإنسان مع أعيان هذه الدنيا، التي بعضها داخلة فيه ـ كالنفس وقواها الشهوية والغضبية وهذا العلم يسمى تهذيب الأخلاق ـ وبعضها خارجة، إما مجتمعة في منزل واحد كالأهل والخدم والوالد والولد ويسمى تدبير المنزل، أو في مدينة واحدة ويسمى علم السياسة وأحكام الشريعة كالديات والقصاص والحكومات، فهذه ستة أقسام من مقاصد الكتاب الإلهي"[1].

كذلك أورد قدس سره ما هذا نصه: "ثم إن العلوم الكمالية والمعارف اليقينية مختلفة الأنواع والفنون؛ متكثرة الشعب والشجون إلى حد وغاية يعجز كل نفس إنساني سيما في تعلقها بهذه النشأة التعلقية عن استحصال

(١) المظاهر الإلهية للحكيم المتأله صدر الدين محمد الشيرازي تحقيق الأستاذ السيد جلال الدين الأشتياني ص٦١.

جميعها واستحضار فن من أصولها وفروعها وإنَّا عملنا لمَن له فضل قوة لتحصيل الكمال على وجه أبلغ وأوفر؛ كتاباً جامعا لفنون العلوم الكمالية التي هي ميدان لأصحاب الفكر وفيها جولان لأرباب النظر سميناه الأسفار الأربعة لكن القدر الواجب تحصيله واللازم على المقتنين تكميل ذاته بسلوك منهجه وسبيله أن يحصل منها ما هو أهم وأولى ومباحث عما هو أشرف وأعلى.

ولا شك أن أفضل العلوم الإلهية هو معرفة ذات الحق الأول ومرتبة وجوده بما له من صفات كماله ونعوت جماله وكيفية صدور أفعاله وأنها كيف ابتدأت الموجودات الباديات منه وكيف عادت العائدات إليه"[(١)].

وفي السياق نفسه قال تلميذه المتأله العارف الكبير والمحدث الجليل المولى محسن الفيض الكاشاني قدس سره ما نصه: "إن شرف العلم يكون على قدر شرف المعلوم، ورتبة العالم تكون بحسب رتبة العلم.

ولا ريب أن أجلَّ المعلومات أعلاها وأشرفها هو الله الصانع، المبدع، الحق، الواحد، فعلمه ـ وهو علم التوحيد ـ أشرف العلوم، وأجلها وأكملها وأهل هذا العلم أفضل العلماء، ولهذا انتظموا في سلك الله تعالى وملائكته ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾[(٢)]، وأخرى

---

(١) المبدأ والمعاد للمولى صدر المتألهين محمد بن إبراهيم الشيرازي طبعة منقحة قدمه وصححه الأستاذ السيد جلال الدين الاشتياني ص١٠٠.

(٢) آل عمران ١٨.

في سلك الله تعالى وحده ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[١]، والمراد علماء التوحيد، لقوله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[٢]، وهم الأنبياء والأوصياء وبعدهم العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وكلهم إنما يأخذون علمهم من الله تعالى بلا واسطة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[٣]، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[٤][٥].

وغيرهم من الأعلام الذين أشاروا إلى هذه الحقيقة.

من ثمرات علم العقائد:

إن لعلم العقيدة ثمرات جليلة منها:

الأول: إن طالب هذا العلم يترقى في قوته النظرية ومعرفته الفكرية درجة درجة حتى يصل إلى مراتب اليقين العالية فيكون عالَماً علمياً مضاهياً للعالَم العيني كما عُرِّفت الحكمة الإلهية بذلك، بل يكون وجوداً حَقَّانياً إلهياً بمعنى التحقق وهذا غاية المنى لطالب الحق والحقيقة.

الثاني: قدرة طالب هذا العلم على تكميل الغير بإرشاد المسترشدين وهداية الضالين بإزالة الشبه العقدية بإقامة الأدلة والبراهين والتي تثمر

---

(١) آل عمران ٧.

(٢) آل عمران ٧.

(٣) النساء ١١٣.

(٤) الكهف ٦٥.

(٥) عين اليقين للمولى الفيض الكاشاني ج١ ص٣١.

اليقين والطمأنينة للآخرين، وهذه وظيفة عظيمة يحققها مَن قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «والعالم بزمانه هو الذي لا تهجم عليه اللوابس»(١).

دور أصحاب الأئمة عليهم السلام في الساحة العقائدية:

إن لأصحاب الأئمة عليهم السلام الدور الكبير في حفظ عقائد الناس وتحصين هوياتهم الدينية اتباعا للأئمة المعصومين عليهم السلام والذين نافحوا بكل وجودهم لخدمة الدين والدفاع عن حياضه الرقراق.

ومن ثَمَّ نجد تأكيدات الأئمة عليهم السلام على هذا المسار أي مسار الدفاع عن العقائد الحقة واضحة في حثهم بعض تلاميذتهم الذين تميزوا بالبُعد المعارفي حتى لمعت أسماء عديدة امتازت بسمة البُعد المعرفي والعقدي وعلى مراتب متفاوتة ومتعددة حتى صار بعضهم من حملة المعارف الدقيقة التي لايتحملها غيرهم أمثال (سلمان المحمدي ورشيد الهجري وأُويس القرني وأبي ذر وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وهشام بن سالم وجابر بن يزيد الجعفي وذُريح المحاربي ومحمد بن حكيم وعبدالرحمن بن الحجاج وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق ومحمد بن سنان وعبدالعظيم الحسني) وغيرهم ممن كان لهم الدور الكبير في حفظ العقيدة ونقلها للأجيال ولكن مع ملاحظة خصوصية اختلاف مراتبهم شدةً وضعفاً في مراتب المعرفة بالله سبحانه وتعالى ومقامات النبي والأئمة عليهم السلام كما أشارت

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص٣٥٦.

إلى هذا التفاوت الروايات الواردة في شأنهم.

فعلى سبيل المثال ما ورد في حق سلمان المحمدي رحمه الله وتميزه عن أبي ذر في جهة البعد المعرفي قول النبي صلى الله عليه وآله: «لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله»[(١)]، وقال أيضاً عليه السلام: «تفوح روايح الجنة من قبل قرن الشمس واشوقاه إليك يا أويس القرن، ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام»[(٢)]، وكذا ما جاء في ذُريح المحاربي من قول الإمام الصادق عليه السلام: «... ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟! ...»[(٣)] إشارة منه عليه السلام لمقامه السامي في المعرفة، وكذا ما جاء في حق جابر بن يزيد الجعفي وهشام بن سالم، هذا مضافاً إلى حث الأئمة عليهم السلام بعض تلاميذهم للدفاع عن العقيدة بلغة المناظرة والحوار الهادف كما ورد في خبر النضر بن الصباح قال: كان أبو عبد الله الصادق عليه السلام يقول لعبد الرحمن بن الحجاج: «كلِّم أهلَ المدينة فإني أحب أن يُرى في رجال الشيعة مثلك»[(٤)]، وأيضا ما قاله الإمام الكاظم عليه السلام لمحمد بن حكيم: «كلِّم الناس وبيِّن لهم الحق الذي أنت عليه وبيِّن الضلال الذي هم عليه»[(٥)]، وأيضا ما جاء عن هشام بن الحكم عندما سأل الإمام الصادق عليه السلام عن أسماء الله تعالى واشتقاقها فأجابه ثم قال له عليه السلام: «أفهمت

---

(١) بصائر الدرجات ص٤٠.

(٢) بحار الأنوار ج٤٢ ص١٥٥.

(٣) الفروع من الكافي ج٤ ص٥٤٩ ح٤ باب اتباع الحج بالزيارة.

(٤) بحار الأنوار ج٢ ص١٣.

(٥) تصحيح إعتقادات الإمامية للشيخ المفيد ص٢٠٢.

يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا والمتخذين مع الله عز وجل غيره، قال هشام: نعم، فقال عليه السلام: «نفعك الله به وثبتك يا هشام، قال هشام: فوالله ما قهرني أحدٌ في التوحيد حتى قمت مقامي هذا»[(١)].

ولذا نجد تأثر الإمام الصادق عليه السلام عندما بلغه موت محمد بن الطيار والذي كان من المنافحين عن عقيدة ومذهب أهل البيت عليهم السلام حيث قال في حقه: «رحم الله الطيَّار ولقَّاه نضرة وسروراً، فلقد كان شديد الخصومة عنا أهل البيت»[(٢)].

حيث يشير هذا النص وبدلالة مكثفة على أهمية الدور الذي يضطلع به الطيَّار رحمه الله في الدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام ومدى تفانيه في ذلك، حيث دعا له الإمام الصادق عليه السلام بذلك المقام الأخروي مشفوعاً بالتأثر على فقده لكونه خسارةً جسيمةً وهذا مما يكشف لنا أهمية البحث العقدي والمعارفي ودوره في ضرورة إيجاد كلا المسارين في طالب علم الحق والحقيقة أي المسار التنويري والمسار الدفاعي.

دور العلماء في الساحة العقائدية:

إن لعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام دور في البعد المعارفي والعقائدي من خلال مصنفاتهم قديما وحديثا حتى نجد أن مَن صنَّف في جمع

---

(١) أصول الكافي ج١ ص٨٧.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج٢ ص١٣٦ ح٤٠ نقلاً عن كتاب اختيار معرفة الرجال.

الأحاديث كالشيخ الكليني والصدوق والمفيد وغيرهم رحمهم الله إلى صاحب البحار ومَن جاء بعده يهتمون بجعل الروايات الواردة في المعارف الإلهية بشتى فروعها في المقدمة من دوراتهم الحديثية كما نجد ذلك جلياً في كتاب أصول الكافي حيث قدَّم الأصول على الفروع، وعلى المسار نجد كتاب الوافي وبحار الأنوار وغيرها، هذا مضافاً إلى الكتب التي صنفت بخصوص الأحاديث الواردة في المعارف بكتابات مستقلة ومصنفات خاصة كما فعل ذلك الشيخ محمد بن الحسن الصفار في كتابه بصائر الدرجات في مناقب آل محمد صلى الله عليه وآله، والشيخ الصدوق في كتابه التوحيد والإختصاص للشيخ المفيد والغيبة للطوسي وغير ذلك من الكتب الروائية حتى جاء دور الكتب التي تحدثت عن أصول الدين بلغة كلامية أو فلسفية أو عرفانية أمثال تصحيح الإعتقاد للشيخ المفيد والشافي في الإمامة للسيد المرتضى والتجريد للمحقق الطوسي وكتاب الباب الحادي عشر وكتاب الألفين ومنهاج الكرامة للعلامة الحلي وغيرهم من الأعلام إلى يومنا هذا.

هذا مضافاً إلى أن بعض الأعلام الكبار قديماً وحديثاً جعلوا لأبحاثهم المرتبطة بالفروع مقدمة في أصول الدين وذلك لكون البحث المعارفي متقدم رتبة على السلوك العملي، كما نجد ذلك في كتاب الباب الحادي عشر للعلامة الحلي قدس سره الذي سُمِّي بهذا الاسم لأن مؤلفه العلامة الحلي اختصر مصباح المتهجد الذي ألفه الشيخ الطوسي رحمه الله في العبادات والأدعية ورتب ذلك المختصر على عشرة أبواب وسماه بكتاب منهاج الصلاح في مختصر المصباح وذلك لكون هذا الكتاب في فن العمل

والعبادات والدعاء استدعى ذلك من العلامة الحلي أن يضيف هذا الباب إليه ليشير إلى معرفة المعبود والمدعو لأن العبادة والدعاء متوقف على هذه المعرفة وهذا الكتاب كما هو واضح دورة مختصرة في أصول الدين وما يجب على المكلفين من معرفتها.

وعلى المسار نفسه نجد العلامة المجلسي رحمه الله جعل كتابه العقائد في بابين باب يتعلق بأصول العقائد وباب يتعلق بكيفية العمل.

وعلى خطاه سار الشيخ الفقيه جعفر كاشف الغطاء قدس سره في كتابه كشف الغطاء عن خفيات مبهمات الشريعة الغراء،حيث رتبه على ثلاثة فنون:

الفن الأول: فيما يتعلق ببيان الأصول الإسلامية والعقائد الإيمانية الجعفرية.

الفن الثاني: فيما يتعلق ببعض المطالب في الأصول الفرعية وما يتعبها من أصول مشتركة بين المطالب الفقهية.

الفن الثالث: فيما يتعلق بالفروع الدينية وهو أربعة أقسام عبادات وعقود وإيقاعات وأحكام.

بل نجد هذه الظاهرة في بعض مراجعنا المعاصرين رحم الله الماضين وحفظ الله الباقين كما نجدها في كتاب الفتاوى الواضحة لآية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره حيث جعل مقدمة في أصول الدين وكذلك المرجع الكبير آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني حفظه الله في جعل مقدمة لمنهاج الصالحين في أصول الدين.

مع أنه لا يخفى أن للفقهاء المعاصرين جهوداً مشكورة في الدفاع عن العقيدة من خلال مؤلفاتهم ومن خلال أجوبتهم للإستفتاءات العقائدية وردهم للشبهات المطروحة وكذا مواقفهم الصامدة والحازمة اتجاه الإنحرافات العقدية والفكرية التي تبرز بين الفينة والأخرى.

هذا مضافاً إلى جهود ومصنفات حكماء وعرفاء الإسلام قديماً وحديثاً في تنقيح المباني الحكمية والأسس الفلسفية والقوالب المعرفية للدفاع عن الدين القويم أمثال الفارابي وابن سينا والمحقق الطوسي والسيد حيدر الآملي والمحقق الداماد والمولى صدر المتألهين ـ الملا صدرا ـ والمولى هادي السبزواري وإلى زمن العلامة الطباطبائيقُدِّسَ سِرُّه والذي أشاد البناء الحِكَمِي في الحوزة الدينية عبر تلاميذه ومؤلفاته الكثيرة في هذا الصدد مثل بداية الحكمة ونهاية الحكمة واللذين يعتبران محور الدراسة الفلسفية في الحوزة وكذلك رسائله المتعددة مثل رسالة البرهان والمغالطة ورسالة الإعتباريات ورسالة التحليل والتركيب والقوة والفعل وما إلى ذلك من أبحاث حكمية فلسفية مطروحة في تفسيره الكبير تفسير الميزان، هذا مضافاً إلى جهود تلاميذه وتلامذة تلاميذه البارزين في هذا المجال في الدفاع عن أسس ومرتكزات مدرسة أهل البيتعليهم السلام، وغيرهم من الأساتذة الكبار الذي لا يُنكر فضلهم في هذا المجال.

بعد هذه الإطلالة والتي تكلمنا فيها عن أهمية البحث المعارفي والعقائدي يظهر لنا أهمية وخطورة هذا البحث في كلا المسارين الذين ذكرناهما سابقا ألا وهما المسار التنويري لباطن الإنسان بالمعارف الحقة

والمسار الدفاعي عن هذه المعارف.

وسوف يأتي في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى الحديث عن المدارس الخمس في العصر الإسلامي والتي هي المعنية بالبحث العقائدي والمعارفي ولكل مدرسة آلياتها ومنهجها في تحقيق مسائل المعارف الإلهية وما يتبعها.

توصية وتأكيد على أهمية الدرس العقائدي:

قال سماحة أستاذنا المحقق الشيخ محمد السند حفظه الله ما نصه:

"فإذن إذا كانت هذه القوة وهذه النعمة الوجودية التي هي رأس مال خطير أعطاه الله للإنسان وهي قوة العقل والتي بتوسطها يمتحن الله الإنسان أعظم الإمتحانات وبها امتاز عن بقية المخلوقات، فلا بد للإنسان أن لا يقف عن تحريكها وتطويرها وأن لا يعطلها ولا يتوهم أنه اكتفى في مرحلة ما في دراسته المعارف وتعلمها لأن معارف الدين بحر واسع وإن قلنا التمسك بالضروريات هو التمسك بالعروة الوثقى ولكن لكي يكون للإنسان أكثر فطنة وبصيرة ونفاذاً فالحذر كل الحذر من تعطيل بحث المعارف والعقائد إذ به نجاة الدين فإن مما رواه الفريقان وهو مدار ملاحم تفسيرية علمية بين العلماء أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «العلوم كلها فضلة إلا ثلاث: آية محكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة»[1] فالآية المحكمة يعني العقائد والسنة والقائمة يعني تهذيب الأخلاق أو العلوم التي تبحث عن النفس والتي تؤدي لمعرفة

---

(١) أصول الكافي ج١ ص٣٢ ح١.

النفس فإنه مَن عرف نفسه عرف ربه ومَن مَلَكَ نفسه هُدِي واستقام فهذه العلوم التي تبحث عن النفس وأخلاقها وبالتالي عن رياضات النفس هي سنة قائمة والفريضة العادلة هي الفقه أي فقه الفروع فإذن العلوم المهمة التي يجب على الإنسان أن يتعلمها هي ثلاثة محاور تكمل بعضها البعض ولا ينبغي التقصير والتماهل في واحد منها فإذا استطاع طالب العلم أن يُشْبِعَ البحث والمعرفة ويدأب إلى آخر عمره في السير فيها فإنه لن يباغت ولن يغدر به ولن تتكأده القيام بالمسؤولية لأن وظيفة طلبة العلوم الدينية هي المرابطة في الثغور الخطيرة الأساسية وحماية الدين في تلك الثغور الثلاثة فإذا أحكمنا فيها المرابطة فلن يستطيع العدو أن يباغت حمى الدين وذلك بأن تتكامل عندنا هذه المحاور الثلاثة من العلوم إذ بها نحمي الدين فإن هذه وصية إعجازية من النبي صلى الله عليه وآله في القدرة على حفظ الدين وعجز العدو طوال تاريخ البشرية إذن فمن الضروري عدم حصر التكثيف في فقه الفروع وعلم أصول الفقه على المحورين الآخرَين وهذا لا يعني عدم الإهتمام بعلم الفقه وأصوله ولكنَّا نقول لا بد من توازنه مع العقائد بأنهما كما يقول العلماء الأكابر المتقدمون: جناحان يطير بهما العالم فقه الفروع والفقه الأكبر وهو العقائد، بل حتى الفقه الأوسط وهو تهذيب النفس فهذه مراتب ثلاث إذا أحكمها طالب العلم آية محكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة فإنه سوف تكون له أجنحة يطير بها إلى ما شاء الله وإلا فإن تكثيف

وإشباع أحدهما على حساب الآخر يكون المسير كمسير الأعرج برجل واحدة فلا بد من الموازنة والمواظبة على هذين الخطين المتوازيين»[١].

(١) دعوى السفارة في الغيبة الكبرى سماحة الشيخ محمد السند ج٢ ص٤٣٥.

الفصل الرابع

المدارس الفكرية الخمس في العصر الإسلامي

* أهمية نظرية المعرفة
* الإنسان وأهمية الرؤية الكونية
* المدارس الفكرية الخمس في العصر الإسلامي

أهمية نظرية المعرفة[1]:

(١) تجدر الإشارة إلى أن (نظرية المعرفة) علمٌ حديثٌ أُسس في العالم الغربي قبل ثلاثة قرون حيث نجد اهتماما بالغا لهذا العلم عند الفلاسفة الغربيين كما نجد ذلك عند الفيلسوف الألماني (كانت ـ kant) (١٧٢٤ـ ١٨٠٤م) حيث أن معظم فلسفته تشير إلى أهمية المعرفة.

وأن نظرية المعرفة وإن لم تطرح عند الفلاسفة الإسلاميين بصورة مستقلة لكن يجد الباحث المدقق مسائلها مبثوثة في أبحاثهم الفلسفية والمنطقية والأصولية وإن لم يكن لها كتباً خاصة.

ولأهمية نظرية المعرفة وتطورها وخطورتها وذلك لكونها العلم الباحث عن حقيقة المعرفة وأدواتها وحدودها ومعرفة الملاك للتمييز، اهتم بها علماؤنا في هذا القرن المتأخر ونشير إلى بعض تلك الإهتمامات والتي منها:

١ـ ما طرحه السيد العلامة الطباطبائيقُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه أصول الفلسفة والمنهج الواقعي في المقالة الرابعة والتي تبحث عن قيمة المعرفة.

٢ـ ما ذكره السيد الشهيد محمد باقر الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه فلسفتنا حيث أشار إلى نظرية

←

من الوضوح بمكان أن الإنسان باحث عن الحقيقة وطالب لعلاج المسائل الأساسية للرؤية الكونية ولكن يسأل عن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لعلاج تلك المسائل، وكيف يصل إلى رؤية كونية صحيحة؟.

والعلم الذي يتكفل لعلاج هذه المسألة هو ما يسمى بعلم المعرفة أو بنظرية المعرفة.

والذي عرَّفه العلماء المحققون أنه: «العلم الذي يبحث حول معارف الإنسان ويقيِّم ألوانها ويعيِّن الملاك لتمييز الصحيح من الخطأ منها»[1].

ويسمى هذا العلم بالإصطلاح الحديث بـ (الإيبستمولوجيا).

المعرفة فيما يقارب الـ (مأتين) صفحة وهو القسم الأول من هذا الكتاب.

٣ـ كتاب نظرية المعرفة في القرآن الكريم للحكيم المتأله الشيخ جوادي آملي حفظه الله.

٤ـ نظرية المعرفة للمحقق الشيخ جعفر السبحاني (حفظه الله).

٥- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة للأستاذ السيد كمال الحيدري حفظه الله.

٦- نظرية المعرفة للباحث المحقق هاشميان.

٧- المنهج الجديد في تعليم الفلسفة للأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي حفظه الله المجلد الأول القسم الثاني حيث تحدث عن علم المعرفة.

٨- دروس في العقيدة الإسلامية للأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي حفظه الله الدرس الرابع حيث أشار إلى نظرية المعرفة بشكل مختصر.

ومن هنا نؤكد على إخواننا الأعزاء من طلاب العلم والحقيقة حفظهم الله بالإهتمام بدراسة هذا العلم وعدم الغفلة عنه لما من ثمار جليلة في منهجة الفكر ومعرفة المناهج المتبعة لاقتناص الحقائق.

(١) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة للأستاذ محمد تقي مصبح اليزدي حفظه الله ج١ ص١٥٣.

وعلى أساس ما تقدم يمكننا تقسيم أنواع المعرفة الإنسانية إلى أربعة أقسام هي: (المعرفة التجريبية والعلمية بـ (مصطلحها الخاص):

ويتوصل إليها بالإستعانة بالحواس وإن كان للعقل دوره في تجريد المدركات الحسية وتعميمها ويستفاد من المعرفة التجريبية في العلوم التجريبية أمثال الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء.

المعرفة العقلية: وتتألف هذه من المفاهيم الإنتزاعية (المعقولات الثانية) والعقل له الدور الرئيس في التوصل إليها وإن كان يستفاد من بعض المعطيات الحسية والتجريبية كمنشأ لانتزاع المفاهيم أو لتَشَكُّل بعض مقدمات القياس وميادين هذه المعرفة هي المنطق والعلوم الفلسفية والرياضيات.

المعرفة التعبدية:

وهذه المعرفة لها دور ثانوي لأنها مستندة في تحققها إلى معرفة مسبقة لديها وهي المعرفة بالمصدر المعتمد عليه وعن طريق التي خبر (المخبر الصادق)، وتعد منها المعارف والمعلومات التي يتلقاها أتباع الأديان من أحاديث قادتهم وزعمائهم الدينيين وربما كان إيمانهم أشد رسوخا من المعتقدات الناشئة من الحس والتجربة.

المعرفة الشهودية:

وهذه المعرفة خلافاً للأقسام السابقة تتعلق بعين المعلوم وذاته دون وساطة الصورة والمفهوم الذهني للمعلوم كما هو الشأن في سائر أنواع المعرفة حيث يتوصل إليها الإنسان من خلال الصورة الذهنية وهذه المعرفة

الشهودية مصونة من الخطأ والإشتباه ولكن وكما وضح في محله أن ما يطلق عليه المعرفة الشهودية والعرفانية عادة في واقعه تفسير ذهني للمشاهدات وهو يقبل الخطأ والإشتباه"(١).

على هدي ما تقدم يتضح لنا أهمية البحث في نظرية المعرفة وخطورته وذلك لكونه الباحث عن الملاك لتميز هذه الأقسام عن بعضها البعض وتقييمها.

والحديث في نظرية المعرفة حديث مهم وطويل الذيل ولكنه موكول إلى محله وما يهمنا في هذا الفصل هو الحديث عن المدارس الفكرية الخمس في العصر الإسلامي.

الإنسان وأهمية الرؤية الكونية:

وقبل الدخول في الحديث الإجمالي عن هذه المدارس الفكرية وكيفية تنوعها تجدر الإشارة إلى أن تحديد الرؤية الكونية أمر بالغ الأهمية في إسعاد الإنسان لأنه من خلال تحديد هذه الرؤية والتي أشرنا لها سابقاً تنبثق منها الإيديولوجية، وعلى أساس ذلك يتضح لنا مدى اختلاف المناهج السلوكية والإيديولوجيات عند البشر لأن ذلك وليد اختلاف الرؤى الكونية لعدم انفصال الأيديولوجية عن الرؤية الكونية، وفي هذا الصدد يقول العلامة الشهيد مرتضى مطهري قدس سره: "لماذا نرى هذا الفرد يدافع عن

---

(١) دروس في العقيدة الإسلامية للأستاذ محمد تقي مصباح اليزدي ص٥٣.

هذه الأيديولوجية، بينما يدافع الآخر عن أيديولوجية أخرى، وإذا سألنا هذا الفرد أو ذاك عن السبب الذي أدى به إلى هذا الإعتقاد بهذه الأيديولوجية دون تلك لوجدت أن الجواب يأتي من خلال الرؤية الكونية التي يحملها الفرد عن الإنسان والعالم والتاريخ والوجود.

وعليه فالأيديولوجيات هي وليدة الرؤى الكونية، فإذا اختلفت هذه الرؤى بعضها عن بعض فإنها ستؤدي إلى تفاوت واختلاف الأيديولوجيات فيما بينها، لأن الأساس الفكري الذي تنطلق منه الأيديولوجية هي التفسير الذي يملكه الإنسان عن العالم والوجود"[١].

وعلى هدي ما تقدم يتضح مدى الترابط الوثيق بين الرؤية الكونية والسلوك الإنساني حيث تلقي الرؤية الكونية بظلالها على المسار السلوكي للإنسان، فإذا كانت الرؤية الكونية إلهية انصبغ السلوك الإنساني بها، وأما إذا كانت مادية فتنتج صبغة مادية في السلوك الإنساني.

قال أستاذنا العلامة الحيدري حفظه الله ما نصه: "وهذا فيما يعني أن العلاقة بين الأيديولوجية والرؤية الكونية علاقة متينة بحيث أن الأيديولوجية تتأثر في صبغتها بالرؤية الكونية ومن هنا إذا كانت الرؤية الكونية قائمة على أساس الإيمان بالله والمعاد والنبوة والوحي ـ وهي الرؤية التوحيدية ـ فإن السلوك العملي الذي تتطلبه مثل هذه الرؤية يختلف تماماً

---

(١) كتاب مسأله شناخت للشهيد مطهري نقلاً عن كتاب مدخل إلى مناهج المعرفة عند الإسلاميين للعلامة السيد كمال الحيدري ص١٩٤.

عن السلوك العملي الذي تتطلبه الرؤية الكونية المادية التي تبتني على إنكار المبدأ والمعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١]، وقد عبَّر فلاسفتنا عن الرؤية الكونية بالحكمة النظرية وعن الأيديولوجية بالحكمة العملية"[٢].

المدارس الفكرية الخمس في العصر الإسلامي:

بعد أن تجلَّت لنا أهمية البحث المعارفي وماله من دورٍ في تشكيل الرؤية الكونية لدى الإنسان الباحث عن الحقيقة، يأتي في هذا الفصل الحديث عن المناهج المتبعة في اقتناص الحقائق وذلك أن القاسم المشترك هو كون الإنسان بالفطرة باحث عن الحقيقة ولكن وقع الخلاف في المنهج الذي لا بد للإنسان من اتباعه لكي يصل إلى الحقيقة المنشودة.

المدارس الفكرية الخمس بين مقام الثبوت ومقام الإثبات:

ولكي يتضح هذا الخلاف في هذه المسألة الضرورية لا بد من التمييز بين مقام الثبوت ومقام الإثبات.

وذلك أننا تارة نبحث في المنهج والإسلوب المتبع للكشف عن الحقائق الخارجية كما هي في الواقع ونفس الأمر وهذا ما نسميه بمقام

---

(١) الجاثية ٢٤.

(٢) كتاب مدخل إلى مناهج المعرفة عند الإسلاميين ص١٩٤ للعلامة السيد كمال الحيدري.

الثبوت، وتارة أخرى نتحدث عن الإسلوب الذي لا بد من اتخاذه في إثبات تلك الحقائق للآخرين وهذا ما نسميه بمقام الإثبات.

فإذن لا بد من إدراك هذه المسألة المنهجية والمحورية لكي لا يقع الخلط بين المقامين.

وعليه فإننا عندما نتحدث عن التنوع في المدارس واختلافها إنما يكون في المقام الأول أي مقام الثبوت، وهذه المدارس والرؤى الكونية التي سوف نتحدث عنها وبشكل مختصر بما يتناسب مع المقام والتي هي:

١ـ المدرسة المشائية.

٢ـ المدرسة الكلامية.

٣ـ المدرسة العرفانية.

٤ـ المدرسة الإشراقية.

٥ـ مدرسة الحكمة المتعالية.

فإن هذه المدارس في مقام الثبوت تختلف فيما بينها في طريق الوصول إلى الحقيقة وكيفية اقتناصها، فلكل مدرسة منهج وطريق يخصها وتمتاز به عن الأخرى.

الملاك في تنوع هذه المدارس:

إن الملاك التي يذكر في المقام لاختلاف هذه المدارس، هو ما أشار إليه بعض المحققين الكبار أمثال المولى هادي السبزواري قدس سره حيث قال في كتابه شرح الأسماء الحسنى ما نصه: "ووجه ضبط افتراق أهل العلم والمعرفة إلى المتكلم والحكيم المشائي والإشراقي والصوفي أن المتصدين

لمعرفة حقائق الأشياء إما أن يبحثوا بحيث يطابق الظاهر من الشريعة في الأغلب فيقال لهم المتكلمون، وإما أن لا يراعوا المطابقة ولا المخالفة، فإما أن يقتصروا على المجاهدة والتصفية فيقال لهم الصوفية وإما أن يكتفوا بمجرد النظر والبيان والدليل والبرهان فيقال لهم المشاؤون فإن عقولهم في المشي الفكري، فإن النظر والفكر عبارة عن حركة من المطالب إلى المبادئ ومن المبادئ إلى المطالب.

وإما أن يجمعوا بين الأمرين فيقال لهم الإشراقيون، فإنهم لتجافيهم عن عالم الغرور واجتنابهم عن قول الزور مستشرقون إلى عالم النور، فتشملهم العناية الإلهية بإشراقات القلوب وشرح الصدور"[(١)].

ولكي يكون الباحث على اطلاع ولو إجمالي حول مرتكزات كل مدرسة وأسلوبها التي تتبعه في الوصول إلى الحقائق نتحدث عنها بشكل مختصر.

١ـ المدرسة المشائية

إن المدرسة المشائية تعتبر من المدارس الفكرية المهمة والتي لا يمكن تجاوزها حتى ممن لا يتقبلها بكاملها أو في بعض مبتنياتها لأنها مدرسة حكمت وبقوة ولقرون متمادية على سير الفكر البشري لأن لها

---

(١) شرح الأسماء الحسنى في شرح دعاء الجوشن الكبير ص٢٣٤ للمولى هادي السبزواري قدس سره.

جذور ضاربة في عمق التاريخ حيث تنسب هذه المدرسة إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو فهذه أسماء لامعة في سماء المعرفة البشرية حتى امتدت إلى الدائرة الإسلامية فتبناها جملة من حكماء الإسلام الكبار أمثال الفارابي وابن سينا والمحقق الطوسي والمحقق الداماد أستاذ الملا صدرا، هذا في المشرق الإسلامي، وأما في المغرب الإسلامي كان أبرزهم ابن رشد وابن باجه وغيرهم.

خصائص المدرسة المشائية:

وهذه المدرسة تميزت بمجموعة من الخصائص:

أولاً: أنها اعتمدت المنهج العقلي في الوصول إلى اكتشاف الحقائق حيث جعلت العقل هو الأساس الذي يقوم عليه بنائها المعرفي، حيث أن هذه المدرسة اكتفت بالنظر والبرهان العقلي لمعرفة الحقائق، ومن هنا جاءت مقولاتها ومبتنياتها مترتبة على القاعدة العقلية حيث اصطبغت هذه المدرسة بكل مفاصلها بالمنهج العقلي.

ثانياً: إن الأمر الذي اهتمت به هذه المدرسة اهتماما بالغاً هو الإلهيات وبحوث الميتافيزيقيا ـ ما وراء الطبيعة ـ.

ثالثاً: إنها حاولت أن تربط هذه الأبحاث الفلسفية بحياة الإنسان السلوكية وذلك من خلال إيجاد صيغة للتوازن بين البعدين ـ البعد النظري والعملي ـ كما نجد ذلك في الحديث عن المدينة الفاضلة ومن ثَمَّ قسَّموا الحكمة إلى نظرية وعملية.

سؤال وجواب:

ومن ملاحظة هذه الخصائص وخصوصاً الأولى التي تؤكد على حاكمية المنهج العقلي في الوصول إلى الحقائق انبثق تساؤل عن موقف هذه المدرسة من الشريعة حتى قال البعض: أنها لا تعتني كثيراً بمطابقة مقولاتها الفلسفية بظواهر الشريعة المقدسة بحيث أنها تؤمن بتلك المقولات سواء طابقت الشريعة أم لا.

وفي مقام الجواب على هذه الدعوى يقول أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله ما نصه: "إلا أنه لا يمكن الإذعان لهذه الدعوى على إطلاقها، لأن المفروض بهذه المدارس أنها تتصف جميعاً بالإسلامية وهذا يستلزم أن تكون موافقة في أصولها العامة وخطوطها الكلية للأفكار الأساسية التي جاء بها الإسلام.

على هذا الأساس فنحن نعتقد أن جميع الفلاسفة الإسلاميين كانوا بصدد التطبيق بين المقولات الفلسفية التي يؤمنون بها وبين معطيات الشريعة الإسلامية ـ ومن ثمَّ شواهد كثيرة في كلمات هؤلاء الأعلام لا مجال لذكرها هنا ـ ولم يكن ذلك مقصوراً على الإتجاه الفلسفي في الفكر الإسلامي بل نجده واضحاً في الإتجاه الكلامي والعرفاني أيضاً، لأن هؤلاء جميعا كانوا مؤمنين بالإسلام قبل أن يكونوا فلاسفة ومتكلمين وعرفاء.

والأساس الذي كان ينطلق منه هؤلاء الحكماء هو أنهم كانوا معتقدين أن الشريعة الحقة صادرة عن مبدأ العقل، إذ يستحيل مناقضتها لقضايا العقل الضرورية أو القريبة من الضرورة، كما يستحيل مخالفة العقل

لقضايا الشريعة الحقة بصفتها صادرة عن مبدأ العقل وقيومه، وهذا ما نجده واضحاً في كلام الفارابي وغيره"[١].

المدرسة المشائية ومقام الإثبات:

إذن يتضح لنا أن الإتجاه السائد لهذه المدرسة في المقام الأول - أي مقام الثبوت - هو الطريقة العقلية للوصول إلى الحقائق، ومن ثَمَّ نسأل عن منهجها في مقام الإثبات والذي قلنا أنه المنهج المتبع لإثبات هذه الحقائق وإيصالها للآخرين.

نقول: إن المنهج المتبع في هذه المدرسة في مقام الإثبات هو المنهج العقلي كذلك ومن ثمَّ يتطابق المنهج في هذه المدرسة في كلا المقامين.

٢ـ المدرسة الكلامية:

يعتبر علم الكلام علماً نشأ في أحضان الفكر الإسلامي ولذا جاء هذا العلم للدفاع عن مبتنيات الدين وقواعده والتي تسمى بأصول الدين، ومن هنا عُرِّف علم الكلام أنه: (العلم الذي يبحث في أصول الدين الإسلامي).

وقد تقدم منا في بحث سابق أن الدين الإسلامي يتألف من أقسام

---

(١) كتاب مدخل إلى مناهج المعرفة مصدر سابق ص٢٠٤ للعلامة السيد كمال الحيدري.

ثلاثة:

الأول/ قسم العقائد: وهو ما يسمى بأصول الدين والذي يعتني بالمسائل التي يجب الإعتقاد بها مثل الإيمان بوجود الله والعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

الثاني/ قسم الأخلاق: والذي يعني تلك المسائل التي ترتبط بسلوك الإنسان وما ينبغي على عليه من التحلي بالصفات الحسنة والأخلاق السامية.

الثالث/ فروع الدين: وهي التي ترتبط بكيفية السلوك في علاقة الإنسان بربه ونفسه ومجتمعه، حيث يتحدث عن الأحكام الشرعية والوضعية.

وظائف علم الكلام الإسلامي:

إن مقام بحثنا هو القسم الأول وهو قسم العقائد أو أصول الدين، وإن العلم الذي يتكفل بذلك هو علم الكلام، ومن ثَمَّ كان لعلم الكلام الإسلامي وظائف رئيسة منها:

أولاً/ أنه يهتم بتبيين أصول الدين وتوضيحها، وجعلها في أُطُرٍ معرفية متميزة عن غيرها كالتوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

ثانياً/ إثبات هذه الأصول بالأدلة العقلية.

ثالثاً/ القيام بعملية الدفاع عن هذه الأصول ومواجهة الشبهات التي تحوم حولها.

ومن هنا كان عالِمُ الكلام هو المدافع عن أصول الدين.

المنهج المتبع:

ما هو المنهج الذي اتبعته هذه المدرسة للوصول إلى الحقائق؟

والجواب هو:

أن هذه المدرسة اعتمدت المنهج النقلي أي الإعتماد على ظواهر الكتاب والسنة الشريفة، فهم في مقام الثبوت أي الوصول إلى الحقائق يعتمدون هذا المنهج، ولذا نجد أنهم يصرُّون على هذا المنهج إصراراً كبيراً مما أدى بهم إلى إيجاد حالة من التأزم الفكري والمعارفي بينهم وبين المدرسة المشائية والتي قلنا أنها اعتمدت المنهج العقلي بينما هي اعتمدت المنهج النقلي، ومن ثَمَّ نجد أن هذين الإتجاهين يختلفان فيما بينهما وذلك من جهة المنطلق والوسيلة والهدف: (أما المنطلق فالإتجاه الأول يؤمن بأنْ لا طريق للوصول إلى الحقائق واكتساب المعارف إلا بالمنهج والأسلوب التعقلي، وهذا خلاف الإتجاه الثاني الذي يرى أن الطريق إلى ذلك هو الرجوع إلى ظواهر الكتاب والسنة.

وأما الوسيلة فالأول يرى أنه لا بد من اعتماد المقدمات البرهانية لإثبات تلك الحقائق والمدعيات، خلافاً للثاني فإنه يستعين بالمقدمات الجدلية للوصول إلى الغاية التي يروم تحقيقها.

وأما الهدف فإن الإتجاه الأول يعتبر الأصل هي المقولات الفلسفية، ويبحث في ظواهر الشريعة محاولاً تطبيقها على تلك القواعد والمقولات، فيما يقف أصحاب الإتجاه الثاني على النقيض من ذلك، حيث يعتبرون أن الأصل هي ظواهر الشريعة التي لا يجوز أن تُمَسَّ بأي نحو من الأنحاء،

وإنما يجب على العقل ومعطياته أن يطبق نفسه على تلك المدعيات"[١].

وكشاهد على حالة التأزم القائم بين المدرستين هو ما وقع بين الغزالي وابن رشد في (تهافت الفلاسفة) و(تهافت التهافت)، وما وقع بين الشهرستاني والمحقق الطوسي قدس سره في (مصارع الفلاسفة) و(مصارع المصارع).

وخلاصة ما يمكن أن يقال أن المدرسة الكلامية في مقام الثبوت اعتمدت المنهج النقلي في ذلك.

المدرسة الكلامية ومقام الإثبات:

يبقى التساؤل الآخر عن المنهج الذي تبعته هذه المدرسة في إثبات مدعياتها ومبتنياتها للآخرين؟

إن هذه المدرسة اعتمدت المنهج العقلي في ذلك حيث كانت تستعين بالأسس والقواعد العقلية لإثبات المدعيات الدينية، ومن ثَمَّ اختلف المسار الثبوتي في هذه المدرسة عن المسار الإثباتي.

٣ـ المدرسة العرفانية:

والعرفان ينقسم إلى قسمين:

---

(١) كتاب مدخل إلى مناهج المعرفة ص٢١٥ للعلامة السيد كمال الحيدري.

القسم الأول: العرفان النظري:

وهو يُعَدُّ فرعاً من فروع المعرفة لدى الإنسان، حيث يحاول هذا الفرع أن يعطي تفسيراً ورؤية كونية كاملة عن (الله) و(الإنسان) و(العالم) ومن ثَمَّ فإن العرفان النظري هو علمٌ له موضوع ومسائل كأي علم من العلوم الأخرى، وعلى ذلك يكون الكلام في كلا المقامين منحصر في هذا الفرع.

القسم الثاني: وهو العرفان العملي:

وهو علمٌ يتحدث عن بيان مقامات العارفين ودرجات السالكين إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك أن العارف يبتغي في سلوكه الوصول إلى مقام أن لا يرى في الوجود إلا الله تعالى، وبعبارة أخرى يريد أن يصل من خلال رياضاته ومجاهداته المقررة في الشريعة إلى أن يرى حقيقة قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾[1]، وكذا قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[2]، وفي هذا الصدد يقول إمام الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام في هذا النوع من السلوك: «إن الله جعل الذكر جلاءً للقلوب تسمع به بُعدَ الوقرة، وتُبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله عزت

(١) البقرة ١١٥.

(٢) الأنفال ٢٤.

آلاءه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات عبادٌ ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم»[1]، وأيضا جاء عنه عليه السلام ما نصه: «قد أحيا عقله وأمات نفسه حتى دقَّ جليله ولطُفَ غليظه وبرق له لامعٌ كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»[2].

ومن الكتب التي اعتنت بهذا النوع في بيان مقامات السالكين هو كتاب (شرح منازل السائرين) لعبد الرزاق الكاشاني، وشرح التلمساني على منازل السائرين وغيرها من الكتب.

العرفان النظري في مقامين:

إن حديثنا ينصب على العرفان النظري كعلم له موضوع ومبادئ ومسائل، حيث تكمن مهمة العارف في مسألتين رئيسيتين هما:

الأولى: إثبات التوحيد الحقيقي.

الثانية: إثبات مَن هو الموحد الحقيقي أي الإنسان الكامل.

والحديث عن هذه المدرسة يمر عبر مقامين:

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق خطبة ٢١٨.

المقام الأول: مقام الثبوت:

والذي يكون فيه الحديث عن كيفية اقتناص الحقائق والوصول إليها، فالعرفان النظري يعتقد أن الطريق الذي يوصلنا لمعرفة حقائق الوجود على ما هي عليها هو طريق تصفية القلب وتزكيته من خلال الرياضات الشرعية والتي أقرَّها الشارع، وعلى أساس هذا قسَّموا العلوم إلى قسمين: علوم اكتسابية رسمية وعلوم إرثية إلهية، فالأول: يكون عن طريق التعليم الإنساني، والثاني: يكون بالتعليم الإلهي، وفي هذا الصدد يقول العارف الإمامي الكبير السيد حيدر الآملي قُدِّسَ سِرُّهُ ما نصه: "إعلم أن العلوم كلها تنقسم إلى قسمين: رسمي اكتسابي وإرثي إلهي فالعلم الرسمي الإكتسابي يكون بالتعليم الإنساني على التدريج، مع نصب قوي وتعب شديد في مدة طويلة.

والعلم الإرثي الإلهي يكون تحصيله بالتعليم الرباني بالتدريج وغير التدريج مع رَوحٍ وراحةٍ في مدة يسيرة.

وكل واحد منهما يحصل بدون الآخر، ولكن الثاني - أي العلم الإرثي - يفيد بدون الأول، والعلم الأول لا يفيد بدون العلم الثاني، كعلوم الأنبياء والأولياء، فإنها تفيد بدون العلم الظاهر، بخلاف العلم الظاهر فإنه لا يفيد بدونه، وإليهما أشار النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بقوله: «العلم علمان: علم اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب، وذلك هو العلم النافع»[1]، وكذلك

---

(١) بحار الأنوار ج٢ ص٣٣ باب ١ ح٢٦.

أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع»[(١)(٢)].

ولا يخفى على المتأمل أن تحصيل كلا القسمين والجمع بينهما أمرٌ ممكن كما هو حاصل في الأنبياء والأولياء والكُمَّل ولكن يبقى الإصرار من هذه المدرسة على أهمية العلم الإرثي الإلهي لكونه هو العلم النافع والموصل إلى معرفة الله على سبيل اليقين والقطع، وبالتالي معرفة الأشياء على ما هي عليه لكونها متفرعة على معرفة الله لاستحالة الإنفكاك بينهما.

وأما العلوم الرسمية فإنها لا توصل إلى اليقين والقطع ومن ثَمَّ فهي عندهم قليلة النفع قليلة الجدوى.

كيفية حصول العلوم الإلهية:

إن كيفية حصول هذه العلوم الإلهية أو ما تسمى بالإرثية يكون عبر فراغ القلب وصفاء الباطن وهذا ما أشار إليه جملة من العرفاء ومنهم السيد حيدر الآملي قدس سره حيث قال: "وأما كيفية تحصيل العلوم الحقيقية -أي الإرثي الإلهي- فهو في غاية السهولة، لأنها موقوفة على فراغ القلب وصفاء الباطن، وهذا يمكن بساعة واحدة وبيوم واحد وبليلة واحدة! هذا إذا كان القائل بها قائلاً بالكسب، وأما إذا لم يكن قائلاً به، بل يكون قائلاً بأنها هبة

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٢١٨ باب١ ح٤٤.

(٢) كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار للسيد حيدر الآملي قدس سره ص٤٧٢.

إلهية وعطية ربانية، فيمكن حصولها بأقل من ذلك"[١].

وعلى المسار نفسه يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: "إن العارف هو الذي يمكنه الإنقطاع قلباً عن هذه النشأة مع تمام الإيقان باللازم من المعارف الإلهية، والتخلص إلى الحق سبحانه، وهذا هو الذي يمكنه شهود ما وراء هذه النشأة المادية والإشراف على الأنوار كالأنبياء عليهم السلام"[٢].

على ما تقدم يتضح أن هذه المدرسة تعتقد في مقام الثبوت أن المنهج الصحيح للوصول إلى معرفة الله والوقوف على حقائق هذا العالم ينحصر في هذا الطريق أي طريق المجاهدة والرياضة المعنوية، ولعلَّ من أهم الأسباب التي تجعل هذه المدرسة تعتمد هذا المنهج دون منهج المدرسة المشائية أن الإستدلالات العقلية عندهم لا تفيد النفسَ شيئاً تستريح وتسكن له وذلك لاحتمال ورود الخطأ والإشتباه.

قال السيد حيدر الآملي قدس سره: "والغرض أن العلوم الرسمية الحاصلة عن النظر والفكر ليست خالية من الشكوك والشبهة والخطأ والزلل"[٣].

هذا مضافاً إلى أن المناهج الأخرى إنما تدرك العالَم وخالِقه عن طريق مجموعة من المفاهيم بينما العارف لا علاقة له بإدراك المفاهيم والصور.

---

(١) المصدر السابق ص٥٣٤.

(٢) رسالة الولاية للعلامة الطباطبائي قدس سره ص١٧.

(٣) كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار ص٤٩٢.

يقول أستاذنا السيد كمال الحيدري حفظه الله ما نصه: "وأما العارف فلا علاقة له بالفهم والعقل وإدراك المفاهيم والصور، بل غايته التي يسعى للوصول إليها، هي مشاهدة جمال الحق وشهود حقائق هذا العالم على ما هي عليه وليس الكمال الذي يبتغيه هو تحصيل صورة هذه الأشياء.

ومن الواضح أن الفرق كبير جداً بين من يعرف النار من خلال المفهوم والصورة الذهنية، وبين من يعرفها من خلال الإحساس بحرارتها والإحتراق بها، والأول حال الحكيم المشائي والثاني حال العارف المُكاشِف"(١).

هذا تمام الكلام في المقام الأول.

المقام الثاني: مقام الإثبات:

أي إثبات تلك المدعيات والحقائق التي وصل إليها العارف من خلال مكاشفاته وشهوده للآخرين.

إن العارف في هذا المقام يعتمد المنهج والإسلوب العقلي في إيصال الحقائق للآخرين ومن ثَمَّ فلا يوجد فرقٌ بين العارف والفيلسوف في هذا المقام، ولذا نجد أن الكتب التي كتبت في العرفان النظري إنما هي في صدد هذا المقام أي مقام الإثبات وبيان الحقائق للآخرين فعلى سبيل المثال كتاب (تمهيد القواعد) لصائن الدين علي بن محمد التركة حيث

---

(١) كتاب مدخل إلى مناهج المعرفة مصدر سابق ص٢٢٩ للعلامة السيد كمال الحيدري.

قال: "وأما الرسالة التي صنفها مولاي وجدّي ـ أبو حامد ـ محمد الأصفهاني المشتهر بـ(تركة) فإنه مع جعلها مشتملة على البراهين القاطعة الحجج على أصل المسألة، وفق ما ذهب إليه المحققون، قد بالغ في دفع تلك الشبهات بلطائف بيانه وبذل الجهد في إماطة تلك الأذيات بمكابس تبيانه، بحيث لا يبقى لمن له أدنى دُربَه في العقليات شائبة خدشة فيما هو الحق من تلك اليقينيات.

ثم إنه كان سَوْقُ الكلام في هذه الرسالة إنما هو على مساق أهل الإستدلال ناسب أن نصدر الكلام بمقدمة"[1].

وأيضاً هذا ما نجده من خلال المقدمة التي كتبها الشيخ محمود القيصري في كتاب فصوص الحكم للشيخ ابن عربي.

فيتضح لنا أن المسار الثبوتي في هذه المدرسة يختلف عن المسار الإثباتي.

٤ـ المدرسة الإشراقية:

إن هذه المدرسة الفكرية والتي لها امتداد وجذور ضاربة في القدم حيث تُعزى إلى أفلاطون الحكيم وأن زعيمها وأكبر منظريها في العصر الإسلامي هو الشيخ شهاب الدين السهروردي قدس سره صاحب كتاب (حكمة الإشراق) وأن سبب تسمية هذه المدرسة هو أن اعتقاد أن العلم نور يشرق

---

(١) تمهيد القواعد لابن تركة رحمه الله ص ١٠.

في قلب العارف.

يقول العارف الكبير السيد حيدر الآملي قدس سره في هذا الصدد: "أن مثل القلب مثل المرآة المجلوة المصقولة محاذياً للوح المحفوظ وما عليه من العلوم والحقائق فكما لا يمكن أن يكون شئ محاذياً للمرآة المصقولة ولا يؤثر فيها فكذلك لا يمكن شئ أن يكون محاذياً للوح المحفوظ وهو لا يرى في المرآة القلبية الصافية"(١).

ولكي تتض أهم معالم هذه المدرسة نجعل الحديث عبر مقامين:

المقام الأول/ مقام الثبوت:

تعتقد هذه المدرسة أن الطريق لدرك العلوم الإلهية والمعارف الحقيقية في مقام الثبوت ـ أي مقام الحصول على الحقائق ـ يكمن بتهذيب النفس والمداومة على الأمور التي تقرب الإنسان إلى عالم الطهارة والصفاء والقدس، مضافاً إلى الفكر والإستدلال العقلي ولذا فهذه المدرسة لم تلغي دور العقل في الوصول للحقائق كما فعلت المدرسة العرفانية، وأيضاً لم تلغ دور التصفية والتزكية للوصول إلى الحقائق كما فعلت المدرسة المشائية، فهي قامت بمزاوجة بين العقل والكشف، ولكن ينبغي الإشارة إلى أن هذه المدرسة تعطي كلا الأمرين واقعيتيهما ومؤثريتيهما في الوصول إلى

---

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار ص٥٣٥ للسيد حيدر الآملي قدس سره.

الحقائق، فلا تكتفي بالعقل وحده ولا بالكشف وحده بل تحاول الإستفادة والإستعانة بهما في الوصول إلى الحقائق.

يقول الشيخ السهروردي رحمه الله في هذا الصدد في حكمة الإشراق في تقسيم الحكماء وطبقاتهم ما نصه: "والحكماء كثيرة وهم على طبقات وهي هذه:

أحدها: حكيم إلهي متوغلٌ في التأله عديم البحث.

ثانيها: حكيم بحّاث عديم التأله.

ثالثها: حكيم إلهي متوغل في التأله والبحث.

إلى أن يقول: وأجود الطلبة طالب التأله والبحث، وكتابنا هذا لطالبيٍّ البحث والتأله"[1].

أهمية العقل عند شيخ الإشراق:

تشير جملة من عبارات شيخ الإشراق قدس سره إلى أهمية الإستدلال العقلي في منهجه الذي اتخذه في الوصول إلى الحقائق حيث قال: "إنه لا يمكن فهم حقيقة الحكمة الإشراقية ما لم يكن الحكيم ماهراً في العلوم البحثية والمناهج الإستدلالية البرهانية".

وعلى هذا الأساس ينصح لمن أراد معرفة كتابه (حكمة الإشراق) أن يقرأ في البداية قبل ذلك كتابَ التلويحات وكتابَ المشارع والمطارحات

(١) شرح حكمة الإشراق ص٢٢ لقطب الدين الشيرازي.

حيث قال في كتابه المطارحات: "ومَن لم يتمهر في العلوم البحثية به فلا سبيل له إلى كتاب الموسوم بـ(حكمة الإشراق) وهذا الكتاب ينبغي أن يقرأ قبله وبعد تحقيق المختصر الموسوم بـ(التلويحات)"[١].

أهمية التزكية عند الإشراق:

قال شيخ الإشراق في أهمية تصفية الباطن والمداومة على الأمور المقرِّبة إلى القدس ما نصه: "وأما أنت إن أردت أن تكون عالِماً إلهياً من دون أن تتعب وتداوم على الأمور المقربة إلى القدس فقد حدثت نفسك بالممتنع أو شبيه الممتنع، فإن طلبت واجتهدت لا تلبث زماناً طويلاً إلا ويأتيك البارقة النورانية وسترتقي إلى السكينة الإلهية الثابتة"[٢].

وعلى المسار نفسه يقول: "أوصيكم إخواني بحفظ أوامر الله ونواهيه والتوجه إلى الله مولانا نور الأنوار ـ بالكلية ـ وترك ما لا يعنيكم من قول أو فعل وقطع كل خاطر شيطاني"[٣].

دور القرآن والسنة عند شيخ الإشراق:

أكَّد شيخ الإشراق على أهمية التمسك بالكتاب والسنة ومحوريتهما

---

(١) فلسفة السهروردي ص٤٧ لمؤلفه ديناني.

(٢) المصدر السابق ص٤٧.

(٣) المصدر السابق ص١٧.

في الرؤية الكونية حيث قال: "أول ما أوصيك به تقوى الله عز وجل فما خاب من آلَ إليه وما تعطَّل من توكل عليه، إحفظ الشريعة فإنها سوط الله بها يسوق عباده إلى رضوانه كل دعوى لم تشهد بها شواهد الكتاب والسنة فهي من تفاريع العبث وشعب الرفث من لم يعتصم بحبل القوي غوى، وهوى في غيابت جب الهوى، ألم تعلم كما قصرت قوى الخلائق عن إيجادك قصرت عن إعطاء حق إرشادك ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1] قدرته أوجدتك وكلمته أرشدتك"[2].

وللحث على أهمية القرآن والتدبر فيه قال: "وعليك بقراءة القرآن مع وُجْدٍ وطرب وفكر لطيف، واقرأ القرآن كأنه ما أُنزلَ إلا في شأنك فقط"[3].

هذا مضافاً إلى تأكيده على الدعاء وأهميته في هذا المجال حيث قال: "وكن كثير الدعاء في أمر آخرتك فإن الدعاء نسبته إلى استجلاب المطالب كنسبة الفكر إلى استجلاب المطلوب العلمي، فكل معد لما يناسبه"[4].

هذا حاصل ما يمكن أن يقال في الأسس والمرتكزات التي قامت

---

(١) طه ٥٠.

(٢) ثلاث رسائل لشيخ الإشراق بالفارسية ص٨٢.

(٣) المصدر السابق ص١٢٩.

(٤) فلسفة السهروردي لمؤلفه ديناني ص٤١.

عليها هذه المدرسة في المقام الأول.

يقول أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله في عرضه للعناصر الأساسية لهذه المدرسة: "هذا مجمل الأصول والمباني الأساسية التي تنطلق منها هذه المدرسة لمعرفة الحقائق الوجودية والوقوف عليها وهي:

الأول/ المشاهدة والمكاشفة.

الثاني/ العقل والإستدلال.

الثالث/ ظواهر الكتاب والسنة"[1].

المقام الثاني / مقام الإثبات:

إن هذه المدرسة اعتمدت المنهج والإسلوب العقلي في إيصال مُدَّعَياتها ومبتنياتها للآخرين، فهي كبقية المدارس السابقة في هذا المقام.

تساؤل:

ويبقى تساؤل عن مدى قدرة هذه المدرسة لتأسيس منظومة فلسفية متقنة تكون قادرة للإستدلال في هذا المقام - مقام الإثبات - على تلك المدعيات والمبتنيات، وهذا بحث موكول إلى محله، ولكن اختصاراً نقول ما قاله أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله في هذا الصدد حيث قال: "أنها لم تستطع - أي المدرسة الإشراقية - أن تحقق النجاح الذي حققته

(١) كتاب مدخل إلى مناهج المعرفة ص٢٤٨ للعلامة السيد كمال الحيدري.

في المقام الأول من البحث، بل كان ذلك من نصيب صدر المتألهين في الحكمة المتعالية"[1].

إشارة:

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدرسة كان لها الأثر الكبير في المدرسة التي أقامها صدر المتألهين قدس سره وهي مدرسة الحكمة المتعالية والتي سوف يأتي الحديث عنها.

٥ـ مدرسة الحكمة المتعالية:

لكي تتجلى لنا أهم مفاصل هذه المدرسة العملاقة في الفكر البشري نجعل الحديث يمر عبر مجموعة من المحاور:

المحور الأول:

صدر المتألهين قدس سره حياته ومراحله:

محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي والذي عُرف في الأوساط العلمية بصدر المتألهين وملا صدرا والآخوند في الأوساط الفلسفية.

كانت ولادته سنة ٩٧٩ هـ وكانت وفاته وانتقاله إلى دار الحق عام ١١٥٠هـ فيكون عمره الشريف إحدى وسبعون سنة كما أشار إلى ذلك المحقق الكبير السيد جلال الدين الأشتياني قدس سره.

---

(١) المصدر السابق ص٢٤٩.

ولد هذا العارف والحكيم المتأله في مدينة شيراز من والد امتاز بالصلاح والتقوى اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي، وكان على ما قيل أحد وزراء دولة فارس فهو من عائلة محترمة جليلة معروفة في الأوساط آنذاك بعائلة (قوامي)، وقيل في سبب مجيء هذا الابن أن والده لم يولد له ذكرٌ فنذر لله أن ينفق مالاً كثيراً على الفقراء وأهل العلم إذا رزقه الله ولداً ذكراً صالحاً موحِداً حقيقياً، فاستجاب الله له فرزقه هذا الابن الذي اسمه محمد صدر الدين، ولذا قد تربى هذا الابن الوحيد لأبويه معززاً مكرماً غذاه على حب العلم والعلماء ومن ثَمَّ وجه ولده لطلب العلم فاشتغل بالعلم واكتساب الكمالات العلمية والعملية.

❊مراحله العلمية:

المرحلة الأولى: دور التعليم:

اشتغل ملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ في هذه المرحلة بتحصيل العلوم العقلية والنقلية حتى لمع شأنه العلمي، وصار من أقطاب المجتهدين والمحققين الكبار حيث درس العلوم العقلية على المحقق الكبير السيد محمد باقر المعروف بالمير دامادقُدِّسَ سِرُّهُ، ودرس العلوم النقلية على يد الشيخ بهاء الدين محمد العاملي المعروف بالشيخ البهائيقُدِّسَ سِرُّهُ.

المرحلة الثانية: مرحلة العُزلة والعبادة:

بعد أن انتهى من المرحلة الأولى بحيث صار فيها أستاذاً كاملاً في العلوم الرسمية أدرك أنَّ هذا المسار لا يُغَطِّي حاجته وغليله واندفاعه نحو الكمال، من هنا عزم على التوجه إلى مدينة قم المقدسة واستقر في إحدى

قراها وهي (قرية كَهْك) واستمرت هذه العُزلة خمسة عشر عاماً حيث اشتغل فيها بالرياضات الشرعية ومجاهدة النفس حتى أنه استطاع أن يفتح نافذة على عالم القدس والملكوت ومن ثَمَّ وصل إلى مرحلة من الكشف المطابق لما وصل إليه عبر الإستدلال بل انكشفت له أسرار ورموز لم تكن معروفة لديه سابقاً.

قال في هذا الصدد: "فتوجهت توجها غريزياً نحو مسبب الأسباب وتضرعت تضرعاً جِبلِيّاً إلى مسهل الأمور الصعاب فلما بقيت على هذا الحال من الإستتار والإنزواء والخمول والإعتزال زماناً مديداً وأمداً بعيداً اشتعلت نفسي لطول المجاهدات إشتعالاً نورياً والتهب قلبي لكثره الرياضات إلتهاباً قوياً ففاضت عليها أنوار الملكوت وحلت بها خبايا الجبروت ولحقتها الأضواء الأحدية وتداركتها الألطاف الإلهية فاطلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الإنكشاف من البرهان بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان من الأسرار الإلهية والحقائق الربانية والودائع اللاهوتية والخبايا الصمدانية"[١].

فهذا جانبٌ من كلامه كاشف عن أهمية هذه المرحلة ودورها في صياغة شخصيته صياغة إلهية.

المرحلة الثالثة: دور التنظير والإبداع:

---

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة ج١ ص١ من السفر الرابع.

في هذه المرحلة والتي تكون نتاجاً طبيعياً للمرحلتين السابقتين حيث أتت هذه المرحلة لتُعْطِي التنظير وإبراز هذه المدرسة على مستوى مقام الإثبات، فإنَّ خبرته الواسعة في العلوم العقلية والنقلية مضافاً إلى عزلته ومجاهداته أسفرا في المقام الثاني عن مدرسة عظيمة سُمِّيت بالحكمة المتعالية والتي حكمت الفكر البشري خصوصاً الإمامي قرابة الخمسة قرون ولا تزال.

يقول العلامة المطهري قُدِّسَ سِرُّهُ: "قد أُسست هذه الفلسفة المعروفة بالحكمة المتعالية على يد صدر المتألهين الشيرازي المشهور بملا صدرا في القرن الحادي عشر، ومنذ هذا التاريخ فما بعد اتخذت الدراسات الفلسفية في إيران تلك التحقيقات التي قام بها ذلك العالم الفذ في المواضيع الفلسفية المهمة محوراً لها.

وتدور معظم بحوث صدر المتألهين حول الفلسفة الأولى والحكمة الإلهية وقد تمثل صدر المتألهين بصورة رائعة ما وصل إليه من آثار اليونانيين القدماء ولاسيما إفلاطون وأرسطو.

واستطاع أيضا هضم ما قدمه الفارابي وأبوعلي وشيخ الإشراق وغيرهم من تفسير أو من إبداع، واستوعب أيضا ما أدركه العارفون العظام بوحي من أذواقهم وقوة عرفانهم، ثم شاد أساساً جديداً على قواعد وأصول محكمة لا يتطرق إليها الخلل، وأخرج مسائل الفلسفة بشكل رياضي بواسطة البرهان والإستدلال، بحيث تُستنبط وتُستخرج إحداها من الأخرى، وبهذا أخرج الفلسفة من التبعثر والتشتت في طرق الإستدلال.

ومنذ عصر أرسطو ـ ذلك الفيلسوف الثائر ـ ضد آراء أُستاذه إفلاطون ـ نلاحظ وجود مذهبين فلسفيين يسيران بشكل متواز ويعتبر إفلاطون ممثلا لأحد هذين التيارين.

أما أرسطو فهو الممثل للتيار الآخر، وقد وُجِدَ أتباعٌ لكل من هذين المذهبين في كل مرحلة تاريخية لاحقة، وعُرِفَ هذان المذهبان الفلسفيان في أوساط المسلمين باسم (مذهب الإشراقيين) و(مذهب المشائين).

واستمرت المشاجرات الفلسفية بين هذين الإتجاهين فترة تزيد على الألفين من الأعوام بين اليونانيين ثم في الإسكندرية وبعد ذلك بين المسلمين، ثم بين الأوربيين في القرون الوسطى.

وقد وضع صدر المتألهين نهاية حاسمة لهذا النزاع الطويل بالأساس الجديد الذي شاده في فلسفته، ومنذ هذا الزمن فما بعد لم يعد معنى لوقوف أحد هذين الإتجاهين في مقابل الآخر، وقد لاحظ كل مَن جاء بعده واطلع على فلسفته، أن النزاع الذي امتد لألفي عام بين المشائين والإشراقيين قد حُسِمَ على يد الفيلسوف العظيم"[١].

إبداعاته:

جاءت إبداعاته الفكرية عبر مؤلفات لا زالت رافداً قوياً للفكر البشري والتي منها الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة الذي يعد

---

(١) أسس الفلسفة والمذهب الواقعي للعلامة الطباطبائي ج١ ص١٣.

الأم لكل مؤلفاته حيث طرح فيه كل ما يمكن طرحه من مقولاتٍ وإبداعاتٍ فكرية، ولذا لازال الكتاب محور البحث والدراسات العليا في الحوزات العلمية وغيرها في المسار الفلسفي.

وكذا تفسيره للقرآن من خلال آلياته العلمية وانعكاساته على فهم القرآن الكريم فجاء تفسيره في سبعة مجلدات، وعلى نفس المسار نجد شرحه لأصول الكافي وكذا كتبه الأخرى كالمبدأ والمعاد وكتاب المظاهر الإلهية وكتاب الأسرار والآيات وكتاب مفاتيح الغيب وكتاب العرشية وما إلى ذلك من نتاجات علمية جبارة لا يمكن إقفالها في مسار الفكر الطويل.

فضلا عن بعض تعليقاته كما في تعليقته على كتاب الشفاء للشيخ الرئيس وتعليقته على حكمة الإشراق للسهروردي وما إلى ذلك.

المحور الثاني: الحكمة المتعالية ومقام الثبوت ومقام الإثبات:

نشير في هذا المحور لأهم سمات هذه المدرسة وذلك من خلال مقامين:

الأول: مقام الثبوت:

فيما تقدم أشرنا إلى أن هذا المقام يتم فيه عرض المنهج التي اتبعته أي مدرسة فكرية في الوصول إلى الحقائق وعمن ثَمَّ نتسائل عن المنهج والإسلوب الذي سلكته مدرسة الحكمة المتعالية للوصول إلى الحقائق؟

إنَّ هذه المدرسة في مقام الثبوت اعتمدت على عناصر ثلاثة في الوصول إلى الحقائق وهذه العناصر هي: القرآن والعرفان والبرهان.

بمعنى أنها تعتقد أن الوصول إلى الحقائق يكون عبر هذه الأسس

الثلاثة ولكن لا بمعنى التلفيق وضم أساس إلى أساس بل بمعنى أن هذه المدرسة مدرسة فلسفية مركِبة وموحِدة لهذه الأسس ومبتكرة، ومن هنا استطاعت أن تعالج المسائل الأساسية في الكون وعلاقة عالم الإمكان بالمبدأ الأول تعالى، حيث انطلقت من هذه العناصر لإيجاد رؤية كونية متكاملة ومتطورة ومبدعة لازالت حاكمة إلى يومنا هذا.

والدليل على ذلك:

أولاً/ إن جملة من القواعد الفلسفية لم تكن مطروحة في كلمات الفلاسفة السابقين بل حتى عند العرفاء والمتكلمين وإنما طُرحت ولأول مرة في كلمات صدر المتألهين قدس سره.

ثانياً/ توجد مجموعة من القواعد المعرفية والتي رُفضت نتيجة عدم قيام البرهان عليها فأقام ملا صدرا البراهين العقلية على حَقّانيتها.

ثالثاً/ وجود مجموعة من المسائل المعرفية عند العرفاء السابقين كانت تفتقر إلى الدليل العقلي فقام بإثباتها.

إذن يعتقد صدر المتألهين قدس سره أن المنهج في كشف حقائق الوجود لا يكون هو الإستدلال العقلي المحض كما نجده في الحكمة المشائية ولا في المكاشفة والشهود كما عند المدرسة العرفانية وليس الإتكاء على ظواهر الشريعة بعيداً عن البرهان والكشف كما عند المتكلمين وإنما اعتمد في هذا المنهج القرآن والعرفان والبرهان.

يقول صدر المتألهين قدس سره في هذا الصدد: "فأولى أن يُرجع في طريقتنا في المعارف والعلوم من العلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة

المتألهين من الحكماء وأسرار من الحكماء المليين من العرفاء، فإن ما تيسر لنا بفضل الله ورحمته وما وصلنا بفضله وجوده من خلاصة أسرار المبدأ والمعاد مما لست أظن أن وصل إليه أحد ممن أعرفه من شيعة المشائين ومتأخريهم، دون أئمتهم ومتقدميهم كأرسطو ومن سبقه، ولا أزعم أن كان يقدر على إثباته بقوة البحث والبرهان شخص من المعروفين بالمكاشفة والعرفان من مشايخ الصوفية من سابقيهم ولاحقيهم"(١).

وهذه الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار في كتابه الأسفار الأربعة والذي قال عنه جملة من الأكابر إنه أعظم كتاب فلسفي أنتجه ذهنٌ بشري غير معصوم، وهو يعد من الدراسات العميقة والتي تعالج مسائل الكون وعلاقتها بالمبدأ بطريقة إبداعية قالقُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه الأسفار: "إنه قد اندمجت فيه العلوم التألهية في الحكمة البحثيَّة وتدرعت فيه الحقائق الكشفية بالبيانات التعليمية، وتسربلت الأسرار الربانية بالعبارات المأنوسة للطباع"(٢).

الشريعة في مدرسة الحكمة المتعالية:

إن الشريعة الإسلامية المتمثلة في القرآن وكلام المعصومينعليهم السلام دور كبير في هذه المدرسة خصوصاً إذا لحظنا أن الملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ كان متضلعاً في العلوم الشرعية النقلية وكان له نتاج في ذلك كتفسير القرآن و

---

(١) مقدمة الحكمة المتعالية ج١ ص١٠ للملا صدرا.

(٢) المصدر السابق ـ ج١ ص٩.

شرح أصول الكافي كما أشرنا سابقاً، وهذا يكشف عن وقوفه على تراث المعصومين عليهم السلام مما يؤكد وجود خبرة واسعة في هذا المجال، ومن هنا يأتي هذا التساؤل ما دور هذه الشريعة في رؤيته الكونية فهل لها دور الأصالة أو دور التبعية؟

إن ملا صدرا قدس سره جعل الشريعة محوراً يدور حولها البرهان والعرفان لكونه يعتقد أن الشريعة صادرة عن مبدأ العقل والوجود والحجج المعصومين عن الخطأ والزلل، فهي عنده قضايا يقينية وضرورية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهذا مما أدى به أن يوصِلَ سقف المسائل الفلسفية من مأتين مسألة إلى سبعمائة مسألة فهو يعتقد اعتقاداً جازماً بتطابق الشرع والعقل والكشف الصحيح تطابقاً تاماً، يقول قدس سره في هذا الصدد: "وحاشا الشريعة الحقة البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير متطابقة للكتاب والسنة"[1].

إشارة مهمة:

تجدر الإشارة إلى أن هذه المحاور الثلاثة ليست في عرض واحد في منظومته ومدرسته بل يجعل الشريعة المتمثلة في القرآن الكريم وكلام المعصومين عليهم السلام محوراً يدور حولها العرفان والبرهان.

---

(١) المصدر السابق ج٨ ص٣٠٣.

قال قدس سره في اهتمامه بالشريعة الحقة وكونها الميزان الذي يزن من خلاله الحقائق والمعارف: "ختم ووصية: يقول هذا العبد الذليل: إني أستعيذ بالله ربي الجليل في جميع أقوالي وأفعالي ومعتقداتي ومصنفاتي من كل ما يقدح في صحة متابعة الشريعة التي أتانا بها سيد المرسلين وخاتم النبيين عليه وآله أفضل صلوات المصلين، أو يُشعِرُ بوهن بالعزيمة والدين أو ضعف في التمسك بحبله المتين لأني أعلم يقيناً أنه لا يمكن لأحد أن يعبد الله كما هو أهله ومستحقه إلا بتوسط من له الاسم الأعظم وهو الإنسان الكامل المُكمَّل خليفة الله بالخلافة الكبرى في عالمَي المُلك والملكوت الأسفل والأعلى ونشأتي الأخرى والأولى"[(١)].

وهذا الكلام له أهميته البالغة في مدى عنايته بالشريعة الحقة وفيه ردٌ واضحٌ وصريحٌ على كل من يتهم ملا صدرا قدس سره أو الحكماء في عدم اهتمامهم بالشريعة خصوصاً إذا لَحَظْنَا أنَّ هذا الكتاب ـ كتاب العرشية ـ من الكتب المتأخرة الذي ألفها ملا صدرا عليه الرحمة.

يقول الحكيم المتأله الشيخ جوادي آملي حفظه الله في هذا الصدد ما نصه: "إن الحكمة المتعالية وجدت كمالها في الجمع بين الأدلة البرهان والعرفان والقرآن وأنه لا يوجد أي اختلاف بينها وإنما هي في توافق وانسجام تام، نعم في مقام المقايسة الداخلية بين هذه الطرق الثلاث فإن

---

(١) العرشية لملا صدرا ص٢٨٥.

المحورية والأصالة هي للقرآن والآخران يدوران حوله لا ينفكان عنه"[١].

العقل والشهود:

أن علاقة العقل بالمكاشفة عند ملا صدرا قدس سره فهي علاقة طولية بمعنى أن للعقل حدّ ينتهي إليه ثم يأتي دور المكاشفة والشهود فليسا هما في عرض واحد لكي يقع التصادم بينهما، وهذا معنى قول العرفاء الشامخين: "أن المكاشفة طور وراء طور العقل".

قال صدر المتألهين قدس سره: "لا يجوز في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته نعم يجوز أن يظهر في طور الولاية مايقصر العقل عنه، بمعنى أنه لايدرك بمجرد العقل ومن لم يفرق بين ما يحيله العقل وبين مالا يناله فهو أخسُّ من أن يخاطب فليترك وجهله"[٢].

ومراد الملا صدرا من طور الولاية هو المكاشفة والشهود.

فتحصَّل مما تقدم أن مدرسة الحكمة المتعالية تعتمد هذه العناصر الثلاثة ـ أي القرآن والبرهان والعرفان ـ في وصولها إلى اقتناص الحقائق ومعرفتها، وهذا ما نسميه بمقام الثبوت.

المقام الثاني: مقام الإثبات:

لا يخفى على المتتبع في دراسات ومؤلفات ملا صدرا قدس سره وممن نهج منهجه وأخذ بمدرسته أنه اعتمد المنهج والإسلوب العقلي في إثبات

---

(١) رحيق مختوم شرح الأسفار الأربعة العقلية ج١ ص١٧ للشيخ جوادي آملي.

(٢) الرسائل للملا صدرا ص٢٨٣.

هذه المدعيات للآخرين.

ومن ثمَّ تجلت عبقرية ملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ حيث استطاع أن يحقق إنجازاً ضخماً على مستوى القواعد والمباني الفلسفية حيث أقام هذا الإنجاز الضخم على أسس برهانية من شأنها أن تعطي قواعد وأُطر محكمة تفسر لنا علاقة عالم الإمكان بالله سبحانه وتعالى.

يقول الملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ في هذا الصدد: "وأما نحن فلا نعتمد كل الإعتماد على ما لا برهان عليه قطعيا ولا نذكره في كتبنا الحكمية"[(١)].

وقال أيضاًقُدِّسَ سِرُّهُ: "ولا يُحمل كلامنا على مجرد الكشف والذوق أو تقليد الشريعة من غير ممارسة الحجج والبراهين والتزام القوانين فإن مجرد الكشف غير كافٍ في السلوك من غير برهان كما أن مجرد البحث من غير مكاشفة نقصان عظيم في السير والله المعين"[(٢)].

إذن نجد أن الملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ أسس منظومة فلسفية متقنة تكون قادرة على إثبات كل مدعيات ومبتنيات هذه المدرسة وفق المنهج البرهاني، بل نقول: إن هذه المدرسة حققت نجاحاً منقطع النظير في هذا المقام من البحث بنحو لا يمكن إقفال هذه النجاحات في مجالات عديدة.

يقول أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله في هذا الصدد: "لا ريب أن النجاح الذي حققه الشيرازي في هذا المجال كان كبيراً

---

(١) شرح أصول الكافي ص٣٧٠ لصدر المتألهين.

(٢)الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة ج٧ ص٣٢٦.

جداً بنحو لا يمكن أن يقاس إلى التجارب التي سبقته بالأخص في المدرسة الإشراقية التي حاولت ذلك ولم توفق له مع أن عناصر الإتجاهين ومنابعهما كانت متقاربة بل مشتركة، وربما كان هذا هو سر نجاح هذه المدرسة وتحولها إلى إطار فكري وفلسفي ظلّ سائداً لقرون متعددة إلى يومنا هذا.

في هذا المقام من البحث تجلت عبقرية صدر المتألهين حيث استطاع أن يحقق إنجازاً ضخماً على مستوى القواعد والمباني الفلسفية، أدت إلى بناء نظام عقلي جديد قائم على أسس برهانية يمكنها أن تفسر العالم الإمكاني وعلاقته بمبدأه المتعالي"[١].

فتحصّل مما تقدم أن ملا صدرا قُدِّسَ سِرُّهُ في مقام الإثبات اعتمد القواعد العقلية في تأسيس منظومته الفلسفية والتي تعتبر من أعظم الفلسفات في الفكر البشري حيث لازالت حاكمة من ذلك الوقت وإلى يومنا هذا.

بعض إبداعات هذه المدرسة:

أبدعت هذه المدرسة جملة من القواعد المعرفية سواء في الأمور العامة كالإعتقاد بأصالة الوجود واعتبارية الماهية وإثبات الإمكان الفقري في قبال الإمكان الماهوي وإثبات الحركة الجوهرية في العالم المادي وما شاكل ذلك من الأمور المرتبطة بالأمور العامة في الفلسفة الإسلامية.

وكذا ما يتعلق بالمبدأ من خلال القاعدة الفلسفية التي اعتمدها في

---

(١) مدخل إلى مناهج المعرفة ص٢٧٧ للعلامة السيد كمال الحيدري.

علم الحق تعالى وهي بسيط الحقيقة كل الأشياء وليس بشيء منها وإثبات الحق تعالى عن طريق برهان الصدّيقين بتقريب خاص له.

هذا مضافاً إلى ما يتعلق بعلم النفس الفلسفي من خلال إثبات اتحاد العقل والعاقل والمعقول، وإثبات أن النفس جسمانية الحدوث وروحانية البقاء، وكذا ما يتعلق بالمعاد من خلال بطلان التناسخ المُلْكِي وإثبات المعاد الجسماني وما إلى ذلك من مسائل.

المحور الثالث: مدى نجاح هذه المدرسة:

إن النجاح الذي حققه الملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ كان نجاحاً باهراً وإنجازاً ضخماً حيث استطاع أن يحقق على مستوى مقام الإثبات أُمنية إنسانية تتمثل ببناء صرح عقلي برهاني حيث "أن الشيرازي كان أكثر الفلاسفة توفيقاً ونجاحاً في عملية التطبيق ما بين القواعد العقلية والمعطيات الدينية، فجاءت رؤيته الكونية في المجالات التي خاض الحديث فيها قريبة جداً بل متطابقة في كثير من الأحيان مع الأصول الأساسية للدين الإسلامي، ويرجع السبب لهذا النجاح إلى تنوع المصادر والمنابع التي اعتمدها صدر المتألهين لاكتشاف تلك الرؤية"(١).

ولكن مع ذلك لا يعني أنه وصل الغاية في هذا المعنى بل لازال الطريق طويلاً في عالم الإبداع والإنتاج.

يقول ملا صدراقُدِّسَ سِرُّهُ في هذا الصدد: "وإني أيضا لا أزعم أني قد

---

(١) المصدر السابق ص٢٨٤.

بلغت الغاية فيما أوردته كلاً، فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت ولا تحصى ومعارف الحق لا تتقيد بما رسمت ولا تحوى لأن الحق أوسع من أن يحيط به عقل وحدّ، وأعظم من يحصره عقد دون عقد"[١].

سبب تسمية هذه المدرسة بالحكمة المتعالية:

قد أشار الملا صدرا قدس سره إلى أنه سمى كتابه الأسفار والذي يعد الأم لجميع مؤلفاته بالحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة وسبب ذلك أنه لاحظ ما عليه العرفاء في مسألة تقسيم الأسفار إلى أربعة.

قال في هذا الصدد: "واعلم أن للسلاّك من العرفاء و الأولياء أسفاراً أربعة:

أحدها: السفر من الخلق إلى الحق.

وثانيها: السفر بالحق في الحق.

السفر الثالث: يقابل الأول، لأنه من الحق إلى الخلق بالحق.

والسفر الرابع: يقابل الثاني من وجه لأنه بالحق في الخلق.

ورتبت كتابي هذا على طبق حركاتهم في الأنوار والآثار على أربعة أسفار وسميته بالحكمة المتعالية في الأسفار العقلية"[٢].

ولكن ينبغي الإشارة إلى أن اصطلاح الحكمة المتعالية ورد في

---

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة ج١ ص١٠.

(٢) المصدر السابق ص١٣.

كلمات ابن سيناقُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه الإشارات حيث قال: ثم إن كان ما يلوحه ضرب من النظر مستوراً إلا على الراسخين في الحكمة المتعالية".

وقال المحقق الطوسيقُدِّسَ سِرُّهُ في شرح هذه العبارة: "وإنما جعل هذه المسألة من الحكمة المتعالية لأن حكمة المشائين حكمة بحثية صرفة وهذه وأمثالها إنما تتم مع البحث والنظر بالكشف والذوق، فالحكمة المشتملة عليها متعالية بالقياس إلى الأول"[1].

فيظهر مما تقدم أن السبب في تسميتها بالحكمة المتعالية لتعاليها على الحكمة البحثية الصرفة، وهذه مسألة أوضحناها في المقام الأول أي مقام الثبوت عند الحديث عن كيفية اقتناص الحقائق في هذه المدرسة.

*تنبيه مهم:

تجدر الإشارة إلى أن المدارس الباحثة عن المعرفة غير منحصرة في هذه الخمس بل توجد مدارس أخرى مثل مدرسة المفسرين والتي ترجع إلى ظواهر القرآن لاستخراج القواعد في المعارف الإلهية.

ومنها مدرسة المحدثين والتي تعتمد الأحاديث والروايات في ذلك.

ومنها مدرسة التفكيك التي تحاول التفكيك بين العقل المحدود والعقل اللامحدود وهو الوحي والإعتماد أساسا على القرآن.

وغيرها من المدارس التي تعنون بعنوان أو بآخر، فهذه المدارس إنما تريد ابتكار أهم الطرق وأفضل المناهج لكي تصل إلى المعارف

---

(١) الإشارات والتنبيهات ج١ ص٤٠١ للشيخ ابن سينا.

الإلهية وبغض النظر عن مدى نجاحها وعدمه.

وما ينبغي الإلتفات إليه إلى أن الباحث في هذه المدارس لا بد أن يكون صاحب أفق واسع للإلمام بكل نتائج ومعطيات هذه المدارس لكي يصل إلى أرقى ما يمكن الوصول إليه في باب المعارف الإلهية، وهذا يعني ضرورة التبحر في الآيات القرآنية والروايات الشريفة والكلمات النورية للنبي وأهل بيته سلام الله عليهم أجمعين الواردة في باب المعارف لكي يستطيع وبكل آلياته العلمية أن يستنتج قواعد معرفية غفلت عنها هذه المدارس لكونها في النتيجة مجهود فكري بشري وإن اتكأ بعضها هنا وهناك على ما ذكره الوحي كما نجد ذلك في بعض المدارس التي تقدم ذكرها وهذه مسؤولية عظيمة ينبغي القيام بها لتطوير البحث المعارفي وتوسعة الأفق العقائدي لكل المعتقدين بالحقيقة لكونها غير متناهية لعدم تناهي المطلوب معرفته وهو الحق سبحانه وتعالى وعدم حبس الباحث نفسه في باب المعارف في أُطُر مدرسية بل عليه أن يتكامل ويتطور كما نجد ذلك جليا في نفس هذه المدارس التي تعتبر متطورة عن سابقتها.

وختاماً لهذا الفصل نشير إلى بعض من الكلمات النورية الواردة عن المعصومين عليهم السلام في ضرورة الرجوع إلى العترة المعصومة عليهم السلام في أخذ المعارف الحقيقية والذين هم تراجمة القرآن ومعدن العلم والحكمة والباب المؤتى منه رزقنا الله السعي على منهجهم والأخذ بمعارفهم والإستقامة في طريقهم لكونهم الصراط المستقيم.

قال الإمام الباقر عليه السلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «شرقا وغربا

فلا تجدان علماً صحيحاً إلا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت»[(١)].

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال لي: إن الحكم بن عتيبة ممن قال الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ فليشرق الحكم وليغرب أما والله لا يصيب العلم إلا من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل عليه السلام»[(٢)].

وعن عبد الله بن سليمان قال سمعت أبا جعفر عليه السلام وعنده رجل من أهل البصرة يقال له عثمان الأعمى وهو يقول: «إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم يؤذى ريح بطونهم أهل النار فقال أبو جعفر عليه السلام: «فهلك إذاً مؤمن آل فرعون وما زال العلم مكتوما منذ بعث الله نوحاً عليه السلام فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فوالله ما يوجد العلم إلا ههنا»[(٣)].

وسوف يأتي إن شاء الله في الفصل اللاحق الحديث عن أهمية روايات المعارف الإلهية الواردة عن المعصومين عليهم السلام فانتظر.

فهذه المدارس وما ينبغي من الإبداع والتطوير في مقولاتها وقواعدها إنما هي آليات ووسائل للوصول إلى معرفة الحقائق والحقيقة وأن الحقيقة وكل الحقيقة في متن القرآن ومتن كلماتهم عليهم السلام.

رزقنا الله وإياكم لفهم ذلك إنه سميع الدعاء. وهو الغاية.

---

(١) بصائر الدرجات في مناقب آل محمد للصفار ص٣٠ ح٤.

(٢) المصدر السابق ص١٩ ح٢.

(٣) المصدر السابق ح١.

الفصل الخامس

المعارف الإلهية في الكتاب والعترة عليهم السلام

* المقام الأول: سند الحديث ومتنه

* المقام الثاني: فقه الحديث معطيات ودلائل

* المعارف في القرآن

* المعارف في كلام العترة عليهم السلام

* جدلية التعامل مع روايات المعارف

حديث الثقلين سندا ودلالة:

إن الحديث عن حديث الثقلين باتَ من الأهمية بمكان وذلك لكونه حديثٌ يضع الأمة أمام بوابة الهداية والعاصمية من الضلال، فهو الوصية التي تركها النبي الخاتمﷺ لأمته ولكي تتجلى أهمية هذا الحديث نستعرضه من خلال مقامين:

المقام الأول: سند الحديث ومتنه:

عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول اللهﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن فقال: «كأني قد دعيت فأجبت إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[1].

(١) مستدرك الحاكم ح٤٥٧٦ قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله).

وفي مسند أحمد بن حنبل قال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود مابين السماء والأرض ـ أو مابين السماء والأرض ـ وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»(١).

إن هذا الحديث الشريف متواتر مقطوع بصدوره عن النبي الخاتم صلى الله عليه وآله بل نقول: أن هذا الحديث هو أكثر حديث رواه الصحابة والتابعون وله من الطرق ما وردت عن نَيِّفٍ وعشرين صحابياً وهذا ما صرَّح به ابن حجر الهيتمي المكي حيث قال: «ثم اعلم أن لحديث التمسك بذلك الحديث طرقاً كثيرة وردت عن نَيِّف وعشرين صحابياً، ومر له طرق مبسوطة في حادي عشر الشبه، وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك في حجة الوداع بعرفة، وفي رواية أخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة النبوية بأصحابه، وفي أخرى أنه قال ذلك في غدير خم، وفي أخرى أنه قاله لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف ..، ولا تنافي، إذا لا تمانع أنه كرر عليهم في تلك المواطن وغيرها، اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة»(٢).

وقال أيضاً: «ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً لا حاجة لنا إلى بسطها»(٣).

---

(١) مسند أحمد ج٥ ص ١٨٢.

(٢) الصواعق المحرقة ج٢ ص ٤٤٠ لابن حجر الهيتمي ـ تحقيق عبدالرحمن التركي و كامل الخرَّاط

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥٣.

وكذلك صححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح للتبريزي قائلاً: «رواه مسلم صحيحاً»[(١)].

وقد نقل الحجة الثبت والمحدث الكبير السيد هاشم البحراني قدس سره في كتابه غاية المرام في الباب الخامس عشر تسعة وثلاثين حديثاً مع ذكر أسانيدها[(٢)].

فتحصل أن هذا الحديث متواتر عند الفريقين.

المقام الثاني: فقه الحديث معطيات ودلائل:

إن هذا الحديث يشير إلى مجموعة من الحقائق المعارفية المهمة جداً والتي تحتاج إلى دراسات موسعة لاستكناه دلالاته واكتشاف حقائقه واستخراج كنوزه، ولكن نشير إلى بعضها على نحو الإختصار.

أولاً: إن هذا الحديث الشريف يشير إلى أن سعادة الإنسان ونجاته من الضلال والضياع على كافة المستويات سواء منها الضلال العقائدي والمعارفي للإنسان أو الضلال السلوكي والتربوي والسياسي وغير ذلك لا يكون إلا من خلال التمسك بكلا هذين الثقلين - كتاب الله والعترة المعصومة عليهم السلام - فعليه لا يمكن أن نتمسك بأحدهما دون الآخر فلا مقولة حسبنا كتاب الله منجية لأنه في النتيجة هو ترك لكتاب الله وللعترة عليهم السلام

(١) مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ج٣ ص ٣٣٨ تحقيق ناصر الدين الألباني.

(٢) غاية المرام تأليف السيد هاشم البحراني ج١ ص٢٩٨.

وكذا من يقول حسبنا العترة فإنه ترك للعترة والقرآن، فإن ترك أحدهما يعني تركهما جميعا فيكون قابعا في دائرة الضلال بكل مستوياته.

وهذه الحقيقة أقرَّ بها جملة من علماء العامة كالمناوي في فيض القدير حيث قال: «إني تارك»: تلويح بل تصريح بأنهما كتوأمين خلفهما ووصى أمته بحسن معاملتهما وإيثار حقهما على أنفسهم والإستمساك بهما في الدين[(١)].

وقال التفتازاني في شرح المقاصد ما نصه: "ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام قرنهم بكتاب الله تعالى في كون التمسك بهما منقذ عن الضلالة ولا معنى للتمسك بالكتاب إلا الأخذ بما فيه من العلم والهداية فكذا في العترة"[(٢)].

ثانياً: إن من الدلالات التي يشير إليها هذا الحديث الشريف وبشكل مكثف هو العصمة المطلقة للكتاب والعترة لأن القرآن معصوم بلاشك لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فكذلك الثقل الآخر المقترن به فإنه معصوم بعصمة مطلقة، وذلك للتلازم الحقيقي والوجودي القائم بين القرآن والعترة وعدم الإنفكاك، لأن وقوع الخلل والخطأ والإشتباه في جانب العترة مؤد إلى الإفتراق وهذا ما ينفيه هذا الحديث بقوله لن يفترقا ولن كما هو معلوم في اللغة أنها تفيد التأبيد بل أن هذا التأبيد دائم حتى في العوالم الآتية كما قال الحديث (حتى يردا عليَّ لحوض) والحوض يكون في العالم

---

(١) فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي ج٣ ص٢٠.

(٢) شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ج٢ ص٣٠٣.

الآخر وبحث العصمة بحث مهم يُبحث عنه في بحث الإمامة الإلهية فراجع.

وهذه الحقيقة لم تختص بما فهمه علماء أهل البيت عليهم السلام من كون هذا الحديث دليل قطعي على عصمة العترة عليهم السلام بل نجد هذه الحقيقة عند جملة من الباحثين من إخواننا أهل السنة المعاصرين أمثال الأستاذ توفيق أبو علم المصري حيث قال: (...إن النبي صلى الله عليه وآله قرنهم بكتاب الله العزيز، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] فلا يفترق أحدهما عن الآخر، ومن الطبيعي أن صدور أية مخالفة لأحكام الدين تعد افتراقاً عن الكتاب العزيز، وقد صرَّح بذلك النبي صلى الله عليه وآله بعدم افتراقهما (حتى يردا عليَّ الحوض)، فدلالته على العصمة ظاهرة جلية، وقد كرر النبي هذا الحديث في مواقف كثيرة، لأنه يهدف إلى صيانه الأمة والمحافظة على استقامهتا وعدم انحرافها في المجالات العقائدية وغيرها، إن تمسكت بأهل البيت ولم تتقدم عليهم، ولم تتأخر عنهم، ولو كان الخطأ يقع منهم لما صحَّ الأمر بالتمسك بهم، الذي هو جعل أقوالهم وأفعالهم حجة.

وأن المتمسك بهم لا يضل كما لا يضل المتمسك بالقرآن، ولو وقع منهم الذنب أو الخطأ لكان المتسمك بهم يضل، وفي اتباعهم الهدى والنور كما في القرآن، ولو لم يكونوا معصومين لكان في اتباعهم الضلال، وأنهم حبل ممدود من السماء إلى الأرض كالقرآن، وهو كناية عن أنهم واسطة

(١) فصلت ٤٢.

بين الله تعالى وبين خلقه، وأن أقوالهم عن الله تعالى، ولو لم يكونوا معصومين لم يكونوا كذلك، وأنهم لن يفارقوا القرآن ولن يفارقهم مدة عمر الدنيا، ولو أخطأوا أو أذنبوا لفارقوا القرآن وفارقهم"[١].

ثالثاً: إن هذا الحديث الشريف يشير وبدلالة واضحة إلى المرجعية الدينية سواء المرتبط بالأمور العقائدية والمعارفية أم بالأمور الفقهية الفرعية وما إلى ذلك، فهو يثبت هذه المرجعية المطلقة والتي تنفي في القبال أية مرجعية أخرى فهذا الحديث يضع جميع المسلمين أمام هذه المسؤولية الخطيرة وهي أن الدين وهو مجموع المعارف العقدية والفقهية الفرعية لا يؤخذ إلا من خلال بوابة القرآن والعترة عليهم السلام، ولذا جاءت التوصيات الكثيرة من النبي صلى الله عليه وآله على هذه الحقيقة فمثلاً قوله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها»[٢] وكذا ورد عنه صلى الله عليه وآله: «أنا

(١) اهل البيت للكاتب توفيق أبو علم المصري ص ٧٥.

(٢) عيون أخبار الرضا للصدوق ج٢ ص ٢١٠، تحف العقول عن آل الرسول لابن شعبة الحراني ص ٤٢٥ باب كلامه عليه السلام في الإصطفاء فيما ورد عن علي بن موسى الرضا عليه السلام.

قال أستاذ الحكماء المتألهين صدر الدين الشيرازي قدس سره: وشاهد ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ولا شك أن المقصود أنه عليه السلام هو المنبع الذي يفيض عنه العلوم القرآنية والأسرار الحكمية التي اشتمل عليها القرآن الحكيم والسنة الكريمة - إلى أن قال -: فالمشهور على ألسنة الجمهور وفي الكتب مسطور أن جميع فرق الإسلام انتهوا في علومهم إليه. أما المتكلمون فمعظمهم المعتزلة وانتسابهم إليه ظاهر فإن أكثر أصولهم مأخوذة من ظواهر كلامه في التوحيد والعدل وأيضا فإنهم ينتسبون إلى مشايخهم كالحسن البصري وواصل بن عطاء وكانوا منتسبين إلى علي عليه السلام ومتلقفين عنه العلوم، وأما الأشعرية واستنادهم إلى أبي الحسن الأشعري وقد كان تلميذا لأبي علي الجبائي وهو من مشايخ المعتزلة، وأما الشيعة فانتسابهم إليه

←

مدينة الحكمة - وهي الجنة - وأنت يا علي بابها، فكيف يهتدي المهتدي إلى الجنة، ولا يهتدى إليها إلا من بابها»[1]، هذا مضافاً إلى روايات عديدة تشير إلى أن الطريق المستقيم والنجاة الحقيقية والسعادة في الدارين لا تكون إلا عبر بوابة القرآن والعترة المعصومة عليهم السلام.

هذا مضافاً إلى أن هذا الحديث يشير إلى كامل المرجعية لأهل البيت عليهم السلام كما في المرجعية السياسية والتي هي متفرعة عن المرجعية الدينية وكما نعتقد أنهما من شؤون الإمامة الإلهية ولذا في الحديث دلالة على معنى الوصية أيضاً، ومن ثَمَّ أشارت بعض الروايات إلى أنهما خليفتان كما ذكرنا هذا المتن في أول البحث وفيه من الدلالة على المرجعية المطلقة والعامة والإمامة في كل المسارات سواء المسار على مستوى المرجعية الدينية أم المرجعية السياسية، فعبارة خليفتين تتضمن حقيقة

ظاهر، وأما الخوارج فهم وإن كانوا في غاية البعد عنه إلا أنهم ينتسبون إلى مشايخهم وكانوا تلامذة علي، وأما الفقهاء فمرجع انتساب فقه الجميع إليه كما هو مفصل في الكتب ككتاب الأربعين للفخر الرازي. وكفى في ذلك شاهدا قول النبي صلى الله عليه وآله: «أقضاكم علي» والأقضى لا بد أن يكون أفقه وأعلم بالأصول والفروع، وأما الفصحاء فالجميع بمنزلة عياله في الفصاحة من حيث يملؤون أوعية أذهانهم من ألفاظه ويضمنونها خطبهم ورسائلهم فيكون بمنزلة درر العقود. وأما النحويون فأول واضع النحو أبو الأسود الدؤلي وكان ذلك بإرشاده، وأما علماء الصوفية وأرباب العرفان فنسبتهم إليه في تصفية الباطن وكيفية سلوكهم العلمي والعملي إلى الله تعالى ظاهرة الإنتهاء إليه. نقلاً عن تعليقات العارف الكبير الميرزا الشعراني - شرح اصول الكافي للمولى المازندراني ج٤ باب جوامع التوحيد ص١٢٨.

(١) الأمالي للصدوق باب نهي عمر لرجل وقع في علي عليه السلام ح١١ و روضة الواعظين للفتّال النيسابوري باب ماجرى في غدير خم ص٩٧ و الأمالي للطوسي ص ٤٣١.

انحصار الخلافة والإمامة في القرآن والعترة وهي واضحة الدلالة على نفي المرجعيات الأخرى سواء الدينية أم السياسية التي طرحت نفسها في قبال أئمة أهل البيت عليهم السلام كما هو واضح في التاريخ.

وعلى هذا الأساس لابد أن نسوِّق ونروِّج لحديث «أنهما خليفتان» في الأروقة العلمية وغيرها لحفظ هذه الدلالة من الضياع والإندثار.

رابعاً: إن من دلالات هذا الحديث الشريف هو ضرورة وجود عِدلٍ مع وجود القرآن فكما أن القرآن موجود معنا وفي كل زمان فكذلك يوجد ذلك العدل في كل زمان، ومن ثَمَّ يدل هذا الحديث دلالة واضحة على أن الإمامة الإلهية دائمة غير منقطعة وهذه الحقيقة أيضاً ليست منحصرة فيما تتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام بل نجد تلك الحقيقة مذكورا في كلام أبناء العامة كما قال المناوي في فيض القدير ما نصه: تنبيه: "قال الشريف: هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلاً للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كل زمن إلى قيام الساعة، حتى يتوجه الحث المذكور إلى التمسك به كما أن الكتاب كذلك، فلذلك كانوا أمانا لأهل الأرض فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض"(١).

وفي هذا الصدد أيضاً يقول ابن حجر في الصواعق المحرقة: وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً

---

(١) فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي ج٣ ص٢٠.

لأهل الأرض[١].

وعلى المسار نفسه قال ابن أبي الحديد: "كيلا لا يخلو الزمان من هو مهيمن لله على عباده ومسيطر عليهم وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية إلا أن أصحابنا يحملونه على أن المراد به الأبدال"[٢].

وهذه الحقيقة واضحة في روايتنا المستفيضة أي عدم خلو الأرض من الحجة ومن تلك الروايات:

- فعن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[٣].

- عن أبي جعفر عليه السلام قال: «والله ما ترك أرضا منذ قبض آدم عليه السلام إلا وفيها إمام يهتدى به إلى الله وهو حجته على عباده ولا تبقى الأرض بغير حجة لله على عباده»[٤].

- وقول الإمام أبي الحسن عليه السلام: «إن الأرض لا تخلو من حجة»[٥].

وحقيقة عدم خلو الأرض من الحجة موجودة في كتب العامة وليست هي من متفردات مدرسة أهل البيت عليهم السلام حيث جاء هذا المضمون في كتاب المعيار والموازنة ص٨١ للإسكافي المعتزلي وفي عيون الأخبار

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ص ١٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٨ ص ٣٥١.

(٣) أصول الكافي ج١ ح ٤٦٠.

(٤) المصدر السابق ج١ ح٤٥٨.

(٥) المصدر السابق ج١ ح٤٥٩.

ص٧ لابن قتيبة والعقد الفريد ج١ ص٢٦٥ لعبد ربه لأندلسي وفتح الباري في شرح صحيح البخاري ج٦ ص٢٧٠ للحاكم النيسابوري.

خامساً: إن هذا الحديث الشريف ورد مضمونه في عدد من الآيات القرآنية الدالة على ضرورة الأخذ بالعترة عليهم السلام في طريق الهداية وعدم الإكتفاء بالكتاب ومن تلك الآيات:

- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[(١)].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[(٢)].

-وقال تعالى: ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[(٣)].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[(٤)].

- وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[(٥)].

---

(١) آل عمران ٧.

(٢) الأحزاب ٣٣.

(٣) البقرة ١٤٣.

(٤) النمل ٤٠.

(٥) العنكبوت ٤٩.

- وقال تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾(١).

وغيرها من الآيات الدالة على أن الثقل الثاني وهم العترة المعصومة عليهم السلام هم الواقفون كل الحقائق لأن القرآن فيه تبيان كل شئ، فمن أراد أن يفهم القرآن ويصل إلى الحقائق بحسب سعته الوجودية لابد أن يتمسك بالعترة عليهم السلام ومعنى التمسك هنا ليس المعنى الظاهري بل هو الإعتقاد بهم والأخذ بآثارهم وذلك لكونهم الراسخون في العلم، وذلك:

١ـ إن هذه الآيات وغيرها مما يجده المتتبع في القرآن الكريم تشير إلى المعية والملازمة المطلقة بين هذين الثقلين ـ القرآن والعترة المعصومة عليهم السلام ـ.

٢ـ إن هذه الآيات وغيرها تشير إلى أن للقرآن حقائق غيبية وجودية لا يطلع عليها إلا العترة المعصومة عليهم السلام لأن هذا الإطلاع يتوقف على العصمة المطلقة والتي هي ثابتة لهم علماً وعملاً بنص حديث الثقلين كما تقدم.

٣ـ إن هذه الآيات وغيرها تؤكد لنا حقيقة أن جميع الأوصاف الواردة في حق القرآن مثل كونه نور وهدى وفرقان وتبيان لكل شئ وغيرها من الأوصاف كلها متحققة في وجود العترة المعصومة ومن ثَمَّ نفهم كونهم مع القرآن الناطق وأنهم القرآن الناطق كما في قول النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) الواقعة ٧٧ و٧٨ و٧٩.

«علي مع القرآن والقرآن مع علي»[١] وكذل قول الإمام علي عليه السلام في حق نفسه: «أنا القرآن الناطق»[٢] وما إلى ذلك من الروايات.

سادساً: قد ورد مضمون حديث الثقلين في روايات عديدة رواها الطرفان من الشيعة والسنة تشير إلى ضرورة كون العترة عليهم السلام أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء وكونهم سفينة النجاة وتشبيههم بسفينة نوح عليه السلام وأنهم يؤخذون دور النبي صلى الله عليه وآله من كونه أمان فهم أمان من بعده ، فمن تلك النصوص:

- عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت أتاها ما يوعدون وأنا أمان لأصحابي ما كنت فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون و أهل بيتي أمان لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يوعدون»[٣].

قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

- وكذا قوله صلى الله عليه وآله: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[٤].

---

(١) مستدرك الحاكم ح٤٦٢٨ وفيه زيادة لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض قال عنه : (حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وغيرها من مصادر العامة التي ذكرت هذا الحديث وبألفاظ مختلفة.

(٢) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ج١ ص٢٠٥ في باب غزارة علمه .

(٣)مستدرك الحاكم ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الزخرف ح٣٦٧٦.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده في فضائل الحسن والحسين حديث رقم ٤٥٢.

وغيرها من الروايات الدالة على حقيقة ان النجاة من الضلال سواء العقائدي منه أم السلوكي لا يكون إلا بركوب سفينة النجاة وهم أهل بيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم أجمعين، فهذا هو أحد مضامين هذا الحديث.

ولهذا الحديث الشريف دلالات كثيرة وعظيمة اقتصرنا على بعضها في هذا البحث.

وعلى هدي ما تقدم من الدلالات العظيمة في هذا الحديث الشريف والذي استعرضنا بعضها مراعين الإختصار، نشير إلى أهمية البحث المعارفي في القرآن والعترة المعصومة عليهم السلام .

المعارف الإلهية في القرآن والعترة:

المعارف في القرآن:

إن المتتبع في الآيات القرآنية الكريمة وفي الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام يجد ثراءاً واضحاً ومساحةً كبيرةً مترامية الأطراف في الإشارة إلى المسائل العقائدية والتركيز المنقطع النظير على أصول الدين وما يتفرع عليها من مسائل جزئية حتى في أدق الأمور، والتي ينبغي على الإنسان الإهتمام بها وعدم الغفلة عنها.

فعندما نأتي إلى القرآن الكريم نجد أن أكثر الحديث فيه عن الأمور العقائدية والمعارفية فآيات التوحيد بأقسامه من التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي وما يتشعب من التوحيد الأفعالي من معارف مرتبطة

بالنبوة والإمامة والمعاد وغير ذلك.

قال جملة من العلماء: إن القرآن الكريم من أوله إلى آخره في توحيد الله سبحانه وتعالى ولكن يتجلى التوحيد عبر مراتبه وأقسامه.

التوحيد وسعادة الإنسان:

إن للتوحيد دور في سعادة الإنسان ووصوله إلى الكمال المنشود.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده»[١]، فهذه الخطبة الشريفة والتي تحتاج إلى دراسة مستفيضة تشير إلى أن معرفة الله مرتبطة بالتوحيد وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام التي تدل على أن معرفة الله هي توحيده.

قال الإمام الرضا عليه السلام: «أول عبادة الله معرفته وأصل معرفة الله توحيده ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه ...»[٢].

هذه الرواية الشريفة والكلمة النورية وغيرها تكشف لنا عن أهمية التوحيد وخطورته في مسيرة الإنسان حيث أشارت إلى أن أول الدين معرفته فهذا يعني أن التوحيد أساس العقيدة وأول أصول الدين والتي ينبغي على الإنسان الإعتناء به ويعقد عليه قلبه.

---

(١) شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج١ خطبة ١ ص١٣.

(٢) التوحيد للصدوق ص٣٦.

التوحيد أساس المعارف الإلهية:

إن التوحيد هو الأساس والمنطلق لكل المنظومة الإعتقادية وكما أشرنا أن للتوحيد تجليات فيتجلى على مسار الذات وعلى مسار الصفات وعلى مسار الأفعال، فيكون عندنا توحيدٌ ذاتي وتوحيد صفاتي وتوحيد أفعالي، وأن التوحيد الأفعالي يتكئ على التوحيد الصفاتي والأخير بدوره يتكئ على التوحيد الذاتي.

ومن التوحيد الأفعالي ينبثق العدل الإلهي والنبوة والإمامة والمعاد وغيرها، لكونها تجليات له بل أن الأخلاق والأعمال كلها تنبثق من التوحيد الأفعالي.

وذلك لكون التشريع وسنِّ القوانين من شؤون الله تعالى وبالتالي الحاكمية المطلقة له تعالى على عباده، وهذا معنى سريان التوحيد الإلهي في المنظومة العقائدية والمنظومة السلوكية.

قال العلامة الطباطبائي قُدِّسَ سِرُّهُ في هذا الصدد ما نصه: "فتوحيده تعالى بما يليق بساحة عزه وكبريائه مثلا في مقام الإعتقاد هو إثبات أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، وفي مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا والتسليم والشجاعة والعفة والسخاء ونحو ذلك والإجتناب عن الصفات الرذيلة، وفي مقام الأعمال والأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة والورع عن محارم الله.

وإن شئت فقل: إن التوحيد الخالص يُوجِب في كلٍ من مراتب العقائد والأخلاق والأعمال ما يبينه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلاً من

هذه المراتب وكذلك أجزائها لا تتم من دون توحيد خالص"[1].

تجليات التوحيد في النبوة والإمامة والمعاد:

وعلى هدي ما تقدم نعرف معنى أن القرآن كله في التوحيد فعندما نتنقل في مراتب التوحيد نجد آيات النبوة وأحكام الأنبياء ومقاماتهم وقصصهم وكلامهم وما شاكل ذلك كثير لكون النبوة من تجليات التوحيد الأفعالي، وعلى المسار نفسه نجد الإمامة الإلهية ومقوماتها ووظائفها وما إلى ذلك.

ونفس الكلام المتقدم يتأتى في آيات المعاد والذي هو من الأصول الخطيرة جداً حيث نجد قرابة الألفين آية في القرآن عن المعاد كما يشير إلى ذلك بعض الباحثين والمحققين في الشأن القرآني، حيث توزعت هذه الآيات على أصل المعاد وذلك من خلال الحديث عن إمكانيته تارة وعن أن منكره لا برهان عنده وتارة أخرى عن ذكر بعض الظواهر المشابهة للمعاد والتي يلمسها الإنسان في دار الدنيا، وأيضا في الآيات إشارة إلى الأدلة العقلية على ضرورة المعاد كدليل الحكمة والعدالة وغيرها.

هذا مضافاً إلى الإشارة إلى عالم الآخرة من خلال انشعابه إلى الجنة والنار وما يحدث فيهما من نعيم وعذاب خالِدَين.

فهذه بلورة سريعة أحببنا الإشارة من خلالها إلى مدى إعتناء القرآن

---

(١) تفسير الميزان ج١٠ ص١٣.

بضرورة البحث المعارفي والتركيز على البعد العقائدي مما يؤكد لنا ضرورة دراسة مثل هذه الآيات الشريفة دراسة مستفيضة وبلورة الأُطُر المعرفية وما يتفرع عليها من أمور تفصيلية وعقائد جزئية.

المعارف في كلام العترة عليهم السلام:

إن كلام العترة المعصومة من النبي والصديقة الزهراء وأمير المؤمنين وسائر الأئمة عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم في البعد المعارفي والعقائدي من الكثرة بمكان كماً وكيفاً حيث لا يخفى على الباحث والمتتبع في تلك الثروة الهائلة والكنوز العظيمة من كلماتهم عليهم السلام، فإن المصادر الحديثية حيث يجد ذلك المخزون في أجلى وأروع صوره.

وإليك عزيزي القارئ جدولة سريعة لتلك المصادر التي حوت هذه الكنوز المعرفية والتي منها:

- نهج البلاغة والذي احتوى كلمات عالية المضامين في المعارف الإلهية من كلام سيد الموحدين أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام والذي جمع بعض خطبه الشريف الرضي قدس سره والحال أنه توجد خطب كثيرة مبثوثة في مصادر أخرى ينبغي الإحاطة بها وعدم الإكتفاء بما اختاره الشريف الرضي.

- الصحيفة السجادية أو زبور آل محمد صلى الله عليه وآله للإمام زين العابدين عليه السلام حيث احتوت هذه الصحيفة فتوحات معرفية وحلولاً لأهم المسائل العقائدية فينبغي على الباحث عدم الغفلة عنها.

- كتب الأدعية والزيارات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام حيث تحتوي على فتوحات معرفية عظيمة.

- كتاب بصائر الدرجات في مناقب آل محمد عليهم السلام للثقة الجليل المحدث النبيل شيخ القميين وسند المحدثين أبي جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار قدس سره أدرك أبا محمد الحسن العسكري عليه السلام.

- كتاب الكافي ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني قدس سره.

- التوحيد لرئيس المحدثين أبي جعفر الصدوق قدس سره، ومن كتبه:

- إكمال الدين وتمام النعمة

- عيون أخبار الرضا عليه السلام.

- معاني الأخبار.

- علل الشرايع.

- الخصال، وغيرها.

- الإختصاص والإرشاد لفخر الشيعة أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المفيد قدس سره.

- كتاب الغيبة لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي قدس سره.

- كتاب تحف العقول للشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني رحمه الله.

- كتاب الوافي للمحدث الكبير الفيض الكاشاني قدس سره.

- بحار الأنوار لفخر الأمة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي قدس سره.

- عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال للمحدث الكبير الشيخ عبدالله البحراني قدس سره.

وغيرها من المجاميع الحديثية التي لم نذكرها؛ هذا مضافا إلى ضرورة قراءة سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسائر المعصومين عليهم السلام ليقف الباحث على قواعد معرفية كثيرة جداً ينبغي الإستفادة منها في إيجاد الأُطُر المعرفية والصيغ العقائدية.

فكل هذا يكشف لنا بجلا ووضوح مدى المساحة الكبيرة والمترامية في البحث العقدي والمعارفي وعظمة الثروة المعارفية سواء الواردة في القرآن الكريم أم في كلمات المعصومين عليهم السلام تضعنا أمام المسؤولية الكبرى والتي لا يمكن أن نتنصل منها، فيجب علينا الإعتناء بها ودراستها لكون هذه الثروة المعرفية تكفل لنا السعادة الحقيقية والتي لا تكون إلا عبر المعتقد الصحيح المستتبع للإستقامة في السلوك والعمل.

جدلية التعامل مع روايات المعارف:

نحاول في هذا المقام من البحث أن نشير إلى مجموعة من العلاجات العلمية لتساؤل يثور هنا وهناك ويردده البعض في كيفية التعاطي والتعامل مع الروايات الواردة في باب المعارف الإلهية.

ومفاد هذا التساؤل هو:

أن الروايات الواردة في باب المعارف والعقائد كثيرة وهذا أمر

واضح لا ريب فيه، ولكن من المعلوم أن المعتقدات خصوصاً المرتبطة بالأصول الأساسية مثل إثبات وجود الواجب وإثبات النبوة وما إلى ذلك لا يكون إلا من خلال الدليل العقلي، وكما أشرنا في الفصل السابق في المدارس المعرفية الخمس والتي اتفقت جميعها في المقام الثاني أي مقام الإثبات أن الإسلوب الصحيح في إثبات المعارف للآخرين لا يكون إلا بالإسلوب العقلي والإتكاء على القواعد العقلية دون القواعد النقلية.

هذا مضافاً إلى أن مدرسة المشاء وهي مدرسة عظيمة لها دور كبير لا ينكر في الساحة المعرفية أنها اعتمدت الإسلوب العقلي في كلا المقامين ـ الثبوت والإثبات ـ كما ألمعنا إلى ذلك.

بل تجدر إلى دخالة الإسلوب العقلي والمنهج البرهاني في مقام الثبوت كرقم أساس لا يُتجاوز في الكشف عن الحقائق وإن كان مُنْظَما إلى القرآن أو العرفان كما نجد ذلك في الحكمة المتعالية.

هذا مضافاً إلى أن الروايات الواردة في المعارف والتي هي قطعية الصدور قليلة جداً بالقياس مع روايات الآحاد ومن ثَمَّ نحتاج إلى التمحيص السندي وإخضاعها للقواعد الرجالية، ومن الوضوح بمكان أن أخبار الآحاد لا تؤدي إلا إلى الظن والظن لا يغني عن الحق شيئاً، وخصوصاً أن الكلام في المعتَقَد والذي لا يبنى إلا على اليقين لأن المعتَقَد هو عقد القلب على ذلك، فلا يعقد القلب على ما هو ظنٌّ.

بل يمكن القول أن هذا الكلام يجري في ظواهر الآيات القرآنية الواردة في باب المعارف لكون بعض آياته ظنية الدلالة وإن كان القرآن

الكريم قطعي الصدور.

فعلى ما تقدم من هذه الإشكالية كيف يمكننا الإتكاء على الآيات والروايات في باب المعارف والمعتقدات؟

إجابات في المقام:

ولدفع هذه الإشكالية نشير إلى مجموعة من الإجابات العلمية لتوضيح ما نرمي إليه من أهمية دور الآيات والروايات في البعد المعارفي وخطورتها على الساحة الفكرية.

الجواب الأول: العقل والنقل في أحضان الدين الإلهي:

إن الآيات الكريمة والروايات الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام في البعد المعارفي مليئة بالبراهين والإستدلالات العقلية ولذا يكون التركيز على هذه الآيات والروايات هو تركيز على التعقل وبناء المنظومة المعرفية على أساس العقل والبرهان وليس على التعبد أو الإتكاء على ما هو ظن أو ما شابه.

وهذه حقيقة واضحة خصوصا لدى المختصين في الحقل المعارفي وكيف أنهم يدركون مدى الغزارة العلمية والمتانة التنظيرية للإستدلال على المعارف الحقة من أسس الأصول الإعتقادية مروراً بالمسائل الجزئية في المجال العقدي ومن هنا نجد أن جملة من المحققين يشيرون إلى جوانبَ عدة في هذا الصدد.

ومن ثَمَّ انطلاقا مما يسميه بعض الأساتذة المحققين (بالحجية

العلمية) بمعنى أن لهذه الآيات وهذه الروايات حجية لكونها منطلقة من القواعد العقلية المسلَّمة بل يمكن القول أكثر وذلك:

أن في الآيات والروايات قواعد عقلية لم يلحظها العقل البشري الناقص في سيره وعبر قرون متمادية ومن ثَمَّ نجد التفاوت في مراحل سير الفرد البشري على مستوى الإستدلالات في المعارف الحقة فعلى سبيل المثال نجد مثلاً أن الشيخ الرئيس ابن سينا مع ما يمتلك من آليات علمية متقنة وقدرة حكمية لا تنكر إلا أنه لم يستطع إثبات المعاد الجسماني بالدليل العقلي حتى انبرى الحكيم المتأله صدر المتألهين قدس سره لإثبات ذلك بالدليل العقلي وهذا شاهدٌ على التكامل والتطور في السير المعرفي عبر القرون، حيث أن الشيخ الرئيس كان في القرن الرابع الهجري وملا صدرا كان في القرن العاشر الهجري تقريبا.

ومثال آخر على هذه الحقيقة ما نجده في مسألة (الرجعة) حيث نجد جملة من المحققين أقاموا الدليل العقلي على ضرورتها أمثال كلٍّ من الحكيم الفقيه السيد أبوالحسن الرفيعي قدس سره في مجموعة رسائل ومقالات (فارسي).

وكذلك العلامة الطباطبائي قدس سره في كتابه تفسير الميزان[1] وغيره من الأعلام حيث استفادوا ذلك من خلال الإشارات العقلية الواردة في الآيات والروايات.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٢ ص١٠٦ بحث الرجعة.

وذلك أن روايات الرجعة متواترة حيث نقل السيد نعمة الله الجزائري قدس سره أن الروايات فيها تصل إلى أكثر من ستة مائة حديث.

والحال أنها لم تبلور فيما مضى وهكذا في بعض المسائل الإعتقادية.

وهذا يكشف لنا أن العقل البشري ينمو ويتطور في اكتشافه للقواعده العقلية مع مرور الأيام والسنوات وتراكم بحوث العلماء والحكماء في هذا الصدد.

الوحدة الحقة الحقيقية نموذجاً:

تجدر الإشارة إلى أن أهم عامل وسبب في التطور الموجود هو مدى الإنفتاح الذي يحققه المتكلم والحكيم والعارف على التأمل في الآيات والروايات في البعد المعارفي، فمثلاً نجد أن هذه الحقيقة بارزة في أهم مسألة من مسائل التوحيد وهي مسألة الوحدة الحقة الحقيقية التي بلورها وأشاد بنيانها الحكيم المتأله صدر المتألهين قدس سره وذلك نتيجة انفتاحه على كلمات سيد الموحدين وإمام المعرفة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام حيث أشار إلى انه استفاد هذه المسألة من بوابة الولاية العلوية.

قال العلامة الطباطبائي قدس سره مشيراً إلى الوحدة الحقة الحقيقية والتي هي غير الوحدة العددية ما نصه: "ولم نجد ما يكشف عنها غطائها إلا ما ورد في كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام خاصة، فإن كلامه هو الفاتح لبابها والرافع لسترها وحجابها على أهدى سبيل وأوضح طريق من البرهان، ثم ما وقع في كلام الفلاسفة الإسلاميين بعد

الألف الهجري وقد صرَّحوا أنهم إنما استفادوه من كلامه عليه السلام"[١].

وفي كلامه قدس سره إشارة إلى صدر المتألهين قدس سره من اعترافه أنه استفاد هذه الحقيقة من كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهذا يعني فيما يعني أن العقل الإنساني والفكر البشري بلغ ما بلغ لا يمكنه أن يستغني عن الوحي الإلهي المتمثل في الكتاب والعترة المعصومة، وذلك أن من زمن كلام الإمام علي عليه السلام وحتى زمن صدر المتألهين قدس سره قرابة الألف عام حيث أن هذه الوحدة الحقة الحقيقية موجودة في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولكن مع ذلك احتاجت البشرية إلى زمن طويل مع سعيها الحثيث في اكتشاف الحقائق والوصول إلى المعارف الحقة حتى وصلت إلى هذه النتيجة وهذا يعني لولا الإنفتاح على مثل هذه البيانات العلوية والمخازن المعرفية لما استطعنا أن نصل إلى مثل هذه المعرفة والراقية جداً.

وعلى المسار نفسه نجد العلامة الطباطبائي قدس سره في بحثه لهذه المسألة يؤكد حقيقة أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو بذاته بيان عقلي وعلى أساسه استغنى قدس سره عن إيراد بحث عقلي فلسفي في المقام حيث قال في عرضه في التمييز بين المعرفتين أي المعرفة التوحيدية المبنية على الوحدة العددية والمعرفة التوحيدية المبنية على الوحدة الحقة الحقيقية: "لذلك ترى المأثور من كلمات الفلاسفة الباحثين في مصر القديم واليونان والأسكندرية وغيرهم ممن بعدهم يعطي الوحدة العددية حتى صرح بها

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٦ ص١٠١.

مثل الرئيس أبي علي بن سينا في كتاب الشفاء وعلى هذا المجرى يجري كلام غيره من بعده إلى حدود الألف من الهجرة النبوية وأما أهل الكلام من الباحثين فاحتجاجاتهم على التوحيد لا تعطي أزيد من الوحدة العددية أيضا مع أن هذه الحجج مأخوذة من الكتاب العزيز عامة.

إلى أن يقول في بيان أن كلامه عليه السلام بذاته دليل برهاني تام عقلي لا مزيد عليه فيما نحن ما نصه: "ولذا بعينه تركنا عقد بحث فلسفي مستقل لهذه المسألة فإن البراهين الموردة في هذا الغرض مؤلفة من هذه المقدمات المبنية في كلامه عليه السلام لا تزيد على ما في كلامه بشئ"[(١)].

يقول أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله: "وبدورنا سوف نستغني عن الدليل العقلي لإثبات الوحدة الحقة الحقيقية لأن ما أقامه الفلاسفة من أدلة في هذا المجال وما توفر عليه البحث العقلي من مقدمات مستبطن بأجمعه في الأدلة التي أشار إليها القرآن الكريم وما تضمنته روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبالأخص نصوص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام..."[(٢)].

فمن هذا وغيره يظهر لنا بوضوح مدى دور الآيات والروايات في البعد المعارفي وكيف أنها تلفت نظر الباحث إلى القواعد المعرفية والبراهين العقلية وعلى كافة المساحة الإعتقادية الواسعة فلو تكاثفت

---

(١) تفسير الميزان ج٦ ص١٠٥.

(٢) كتاب التوحيد للسيد كمال الحيدري ج١ ص٥٦.

الجهود على إدراك هذه الحقيقة والسعي بكل الآليات العلمية في التبحر والغوص في بحر هذه الآيات والروايات لظفرنا بكنوز معرفية جبارة تساهم في تطور الإنسان وتكامله وتقربه إلى الحق سبحانه وذلك نتيجة الإعتقادات الحقة المطابقة للواقع ونفس الأمر.

الجواب الثاني: التلازم الوجودي بين العقل والدين الإلهي:

عن أمير المؤمنين علي أبن أبي طالب عليه السلام قال: «هبط جبرئيل عليه السلام على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إني أُمرت أن أُخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم عليه السلام إني قد اخترت العقل فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه فقالا: يا جبرئيل إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان قال: فشأنكما وعرج»[(١)].

انطلاقاً من هذه الرواية الشريفة والتي تشير إلى مجموعة من الحقائق المهمة والتي منها التلازم الوجودي والحقيقي بين العقل والدين حيث أنه لا يمكن الفصل بين الدين والعقل فإن الدين هو الجامع بين القواعد العقلية والقواعد النقلية، وليس كما يتصور البعض أن الدين في قبال العقل بحيث يحصر الدين في النقل ويجعل العقل في قباله، بل إن هذه مغالطة خطيرة تهدم أساس الدين وقواعده المتينة.

(١) أصول الكافي ج١ ص١٠ ح٢.

فهذه الرواية الرواية تكشف لنا خطورة هذه المغالطة وتؤكد لنا على التلازم بين الدين والعقل فإن الدين هو دين التعقل والتعبد لا فقط دين التعبد كما يصوره البعض.

قال الحكيم المتأله صدر المتألهين قدس سره: "حاشا الشريعة الحقة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة"(١).

وعلى المسار نفسه يقول العلامة الطباطبائي قدس سره في كتابه علي والفلسفة الإلهية: "حقاً إنه لَظلمٌ عظيم أن يفرق بين الدين الإلهي وبين الفلسفة الإلهية، فهل الدين على اختلاف الأديان سعة وضيقا إلا مجموعة معارف اعتقادية إلهية يُعبَّر عنها بالأصول وأخرى فقهية وأخلاقية يُعبَّر عنها بالفروع؟

وهل الأنبياء إلا رجال يهدون بأمر الله المجتمعَ البشري إلى الحياة الأفضل والسعادة الحقيقية؟ وهل السعادة البشرية الحقيقية إلا أن ينال الإنسان حقائقَ المعارف بما منحه الله من جهاز دقيق لفهمها وإدراكها جهاز مرتبط بأصل خلقة الإنسان وهو جزء من وجوده، وأن يسير بعد نيله تلكم المعارف في حياته العملية، عن طريق العدل والإستقامة؟ وهل له مناص في تحصيل تلك المعارف عن الإلتجاء إلى الإستدلال وإقامة البرهان؟

وإذا كان الحال على ما تقدم فكيف يسوغ للأنبياء أن يدعوا الناس

---

(١) كتاب الأسفار ج٨ ص٣٠٨.

إلى السمع والقبول بلا بينة، وأن يطلبوا منهم السير على غير طريق الإستدلال، وإقامة البرهان، مع أن ذلك مخالف لجبلتهم ومناف لما جهزوا به في أصل خلقتهم وبنية وجودهم.

والأنبياء وإن كانوا قد استمدوا معارفهم ومبادئ دعوتهم من المبدأ الغيبي ـ وارتضعوا ذلك من ثدي الوحي، إلا أن الحقيقة هي: أنه لا فرق بين مسلك الأنبياء في دعوتهم إلى صريح الحق، وبين الحق سلوك الإنسان بشعوره الفطري إلى نيل المعارف الإلهية حيث إنهم على رفعة مكانتهم واشرافهم على الأفق الأعلى قد تنزلوا إلى مستوى الأفهام البشرية ، فكلموا الناس بما يهديهم إلى استعمال الفطرة الإنسانية العامة، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»[1] وحاشا ساحة الأنبياء عليهم السلام أن يحملوا الناس على أن يخبطوا خبط عشواء ، و أن يسوقوهم البهيمة العمياء"[2].

وعلى هدي هذه الحقيقة يتضح لنا جلياً أن الدين الإلهي عين البرهان والعقل وللتدليل على هذه الحقيقة نذكر نموذجين الأول من القرآن الكريم وكيف أنه استخدم القواعد العقلية والمنطقية في إثبات الحقائق والنموذج الثاني نشير إلى بعض الروايات التي تستطبن القواعد العقلية.

---

(١) تحق العقول عن آل الرسول لابن شعبة الحرّاني ص٣٥ في قصارى كلاماته صلى الله عليه وآله.

(٢) كتاب علي والفلسفة الإلهية للعلامة الطباطبائي قدس سره.

النموذج الأول: ما في القرآن الكريم:

ذكر صدر المتألهين قدس سره أن الموازين العقلية في القرآن الكريم ثلاثة:

"ميزان التعادل وميزان التلازم وميزان التعاند.

وأن ميزان التعادل بدوره ينقسم إلى الأكبر والأوسط والأصغر.

الميزان الأول : الأكبر من ميزان التعادل:

وهو المسمى بميزان النبي إبراهيم الخليل عليه السلام والذي استعمله في حجاجه مع النمرود قال قدس سره في هذا الصدد وهو:

كما حكى الله تعالى بقوله: «قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إلى قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، وقد أثنى الله عليه عليه السلام في استعماله لهذا الميزان قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فإن في حجته الثانية التي بها صار نمرود مبهوتاً لأنه أدركها ولم يبلغ دركه إلى الحجة الأولى أصلين إذ مدار القرآن على الحذف والإيجاز، وكمال صورة هذا الميزان أن يقال: كل من قَدَرَ على إطلاع الشمس من المشرق هو الإله هذا أحد الأصلين وإلهي هو القادر على إطلاعها منه، الأصل الآخر: فيلزم من مجموعها أن إلهي هو الإله دونك يا نمرود.

---

(١) الأنعام ٨٣

الأصل الأول: مقدمة ضرورية متفق عليها، والثاني من المشاهدات ويلزم منهما النتيجة، وكل حجة صورتها هذه الصورة وصحَّ فيه أصلان كان حكمهما في لزوم النتيجة المناسبة هذا الحكم إذ لا دخل لخصوص المثال.

فإذا جردنا روح الميزانية عن خصوصية المثال يستعملها في أي موضع أردنا وننتفع بها كما يأخذ الناس معياراً صحيحاً وصنجة معروفة فيزنون الذهب والفضة وغيرها بتلك الصنجة المعروفة"[١].

وأما الميزان التعادلي الأوسط فإن واضعه الله سبحانه وتعالى والمستعمل له النبي النبي إبراهيم عليه السلام، وكذا الميزان التعادلي الأصغر فإن واضعه الله سبحانه وتعالى وعلَّمه النبي محمد صلى الله عليه وآله، والكلام نفسه في ميزان التلازم وميزان التعاند واضعه الحق سبحانه وتعالى.

فإن هذه القواعد العقلية هي السلالم التي يتسلقها الإنسان للوصول إلى معرفة الخالق وللخروج من عالم الطبيعة والمادة إلى عالم الصفاء والنور ومن أرض الطبيعة إلى سماء العرفان والقرب الإلهي.

قال صدر المتألهين قدس سره في توضيح هذه الموازين ما نصه: (الثاني: الميزان الأوسط فهو أيضا واضعه الله ومستعمله الأول الخليل عليه السلام حيث قال: لا أحب الآفلين، وكمال صورته: أن القمر آفل والإله ليس بآفل، فالقمر ليس بإله، فأما حد هذا الميزان وروحه فهو أن كل شيئين وُصِفَ

---

(١) شرح المنظومة للملا هادي السبزواري تعليق آية الله حسن زاده آملي ج١ ص٥١.

أحدهما بوصف يسلب عن الآخر فهما متباينان.

الثالث: الميزان الأصغر: فهو أيضا مبناه من الله حيث علَّم به نبيه محمدﷺ في القرآن بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ﴾[١] ووجه الوزن به أن يقال: قولهم بنفي إنزال الوحي على البشر قول باطل للإزدواج بين أصلين أحدهما أن موسى وعيسىﷺ بشر والثاني أنه أنزل عليهما الكتاب فيبطل الدعوى العامة بأنه لا ينزل الكتاب على بشر أصلاً.

الرابع ميزان التلازم: وهو مستفاد من قوله "لو كان فيهما آله إلا الله لفسدتا" وكذا من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[٢].

وأما حد الميزان وروحه وعياره فهو أن من علم لزوم أمر آخر وعلم وجود الملزوم يعلم منه وجود اللازم، وكذا لو علم نفي اللازم يعلم منه نفي الملزوم، وأما الإستعلام من وجود اللازم على وجود الملزوم أو من نفي الملزوم فهو ملحق بموازين الشيطان إذ ربما كان الملزوم من لازمه.

الخامس ميزان التعاند: وأما موضعه من القرآن فهو قوله تعال تعليما لنبيهﷺ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٣] ففيه إضمار أصل آخر لا محالة إذ ليس

---

(١) الأنعام ٩١.

(٢) الأنبياء ٩٩.

(٣) سبأ ٢٤.

الغرض منه ثبوت التسوية بينه وبينهم وهو أنه معلوم أنا لسنا في ضلال مبين، فيُعلم من إزدواج هذين الأصلين نتيجة ضرورية وهي أنكم في ضلال مبين.

وأما حد هذا الميزان وعياره: فكل ما انقسم إلى قسمين متباينين فيلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر وبالعكس لكن بشرط أن لا يكون القسمة حاصرة لا منتشرة، فالوزن بالقسمة الغير المنحصرة وزن الشيطان.

فهذه هي الموازين المستخرجة من القرآن، وهي بالحقيقة سلاليم العروج إلى عالم السماء، بل معرفة خالق الأرض والسماء، وهذه الأصول المذكورة هي درجات السلاليم"[1].

ولا يخفى أن المتأمل في الآيات يجد قواعد وموازين أخرى لم يلتفت إليها الأوائل من العلماء والحكماء وفلا بد من بذل الجهد لاقتناص الكثير من القواعد المكنونة في أصداف الآيات الكريمة.

النموذج الثاني من كلام العترة الطاهرة عليهم السلام:

إن المتتبع في روايات المعصومين من النبي وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام يجدها مليئة بالإستدلالات العقلية والبراهين القطعية إبتداءاً من إثبات الواجب تعالى وما يستتبعه من مسائل في المنظومة العقدية والرؤية الكونية فيكفي نظرة سريعة فيما ورد في خطب نهج البلاغة لمولى الموحدين وكشاف الحقائق وقطب رحى المعرفة والوصول إلى الله تعالى

---

(١) شرح المنظومة للملا هادي السبزواري تعليق آية الله حسن زاده آملي ج١ ص٥١.

أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام ليجد المخزون العقلي لإثبات الحقائق والمعارف الإلهية بل نقول:

إن ما أورده أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه لم يوجد مثله في زبر الأولين والآخرين بل حتى في كلام الأنبياء وأولي العزم عليهم السلام منهم ما خلا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وذلك من خلال ما طرحه من معارف عالية وراقية جداً مشفوعة بالدليل والبرهان.

يقول صدر المتألهين قدس سره معلقاً على الخطبة الأولى الواردة في الحديث الأول من أصول الكافي باب جوامع التوحيد ما نصه والتي أولها: «الحمدلله الواحد الأحد الصمد المتفرد والذي لا من شئ كان ولا من شئ خلق ماكان... إلخ»[1] ما نصه: "اعلم أن هذه الخطبة من خطب أمير المؤمنين وسيد الموحدين وإمام الحكماء الإلهيين والعلماء الراسخين وقدوة الأولياء الواصلين والعرفاء الشامخين وأعلم الخلائق بالله وتوحيده ما خلا خاتم النبيين صلوات الله عليهما وآلهما الهادين المهديين مشتملة على مباحث شريفة إلهية ومعارف نفيسة ربانية ومسائل عويصة حكمية ومطالب علَية عقلية لم يوجد مثلها في زبر الأولين والآخرين ولم يسمح بنظيرها عقول الحكماء السابقين واللاحقين مع قطع النظر عن جودة الألفاظ والعبارات وفصاحة البيان والإستعارات التي فاق بها على مصاقع البلغاء

---

(١) أصول الكافي ج١ ص١٣٤ ح١.

وأعاظم الأدباء وفحول الخطباء"(١).

ولغزارة وعظمة هذه الخطبة الشريفة شرحها ملا صدراقُدّسَ سِرّهُ في عشرين فصلاً فيما يقرب من الستين صفحة.

وإن هذا الشرح منهقُدّسَ سِرّهُ هو ما أمكنه من استخراجه من كنوز هذه الرواية وإلا فلا يمكن الإحاطة والوقوف على منتهى لهذه المعارف الواردة في هذه الخطبة الشريفة الصادرة عن مولى الموحدين سلام الله عليه أجمعين.

ومن ثَمَّ ينبغي علينا الغوص أكثر فأكثر في بحر هذه الخطبة واستخراج الكثير من كنوزها وعدم الإكتفاء بما قُدِّم من شروحات وقراءات لها.

وعلى المسار نفسه نجد المولى المازندرانيقُدّسَ سِرّهُ في شرح أصول الكافي أشار إلى القواعد العقلية المبثوثة في أصول الكافي.

هذا مضافاً إلى أن المعلّق على هذا الكتاب وهو العلامة الكبير والحكيم المتأله أبو الحسن الشعرانيقُدّسَ سِرّهُ قد فعَّل آلياته المعرفية فاستنتج ستة براهين لإثبات وجود الحق سبحانه وتعالى من حديث لا يتجاوز ثلاثة أسطر.

والأمثلة كثيرة لمن تتبع.

وهذه الحقيقة نجدها واضحةَ المعالم عند أهل المعرفة والمتألهين

---

(١) شرح اصول الكافي لمؤلفه صدر المتألهين ج٤ كتاب التوحيد ـ القسم الثاني ص٣.

من المعاصرين فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ما قاله الحكيم المتأله الشيخ جوادي آملي حفظه الله في كتابه علي بن موسى الرضاعليه السلام والفلسفة الإلهية حيث قال معلّقا على كلمة للإمام الرضاعليه السلام وهو الذي عبّرت عنه الروايات بعالم آل محمدعليهم السلام لكثرة ما جاء عنه من الروايات المعارفية والبيانات العقدية المبنية على القواعد العقلية البرهانية.

قالعليه السلام في باب حدوث الإرادة: «ألا تعلم أن مالم يزل لا يكون مفعولاً وحديثاً وقديماً في حالة واحدة»[1].

قال الشيخ الجوادي حفظه الله ما نصه: "حيث أفادعليه السلام بأن الحدوث والقدم لا يجتمعان لأن المنفصلة القائلة بأن الموجود إما حادث وإما قديم منفصلة حقيقية مؤلفة من طرفي النقيض ـ نظير قولنا العدد إما زوج وإما فرد ـ فلذا يمتنع صدقهما في الجمع وكذبهما في الرفع لأن المتناقضين لا يجتمعان و لا يرتفعان"[2].

وكذا تعليقته حفظه الله على قولهعليه السلام «كل قائم في سواه معلوم» حيث أفادعليه السلام أصل العلّية بأن الموجود إذا لم يكن الوجود عين ذاته كان قائما بغيره ومتحققاً فيه ومعتمداً عليه ـ أي معلولاً ـ وعكس نقيضه هو بأن ما لا يكون معلولاً فهو غير قائماً في سواه ومعتمداً عليه بل القائم بذاته الغني

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ٥٤.

(٢) كتاب علي بن موسى الرضا والفلسفة الإلهية للفقيه المتأله آية الله الشيخ عبدالله الجوادي الآملي ص ١٦.

عن غير"[1].

ونكتفي بهذا المقدار من هذه البيانات.

نتيجة معرفية:

فتحصل إلى هنا أننا عندما نؤكد على الإهتمام بالنص الديني قرآناً وعترة حتى في المسائل العقدية الأساسية كإثبات الواجب والنبوة والإمامة وغيرها لا يعني أننا نأخذ هذه المعارف تعبداً وبالتالي يأتي محذور الدور والذي هو باطل بلا إشكال بل أن مقصودنا هو لحاظ هذه البيانات العقلية وكيفية الإستفادة منها وذلك من باب (الحجية العلمية) لأن مثل هذه الحقائق لابد أن تثبت بالدليل العقلي والقطعي.

قال الشيخ محمد الريشهري حفظه الله في كتابه موسوعة العقائد الإسلامية في نقل الروايات المرتبطة بمعرفة الله ما نصه: "من البديهي أن المقصود بالإستنارة بتعاليم القرآن والحديث لمعرفة الله تعالى ليس القبول التعبدي بها فيُشكَل على أن حجية القرآن والحديث تستند إلى إثبات وجود الله فلو استند إثبات وجوده تعالى إلى الكتاب والسنة يكون دوراً وهو باطل عقلاً بل المقصود هو الإستهداء بالأدلة والبراهين المستقاة من القرآن والحديث بنحو يستطيع العقل فيه أن يدرك وجود الخالق وصفاته عبر التأمل فيها بغض النظر عن قائلها فالتعقل هو المعيار في الإقرار بوجود

---

(١) المصدر السابق ص ١٨.

الله لا التعبد"[١].

ونختم هذا الحديث بكلام للعالم الكبير السيد عبدالله شبرقدس سره في كتابه حق اليقين في معرفة أصول الدين حيث قال ما نصه: "وإن أردت وضوح الدليل وطلبت إيضاح السبيل فاستمع لما يتلى عليك من الدلائل العقلية والبراهين القطعية والشواهد اليقينية التي نطقت بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار المعصومية ولا تظن أنها في هذا الباب لا يجوز التعويل عليها والإعتماد والركون إليها، فليست بأدون مما برهنه الحكماء والمتكلمون، ولا بأضعف مما رقَّمه الإشراقيون والمشاؤون فإنك إذا تأملت في معانيها وتدبرت في مبانيها وجدتها دلائل قاطعة وبراهين ساطعة على وجود الصانع بل وحدته وسائر صفاته"[٢].

الجواب الثالث: الشريعة الحقة تقع حداً أوسطاً في البرهان:

إن هذه الحقيقة هي مما أبدعها الفلاسفة الإسلاميون حيث برهنوا على أن كلما ثبت صدوره من النبيصلى الله عليه وآله وأهل بيتهعليهم السلام على سبيل اليقين والقطع فإنه يقع حداً وسطاً في القياس العقلي ويستدل به في المباحث العقلية، كما أشار إلى ذلك الفيلسوف العظيم الفارابي في بعض كتبه وابن سينا في إلهيات الشفاء كما صرح بذلك في المعاد الجسماني وصرح بهذه

---

١) موسوعة العقائد الإسلامية لمؤلفه الشيخ محمد الريشهري ج٣ ص١١.

(٢) كتاب حق اليقين في معرفة أصول الدين للعلامة السيد عبدالله شبر ص١٩.

الحقيقة كثيراً الفيلسوف العظيم الملا صدراقدس سره.

إن دليل هذه الدعوة إختصاراً:

أنه بعد أن ثبتت الشريعة الحقة من خلال المعجزات والتي هي براهين عقلية كما هو معلوم في محله فكل ما يكون معلوما من هذه الشريعة على نحو القطع واليقين يكون ثابتاً بالمعجزات أي بالدليل.العقلي ومن ثَمَّ يكون هذا الثابت في الشريعة حداً وسطاً في إثبات حكم الكبرى للصغرى.

وهذه الحقيقة هي التي ساهمت في تطوير الأبحاث العقلية وقفزت المسائل الفلسفية من مأتين مسألة إلى ثمان مأة مسألة فلسفية.

وكمثال على هذه الحقيقة ما صرح به الملا صدراقدس سره من أن قول المعصوم وسط برهاني في القياس العقلي كما في مسألة حدوث العالم المادي والتي أنكرها جملة من الحكماء الأوائل حيث لم يأخذ بآرائهم وأخذ بقول المعصوم عليه السلام والذي هو مقطوع به في هذه المسألة العظيمة قال قدس سره ما نصه:

"قد أشرنا مراراً إلى أن الحكمة غير مخالفة للشرائع الحقة الإلهية بل المقصود منهما شئ واحد هي معرفة الحق الأول وصفاته وأفعاله، وهذه تحصل تارة بطريق الوحي والرسالة فتسمى بالنبوة وتارة بطريق السلوك والكسب فتسمى بالحكمة والولاية.

وإنما يقول بمخالفتهما في المقصود من لا معرفة له بتطبيق الخطابات الشرعية على البراهين الحكمية ولا يقدر على ذلك إلا مؤيد من عند الله كامل في العلوم الحكمية مطلع على الأسرار النبوية فإنه قد يكون

الإنسان بارعاً في الحكمة البحثية ولا حظ له من علم الكتاب والشريعة أو العكس.

فالعقل السليم إذا تأمل تأملاً شافياً وتشبث بذيل الإنصاف مبتعداً عن الميل والإنحراف والعناد والإعتساف وتدبر أن طائفة من العقول الزكية والنفوس المطهرة ـ الذي لم تتنجس بواطنهم بأرجاس الجاهلية ولم ينحرفوا عن سبيل التقديس ولم يأتوا بباطل ولا تدليس وكانوا مؤدين من عند الله بأمور غريبة في العلم والعمل معجزات وخوارق للعادات من غير سحر وحيل ولا غش ولا دغل ـ ثم اصروا على القول بحدوث هذا العالم وخرابه وبواره وانشقاق اسقافه وانهدام طاقاته وتساقط كواكبه وانكدارها وطي سماواته وبيد أرضه وانفجار بحارها وتسيير جبالها ونسفها وبالغوا في ذلك وتشددوا في الإنكار على منكريه [أي منكري حدوث العالم] مع أنه مع أنه لا يضرهم القول بقدم العالم مع بقاء النفوس بعد الأبدان الشخصية وإثبات الخيرات والشرور النفسانية في المعاد ولا يخل بالشريعة في ظاهر الأمر فيجزم لا محالة بأنهم ما نطقوا عن الهوى وأن ما أخبروه عن يقين حق واعتقاد صدق ثم إذا رجعنا إلى...″ إلى أن يقول قدس سره: ″...فإذن الجمع بين الحكمة والشريعة في هذه المسألة العظيمة لا يمكن إلا بما هدانا الله إليه وكشف الحجاب عن وجه بصيرتنا...″[1].

وقال ملا صدرا قدس سره في معرض دور الأنبياء والأئمة عليهم السلام في كشف

(١) الأسفار ج٧ ص٣٢٦.

الحقائق بتمامها وأنه أمر مختص بهم دون غيرهم من الحكماء والفلاسفة: "إن المراد بذلك هو وجود (لمّي) ـ بالإستدلال من العلة إلى المعلول ـ لاستكشاف كل الموجودات المخلوقة ومعرفة كل الحقائق بحيث يغني عن كل العلوم الطبيعية والتجريبية والرياضية وغيرها من العلوم وهو علم إلهي يستغني به صاحبه عن بقية العلوم بل يفوقها.

ولكن ذلك العلم الإلهي لا يتحقق إلا لمن ارتبط بالسماء كالأنبياء دون الآخرين من الفلاسفة فإن علم الفلاسفة بالإلهيات يكون من طريق (الإن) ـ بالإستدلال من المعلول إلى العلة ـ والملازمات وتعجز عقولهم عن إدراك ذلك الطريق اللمّي ولأجل ذلك لم تغني فلسفة الإلهيات عن باقي العلوم"[1].

هذا مضافا إلى بعض التصريحات الواضحة في كلام الفارابي وابن سينا وغيرهم من الحكماء الإلهيين.

فعلى هدي ما تقدم يتضح لنا بجلاء أن ما ثبت بالقطع واليقين أنه من الشريعة يقع حداً وسطاً في الإستدلال وهذا يعني ضرورة متابعة الآيات والروايات الواردة في المعارف الإلهية وعدم الإقتصار على ما حرره علماء الكلام والحكماء من مسائل عقدية بل ينبغي الخوض في ذلك لحاجتنا إلى وحي السماء في التنبيه وإيجاد التصورات لفتوحات معرفية كما سنوضح ذلك في جواب آخر.

---

(١) حاشية ملا صدرا على الشفاء ـ طبعة حجرية ـ الفصل الثالث المقال الأول.

الجواب الرابع: فتوحات معرفية في التراث العقائدي:

إن الآيات والروايات الواردة في المعارف الإلهية تفتح للإنسان أبواباً وعناوين اعتقادية أخرى غير متعارف عليها في الكتب الكلامية والفلسفية والعرفانية التي هي مدار البحث العقدي.

فإن متابعة وقراءة هذا المخزون المعارفي تُمَكِّنُ الباحث المدقق وبآلياته العلمية سواء الكلامية منها أم الفلسفية أم العرفانية أن يستنطق عناوين عقدية ضرورية في المعرفة أو في كمال المعرفة فعلى سبيل المثال نجد أن الروايات التي تتحدث عن ضرورة وجود الحجة وكونه عنواناً شاملاً للنبوة والإمامة وهذا يكشف أن هذين البحثين لا ينفصلان عن بعضهما البعض ومن ثَمَّ سار جملة من المحدثين كالشيخ الكليني قدس سره على هذا التقسيم في كتابه أصول الكافي حيث عنون بحث النبوة والإمامة بعنوان كتاب الحجة وهذا خلاف ما نجده عند جملة من المتكلمين عندما يفرقون بين بحث النبوة والإمامة ولا يخفى مدى مؤثرية الدمج على المسار العقائدي للمعتقد والذي يتأطر عنده أن الإمامة امتداد للنبوة فتأخذ شرائطها وأركانها إلا ما استُثني.

ومثال آخر ما نجده في بحث الرجعة حيث أن المتتبع في رواياتها يتصاعد معرفياً من كون الإعتقاد بها ليس ضرورياً إلى كونها ضرورة من ضروريات المذهب بل ضرورة من ضروريات الدين بل ضرورة من ضروريات الأديان، ولا يخفى ما لهذا المعتقَد من أثر على مسار المعتقِد، وهكذا مجموعة من الأبحاث العقدية التي يجدها الباحث والمتتبع في

القرآن وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

هذا مضافاً إلى أن بعض المسائل الضرورية في الإعتقاد كتوحيد الله تعالى والذي يعتبر هو معرفة الله كما أشارت الروايات إلى أن أول الدين معرفته وأن هذه المعرفة المقصودة هي المعرفة التوحيدية والتي لها مراتب غير متناهية لأنها مرتبطة باللامتناهي وهو الله تعالى، حيث نجد أن جملة من العلماء والحكماء المتألهين أمثال صدر المتألهين قدس سره يشير إلى أن الإعتقاد بالتوحيد صحيح ومؤثر حتى لو اعتمد على الدليل النقلي فقط.

ومن الوضوح بمكان أن هناك معارف تفصيلية مرتبطة بالنبوة والإمامة والمعاد تتوقف معرفتها على متابعة الروايات وسبرها وإلا بقي الإنسان يجهل كثيراً من الحقائق فبعض هذه التفاصيل ضرورية الإعتقاد وبعضها من كمال الإعتقاد ومن ثَمَّ ينبغي على الباحث عن الحقيقة أن يدقق في هذا المخزون المعارفي لكي يحقق له لوحة معرفية صافية وخريطة معرفية تفصيلية تساهم في كماله وإسعاده في الدنيا والآخرة مثلما لو علم حقائق تفصيلية في مقامات النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام أو معارف تفصيلية مرتبطة بعالم البرزخ والقيامة وما إلى ذلك.

الجواب الخامس: الأمثلة الدقيقة للمعارف في التراث العقائدي:

إن المتتبع في آيات وروايات المعارف يجد أنها عرضت لأمثلة دقيقة جداً لإيصال المعارف العالية للإنسان ولولا هذه الأمثلة لبقي حقائق كثيرة غائبة عن المشهد العقائدي عندنا.

كما نجد ذلك في المثال الذي استخدمه الإمام الصادق عليه السلام

لتقريب معرفة الله بالله حيث وضَّح الإمام عليه السلام تلك المعرفة العالية بمعرفة أخوة يوسف ليوسف حيث قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ حيث قال عليه السلام عرفوا يوسف بيوسف.

حيث يجد الباحث أن لولا هذا البيان من الإمام الصادق عليه السلام وهذا المثال الدقيق لما أدرك أحدٌ هذه الحقيقة ومن ثَمَّ نعلم حقيقة أنه عليه السلام كشاف الحقائق المرتبط بمنبع الحقائق ومفيض الحقائق وهو الله سبحانه وتعالى.

الإمام الرضا عليه السلام ومثال المرآة:

إن الإمام الرضا عليه السلام والذي هو عالم آل محمد صلى الله عليه وآله قرَّب حقائق توحيدية راقية بمثال المرآة[1] ولولا هذا التقريب لما عرف أحدٌ ما للمرآة من قيمة في هذا الصدد ومن ثَمَّ نجد أن العرفاء والحكماء وغيرهم استفادوا من هذا المثال لتقريب بعض الحقائق والمعارف الدقيقة جداً.

هذا مضافاً إلى أن روايات المعارف الواردة عنهم عليهم السلام نَحَت منحى مهماً وهو منحى تصحيح المسارات العقائدية الخاطئة كما نجد ذلك في الروايات الواردة في الصفات الذاتية والفعلية وكذا الواردة في معرفة الإمام حيث نجد جملة سياقات معرفية خاطئة صححها الأئمة عليهم السلام وأعطوا الرؤية الصحيحة في ذلك وهذا ما نعرضه في بعض النماذج في فصل لاحق إن

---

(١) راجع كتاب التوحيد للصدوق قدس سره ص ٤٢٢.

شاء الله.

ضرورة ارتباط الإنسان الناقص بالإنسان الكامل:

على هدي ما تقدم يتضح لنا جلياً ضرورة إرتباط الإنسان الناقص بالإنسان الكامل أي الإمام المعصوم لكونه الواقف على الحقائق والمهيمن عليها ومن ثَمَّ نجد أن من أبعد نفسه عن معارف الإنسان الكامل يعيش في أُطُر معرفية ضيقة فضلاً عن الفوضى المعرفية المحيطة به والتي تُطِيحُ به في وادٍ سحيق مليئ بالظلام المعرفي متمثلاً بالفراغ العقائدي والإنحراف السلوكي في نهاية المطاف.

الجواب السادس: أن الأئمة عليهم السلام كلامهم نور وأمرهم رُشد:

إن قراءة الآيات والروايات الواردة في المعارف قراءةً علمية دقيقة وفقاً للموازين والمنهج الصحيح يؤدي بالقارئ إلى رسوخ الإيمان والتصلب في العقيدة نتيجة حصول اليقين بالنبوة والإمامة، حيث يجد من خلال آلياته العلمية مدى سمو المعرفة عند النبي الخاتم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام فيزداد بصيرةً بصدقهم وأن إيمانه يزداد شدة لكون الإيمان من مقولة التشكيك فكلما ازداد الإنسان بصيرة بمعارفهم ازداد إيمانه.

فعلى سبيل المثال أن من يقرأ روايات التوحيد وفق الموازين العلمية يجد أن توحيده يأخذ منحى تصاعديا هائلا جداً هذا مضافا إلى تصاعد حالة الإيمان بالنسبة إلى مقامات النبي الأئمة المعصومين عليهم السلام.

قال الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة: «كلامكم نور وأمركم

رشد ووصيتكم التقوى»[١].

ومن ثَمَّ أن بعض من استبصر ومال إلى الحق كان نتيجةً للتأمل والتدبر في كلماتهم عليهم السلام سواء في البحث العقدي أم غيره، وهذا الإنفتاح على تلك الكلمات العظيمة أهَّلهم للوصول إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام واعتناقه عن برهان ودليل ومن ثمَّ تصاعدوا معرفياً أكثر فاكثر نتيجة هذا الإنفتاح على هذه الروايات.

كلماتهم عليهم السلام والإعتراف العالمي:

وتجدر الإشارة إلى أن بعض كلماتهم عليهم السلام كعهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله ورسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام اعترف بهما مجلس الأمم المتحدة وجعلهما مصدرين من مصادر حقوق الإنسان وهذا فيما يعني ضرورة إبراز كلماتهم خصوصا في المجال المعارفي لإطلاع الآخرين على هذه الكنوز المعرفية والتي كما هو واضح وجلي سبقت كل مفكري البشر قديما وحديثا بما لا نسبة في المقايسة.

بل يمكن القول أن التعمق في قراءة الروايات وبشكل دائمي يعطي النفس دفعات نورية تساهم في سعة الإنسان وجودياً لكي يتقبل الحقائق والأسرار الإلهية المكنوزة في كلماتهم عليهم السلام خصوصا إذا لاحظنا أن بعض مَن يُنكِرُ بعض المعارف الحقة كان نتيجة ابتعاده عن هذا التراث وهذه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق قدس سره في ما يجزي من القول عند زيارة جميع الأئمة عليهم السلام عن الرضا عليه السلام، ذكر الزيارة الجامعة الكبيرة.

الكنوز حيث حبس نفسه في أُطُر معرفية ضيقة فحجب نفسه عن تلك المعارف العالية والراقية.

الجواب السابع: أهمية المضمون في البحث العقائدي:

إن ما أُثير في التساؤل كان في أحد جوانبه أخذ أهمية البحث السندي وجعله المقياس في قبول أو رفض الرواية، وهذا الأمر قابل للتأمل وذلك:

أن البحث في الفقه الأكبر أي البحث العقائدي والفقه الأصغر أي في الأحكام الفرعية لا يتوقف ثبوت الحكم فيه على فقه السند وملاحظة مفرداته من توثيق تلك المفردة أو عدم توثيقها وإن كان هذا أحد المباني التي يعتمدها البعض من الأعلام ولكن تجدر الإشارة إلى وجود مبان أخرى كمبنى (حجية المضمون) وملاحظة متن الرواية ومقدار كاشفية المتن من صحته وعدمه، فالبحث في صحة المضمون يرجع إلى متن الرواية وهذا أمر يتطلب وجود القدرة والملكة العلمية والدراية بمسائل الإعتقاديات وكذا الفرعيات، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى دربة وخبروية جبارة لا يمكن تجاوزها وهذا فيما يعني أن يكون الباحث في الشؤون العقدية متضلعا في كثير من العلوم وواقفاً على كامل المنظومة الدينية مُنصَبِغَاً بصغبة البحوث العقلية الرصينة والموازين المعرفية الدقيقة فضلاً عن وقوفه على المحكمات في الكتاب وكلام العترة المعصومة عليهم السلام وهذا كما قلنا يتوقف على الإحاطة والشمولية، وإلا إذا كان الأمر موقوفا على البحث السندي فهو لا يحتاج إلا إلى علم واحد وهو علم الرجال الذي يعرف من

خلاله مستوى السند أو ذاك.

المضمون الركن الأساس في الحجية:

على هدي ما تقدم يمكننا القول أن المضمون هو الركن الأساس في الحجية وإن حجية الصدور هي الأقل في الأهمية وإن كنا لا نلغي حجية الصدور وملاحظة السند بتاتاً بل ما نرمي إليه هو جعل الإهتمام بحجية المضمون في الصدارة والأخذ به، بل أن الإجتهاد في الفكر الديني يعتمد أساساً على حجية المضمون وليس كما يُتَصور على معرفة طرق الحديث والطبقات فقط ومن ثَمَّ يتم البحث عن ضوابط حجية المضمون واستنطاق القواعد لمعرفة صحته من عدمه وذلك من خلال المحكمات والقطعيات كما أشرنا سابقاً.

قال أستاذنا المحقق الشيخ محمد السند حفظه الله مشيرا إلى أهمية البحث المضموني وتقدمه على البحث الصدوري ما نصه: "إن البحث في صحة المضمون على ضوء النقطة السابقة يتوقف على عارضة فقهية وإحاطة بالأبواب، وإلمام بالمنظومة الفقهية وترابطها، وتوالد الأبواب والأحكام بعضها من بعض.

هذا فيما كان البحث في الفروع وكذلك الحال فيما كان المتن في الإعتقاديات، فتتحقق القدرة على معرفة صحة المضمون وضوابطه على قوة الملكة والدراية بمسائل علم الفقه الأكبر والأصغر.

وهذا بخلاف البحث في حجية الصدور فإنه يتوقف على الإلمام بعلم الرجال ودراية طرق الحديث والطبقات، فهو جانب تراجمي تاريخي،

ومن ثَمَّ لم يعده جملة من الأصوليين من شرائط الفقاهة والإجتهاد وإن كان الصحيح اعتباره إلا أنه لم يعد الإلمام به ركنيٌّ محوريٌّ في ملكة الفقاهة والإجتهاد وهذا مما يعكس الفارق البنيوي بين البحث في صحة المضمون عن البحث في صحة الصدور"[1].

وعلى هذا الأساس ذكر حفظه الله مجموعة من الأدلة على ركنية صحة المضمون في الحجية وفرعية حجية الصدور والتي منها: "إن البرهان الصناعي على ركنية صحة المضمون في الحجية وفرعية حجية الصدور في منظومة الحجية يمكن أن يقرر بالنحو التالي:

إن البحث في صحة المضمون إذا قرر فيه عدم الصحة في مورد معين، فيلزم منه انعدام ثمرة الرواية من رأس ولغوية البحث في الصدور تماماً وهذا بخلاف العكس، فإنه مع صحة المضمون أو انتفت حجية الصدور فإنه لا تنعدم ولا ترتفع الثمرة العلمية والشرعية في الرواية.

وذلك لأنه مع انتفاء حجية الصدور لا ينتفي احتمال الصدور، ويظل احتمال الصدور قائماً، فإذا اعتضد بالدرجة الأقوى من صحة المضمون والتي هي بمعنى الموافقة القريبة من المحكمات والعمومات، فإن هذا يقوي درجة احتمال الصدور ويستلزم معالجة مضمونه بالإضافة إلى العمومات بأن يُبذل الجهد في تحليل مضمونه ومضمون العموم والفحص عن القدرة في استخراج مضمونه من مضمون العموم.

---

(١) بحوث في قراءة النص الديني للمحقق آية الله الشيخ محمد السند ص٢١١.

وبالتالي يكون المعتمد على العموم الفوقاني ويكون الخبر المحتمل الصدور الصحيح المضمون بمثابة القرينة المنضمة إلى دلالة العموم، الكاشفة عن دلالة العموم عليه، وأين هذا من العكس، فإنه مع مخالفة المضمون للكتاب والسنة لا يبقى مجال لاحتمال الصدور"[١].

وقد ذكر سماحته حفظه الله مجموعة من الوجوه تشير إلى أن دراسة مضمون الحديث متقدم رتبة على دراسته سنداً، ونذكر عناوينها اختصاراً وهي:

الأول: الإمكان قبل الوقوع والثبوت قبل الإثبات.

الثاني: مدارية المحكم للمتشابه.

الثالث: حجية التصور.

الرابع: العرض على الكتاب والسنة.

الخامس: تقديم المرجح المضموني على الصدوري.

السادس: مباني حجية خبر الواحد.

السابع: الفرق بين حجية الصدور وحجية المضمون.

الثامن: الحجية الأصولية.

التاسع: حرمة رد الأحاديث.

وبعد ذلك ذكر سماحته حفظه الله ثمار حجية المضمون في دائرة

---

(١) المصدر السابق ص٢١٢.

الحجج[١].

هذا مضافاً إلى ما أشرنا إليه من الجواب السابق من كون المدار في البحث العقدي هو الدليل والبرهان العقلي ومن ثَمَّ لو وجدنا رواية في باب المعارف تصطدم مع قاعدة عقلية بديهية لا تُقْبَل حتى لو كان سندها سنداً صحيحاً بل حتى لو كان أعلائياً.

* ضرورة موافقة المضمون مع المحكمات:

إن الروايات التي ترد مخالفةً لمحكمات الكتاب ولكلام العترة عليهم السلام لا يمكن قبولها كما لو أشارت بعض الروايات على عدم عصمة النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام أو ما شاكل ذلك فإنها لا تأخذ حتى لو كان السند صحيحاً لكونها مخالفة للمضمون العقلي من جهة والمضمون الكتابي والعترتي من جهة أخرى، وهذا مما يؤكد لنا ضرورة سبر القرآن في محكماته وسبر الروايات في محكماتها وكيفية تطبيق هذه المحكمات والعمومات الفوقانية وتنزلاتها على المسائل العقدية وحكومتها في تصحيح المسارات الإعتقادية وما إلى ذلك، ومن هنا يظهر لنا خطورة ما يتبناه البعض من مصادرة التراث الديني وحكره في زاوية ضيقة تحت مظلة تنقية التراث وذلك اعتمادا على حجية السند والإبتعاد عن حجية المضمون وهذا أمر خطير للغاية حيث ينتج

---

(١) راجع تفاصيل هذه الوجوه والثمرات إلى الإجتهاد والتقليد في علم الرجال وأثره في التراث العقائدي ص٢١٤ للمحقق آية الله الشيخ محمد السند.

منه ضياع الثروات العلمية والكنوز المعارفية وبالتالي نذهب إلى طريق التسطيح الديني والخواء المعرفي والحشوية الحديثة.

قد جاء التأكيد من أئمة أهل البيتعليهم السلام على عدم رفض الروايات الواردة عنهم تحت مظلة عدم صحة السند مثلاً أو عدم انسجامها لذلك الوعاء العلمي للباحث أو ما شابه ذلك من عوامل أخرى.

بل ينبغي على الباحث في الفقه الأكبر بالذات ـ العقائد ـ أن يكون واقفا على المحكمات العقدية من الآيات والروايات مضافاً إلى الشمولية والإحاطة بكلماتهمعليهم السلام لكي يستطيع أن يجد المخارج العلمية لقبول هذه الرواية أو تلك ولا يسارع بردها كما هو واضح من هذه الروايات، وهذا كما قلنا سابقا يتطلب دُرْبة علمية وخبروية تيسر عليه فقه الرواية ودرايتها والوقوف على حيثياتها.

ومن هذه الروايات:

- عن النبي الأعظمصلى الله عليه وآله أنه قال: «مَن ردَّ حديثاً بلغه عني فأنا مخاصمه يوم القيامة، فإذا بلغكم عني حديث لم تعرفوه فقولوا: الله أعلم»[1].

- وعنهصلى الله عليه وآله: «من بلغه عني حديث فكذب به، فقد كذب ثلاثة: اللهَ ورسولَه، والذي حدث به»[2].

---

١) منية المريد للشهيد الثاني ص ٣٧٢ نقلاً عن مجمع الزوائد.

(٢) المصدر السابق.

- وعن سفيان بن السمط قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: جعلت فداك إن رجلا يأتينا من قبلكم يعرف بالكذب فيحدث بالحديث فنستبشعه فقال أبوعبدالله عليه السلام: «يقول لك: إني قلت: لليل إنه نهار أو النهار إنه ليل؟ قال: لا: قال فإن قال لك هذا إني قلته فلا تكذب به فإنك إنما تكذبني»[(١)].

- وعن أبي بصير عن أحدهما[(٢)] عليهما السلام قال: سمعته يقول : «لا تكذب بحديث أتاكم به مرجئي ولا قدري ولا خارجي نسبه إلينا فإنكم لا تدرون لعله شئ من الحق فتكذبون الله عز وجل فوق عرشه»[(٣)].

فعلى هدي هذه الروايات الشريفة يتضح لنا ضرورة عدم رفض الروايات بحجة ضعف السند أو ما شابه ذلك.

ومن المؤمِّنات في قبول الروايات المعارفية هو ما أشرنا إليه سابقاً من أن الشمولية في فهم الدين والوقوف على القواعد الرصينة سواء كانت العقلية منها أم المحكمات من الكتاب وكلام العترة عليهم السلام تؤمِّن للإنسان قبول النص الديني بمعزل عن مسائل البحث السندي.

❁ الزيارة الجامعة الكبيرة نموذجاً:

ما ورد في الزيارة الجامعة المروية عن الإمام علي الهادي عليه السلام من

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢١١ ح ١١٠.

(٢) يعني الإمام الصادق أو الباقر عليهما السلام.

(٣) المصدر السابق ح ١١١.

ذكر مقامات الأئمة المعصومين عليهم السلام يكون محلاً لليقين بهذه الزيارة وذلك عبر مسارات ثلاثة:

١ـ إن هذه الزيارة الشريفة ذكرت مواصفات الإنسان الكامل ومقاماته وما يتحلى به من أدوار وجودية ومقامات إلهية عظيمة وهذا ما هو مبرهن عليه في البحث المعرفي سواء بآليات عرفانية أم فلسفية كما هو مُحقَقٌ في محله.

٢ـ إن من الطرق المعروفة لدى الأعلام الكبار في قبول رواية وجود مضامينها في روايات صحيحة السند وهذا ما نجده في مضامين الزيارة الجامعة حيث وردت هذه المضامين في روايات أخرى صحيحة السند بل بعضها متواتر ومستفيض.

٣ـ إن السند في هذه الزيارة الشريفة صحيح كما أشار إليه جملة من الأعلام.

فهذه المسارات الثلاث يكفي واحد منها في قبول هذه الزيارة وهذا الأمر ينسحب مع باقي الروايات الواردة عن النبي والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

كما نجد ذلك في زيارة عاشوراء وغيرها من الزيارات والأدعية الواردة عنهم عليهم السلام فلا يمكن التذرع برفض هذه الزيارة أو تلك أو هذا الدعاء أو ذاك تحت مظلة ضعف السند وما شاكل ذلك، وهذا ما يكشف

عن خواء معرفي ترفضه مدرسة أهل البيت عليهم السلام(١).

فائدة في الخبر الضعيف:

تجدر الإشارة إلى أن الخبر الضعيف له فوائد عدة، فلا يمكن إلغاءه عن الساحة المعرفية نتيجة ضعف السند الناتج من الإرسال أو القطع أو كون بعض رجال السند من المجاهيل أو الضعفاء وبالتالي لا يكون في مستوى الخبر الصحيح وإليك بعض هذه الفوائد والمعطيات نوردها اختصاراً وإلا البحث المفصل موكول في محله.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن الجرح والتعديل يعتمد غالباً عند أهل الفن من العامة والخاصة على المبنى الكلامي والعقائدي للراوي.

فعلى سبيل المثال ما نجده عند الشيخ النجاشي قدس سره في الجرح والتعديل اعتماداً على المضامين الواردة في رواياتهم وذلك لكونه يعتقد بسقف معرفي معين بالنسبة لمقامات النبي وأهل بيته عليهم السلام فمن تجاوزه يراه مغالياً ومن ثَمَّ يضعفه، فهذا التضعيف لا يستند على القواعد المقررة عندهم في علم الرجال من كون الجرح والتعديل قائم على الحس كما هو واضح في محله هذا مضافا إلى أن الكلام ينسحب في أساس دعوى أن كل توثيقات الرجاليين كالنجاشي والطوسي مبنية على الحس، حيث ثبت عند جملة من الرجاليين قديما وحديثا أن بعض التوثيقات مبنية على الحدس والإجتهاد وليس على الحس، وهذا ما يعني فتح باب الإجتهاد في علم الرجال وعدم الإقتصار على ما سطره المتقدمون في جرح وتعديل المفردات الرجالية.

ومن تلك المفردات التي ضعفها النجاشي المفضل بن عمرو وكذا جابر بن يزيد الجعفي وغيرهم وذلك لكونهم ممن رووا في المعارف العالية، حيث لا تتقبلها مدرسة النجاشي الكلامية.

ولا يخفى أن هذا الأمر له خطورته على مستوى تحجيم التراث وتسييجه بسياج معرفي معين ضيق يصادر على أساسه بقية المدارس المعرفية ومن ثَمَّ يضيع كثير من الحقائق المعرفية نتيجة هذه الوصاية في الجرح والتعديل فلاحظ.

ومن أراد مزيدا من البحث فعليه بمراجعة كتاب أستاذنا المحقق الشيخ محمد السند حفظه الله الإجتهاد والتقليد في علم الرجال وأثره في التراث العقائدي (دراسة نقدية لمدرسة النجاشي).

فمن فوائد الخبر الضعيف:

١ـ أن له دوراً كبيراً في المستحبات والمكروهات خصوصاً إذا بنينا على مبنى التسامح في أدلة السنن كما في روايات من بلغ، وهذه مسألة بحثها أعلامنا في أبحاث القواعد الفقهية، فراجع.

٢ـ الأخبار الضعيفة إذا احتفت بقرائن توجب الإطمئنان بصدوره وربما تفيدنا القطع بالصدور، سواء كانت القرائن داخلية أم خارجية.

قال الميرزا النوري قدس سره: "هذا خبر محفوف بقرائن الصدق فيكون حجة، فإن الخبر المحفوف بالقرائن ـ وإن ضعُف ـ يكون حجة بالإتفاق، بل أقوى من الصحيح الخالي عن القرائن"[1].

٣ـ الشهرة: حيث أن الخبر الضعيف يعوَّل عليه في مقام العمل إذا تلقاه العلماء بالقبول ومن ثَمَّ جاء مبنى الجابرية والكاسرية في العمل بالروايات، فما عمل به المشهور قُبل وما أعرض عنه المشهور لم يقبل، كما هو عليه مشهور الأعلام في ذلك، وإن خالف بعض الأعلام هذا المبنى، فلاحظ.

٤ـ دور الخبر الضعيف في الحصول على المستفيض والمتواتر، حيث أن الإستفاضة والتواتر لا تتوقف على الروايات ذات السند الصحيح، بل تتحقق حتى من الأخبار الضعيفة سنداً، ومن ثَمَّ أن إلغاء الأخبار الضعيفة يفقدنا التواتر والإستفاضة وهذه مسألة خطيرة جداً، قال الشهيد الأول قدس سره:

---

(١) مستدرك الوسائل، الخاتمة ج٥ ص٤٤ للميرزا النوري قدس سره.

"إذا كان للحديث الواحد طرق متعددة وأسانيد متنوعة فسنة أهل الحديث أنهم لا يهتمون بتصحيح السند والتعمق في حال رجاله ويلحقون مثل هذا بالمتواترات أو المستفيض"[١].

٥ـ إن الخبر الضعيف إذا كان ذا مضمون صحيح كما لو كان لاستدلال عقلي على مسألة ما أو ما شاكل ذلك فإنه يؤخذ به ولا يلحظ في ذلك السند، وهذه مسألة أفضنا فيها في حجية المضمون.

٦ـ في الأخبار الضعيفة دور في باب المواعظ والسيرة وما شاكل ذلك، قال الشيخ الأنصاري رحمه الله نقلاً عن الشهيد الثاني قدس سره في الدراية ما نصه: "جوَّز الأكثر العمل بالخبر الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في صفات الله وفي أحكام الحلال والحرام، وهو حسن حيث لم يبلغ الضعيف حد الوضع والإختلاق"[٢].

فهذه بعض فوائد الخبر الضعيف وأقفلنا عن البعض الآخر مراعاة للإختصار.

هذا مضافاً إلى عدم جواز الرد ورفض الروايات كما أشرنا إلى ذلك في بحث سابق[٣].

---

(١) القواعد والفوائد ج١ ص٢٢٢ للشهيد الأول قدس سره.

(٢) رسائل فقهية ص١٥٧ للشيخ الأعظم الأنصاري قدس سره.

(٣) تجدر الإشارة إلى وجود دراسات متعددة في أهمية الخبر الضعيف والموقف الشرعي منه، كما ذكرها جملة من الأعلام في أبحاث علم الرجال وتوجد رسالة مختصرة في هذا الصدد وهي رسالة الخبر الضعيف فوائده وموقفنا الشرعي منه للشيخ علي عيسى الزوَّاد وغيرها من دراسات، ←

كلام للفيض الكاشاني قدس سره:

وفي بيان دور الفقيه والخبير بالعلوم والمعارف وقدرته على اكتشاف صحة الرواية من متنها قال فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة المحدث الكبير الفيض الكاشاني قدس سره ما نصه: "وليس لهذا الأمر ـ الخطير ـ مقصوده تفسير القرآن ـ والإتيان بمثل هذا التفسير إلا ناقد بصير ينظر بنور الله ويؤيده روح القدس بإذن الله ليشاهد صدق الحديث وصحته من إشراق نوره ويعرف كذبه وضعفه من لحن القول وزوره فيصحح الأخبار بالمتون دون الأسانيد"[1].

النتيجة:

وعلى هدي ما تقدم من هذه الأجوبة السبعة يتضح لنا خواء وعدم صحة هذه الإشكالية والتي تهدف إلى الحشوية المعرفية والإبتعاد عن الأسس العقلية والمحكمات القرآنية والعترتية كميزان في البحث العقائدي والمعارفي.

وفي ختام هذا الفصل نشير إلى كلام له أهميته في بلورة ما نرنوا إليه من أن الأبحاث العقلية والمعارف الحقيقية مبثوثة في القرآن وكلمات

فراجع.

(١) تفسير الصافي للفيض الكاشاني ج ١ ص ١١.

المعصومينعليهم السلام ولكن تحتاج إلى آليات معرفية لاستنطاقها واستخراج تلك الآلئ من بحورها.

قال الفقيه والحكيم الفيض الكاشانيقدس سره ما نصه: "هذه رموز ربانية، أوتيتها من فضل الله، وكنوز عرفانية انتقدتها من نفائس خزائن أهل الله، وأنوار ملكوتية، اقتبستها من مشكاة المستضيئين بنور الله، وأسرار جبروتية، ألتمستها من هدي الراسخين في العلم من أولياء الله، قد صرفت أياماً من عمري في مدارستها، متعمقاً في استكشاف حقائقها، وقضَّيت أعواماً من دهري في ممارستها، ممعناً في استطلاع دقائقها، بتمرينها مرة بعد أخرى، وتليينها كرَّة غبَّ أولى، حتى ازدادت لنفسي إشراقاً، واعتباراً، وضياءً، واستبصاراً، فكشفت عني أكنة أستارها، وتبينت لي أعلامها، ومنارها، ببراهين نورانية، أو إلهامات رحمانية، أو إشارات فرقانية، أو أمارات ذوقية وجدانية، فاطمأنت نفسي إليها، وسكن قلبي لديها، وانشرح صدري لها، كمن قد وجد ضالة له، عزيزة عليه، بلى إن الحكمة ضالة المؤمن، والحكمة أعز على أهلها من الدنيا بما فيها، لأنهم بالحكمة عرفوها، فاستقذروها، واستنكفوا عنها، وتركوها لأهلها وبنيها، وشمَّروا لما هو خير وأبقى، تشميراً.

وبالجملة: مَن يؤتى الحكمة فقد أوتيَ خيراً كثيراً.

وإنما حداني إلى إملاء ذلك وجمعه أمورٌ...

ومن الأمور التي أشار إليها هي:

ومنها: تبيان أنها منطبقة على طريقة أهل البيتعليهم السلام، مقتبسة من

أنوارهم وآثارهم، موزونة بميزان أحاديثهم وأخبارهم، لئلا يبادر أحد إلى إنكارها، حسبما قال مولانا الإمام أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام: «كل علم لا يخرج من هذا البيت فهو باطل»(١)، وأشار بيده إلى بيته.

وقال لبعض أصحابه: «إذا أردت العلم الصحيح فخذ عن أهل البيت، فإنا رويناه، وأوتينا شرح الحكمة، وفصل الخطاب، إن الله اصطفانا وآتانا ما لم يؤت أحد من العالمين»(٢).

فأردت أن أذكر طرفاً مما ورد من الأخبار عن نبينا وعترته الأطهار، صلوات الله وسلامه عليهم، في أصول الدين، مما وصل إليَّ بطريق معتبر، مع شرح وتوضيح لبعضها، مما ينال إليه فهمي، ومبلغي من العلم، وقسطي من المعرفة في كل باب، وليتبين للناس أن أمثال هذه المعارف والأسرار واردة عن صاحب الشرع صلوات الله عليه وآله، على وجه أعلى وأتم، وأن حكماء أهل البيت وعلماءهم صلوات الله عليهم، نطقوا بمخ الحكمة تصريحاً وتلويحاً، وأتَوا بلباب العلم رمزاً وكشفاً، على حسب تفاوت درجات المخاطبين، وأنهمعليهم السلام صعدوا ذرى الحقائق بأقدام النبوة والولاية، ونوروا طبقات أنوار أعلام الفتوى بالهداية، بل سائر العلماء والحكماء، من الأولين والآخرين، إنما استضاؤوا بأنوارهم، واقتبسوا من روحانيتهم في عالم الأرواح، فالكليم أُلبس حلة الأصطفاء لما عهدوا منه الوفاء وروح

---

(١) بصائر الدرجات ص ٥١١ ح ٢١.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٢٦ ص ١٥٨.

القدس في جنان الصاغورة ذاق من حدائقهم الباكورة، وشيعتهم الفرقة الناجية، والفئة الزاكية، سيما رئيسهم وسيدهم، سيد الموحدين، وإمام المتقين، علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فإنه كان في عالم الأنوار معلم جبرئيل الأمين، وكان قد فقأ عين الفتنة بباطنها، وظاهرها، وكان لا يُسئل عن شئ دون العرش إلا أجاب فيه، وفي كلامه شفاء من كل داء، وهو دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق، وقد نطق بالأسرار الإلهية مع فقدان الحَمَلَة، مما لا يطيق حمله الفحول من العارفين، فكيف مَن لو وجدهم صلوات الله عليه؟»[1].

---

(١) كتاب عين اليقين الملقب بالأنوار والأسرار للمحدث العارف الفيض الكاشاني ج١ ص٢٠.

◊

الفصل السادس

الإهتمام العقائدي عند النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام

* المحور الأول: المعصوم عليه السلام والمراجعة العقائدية

* المنظومة العقائدية (عرضٌ وتأييد)

* حُسن الخلق من ثمرات العقيدة الصحيحة

* المحور الثاني: الأئمة عليهم السلام وتصحيح المعتقدات الخاطئة

* المحور الثالث: دور النخبة التخصصية في المعارف الإلهية

* تنامي ظاهرة التخصص في زمن الإمامين الصادقين عليهما السلام

◊

من الوضوح بمكان مدى أهمية الشأن العقائدي عند النبي والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وذلك لما اتضح من مباحث سابقة من ترتب المنهج السلوكي والقيمي للإنسان على العقيدة والرؤية الكونية لكونها القاعدة التي ينطلق منها الإنسان في سلوكه إلى الله سبحانه وتعالى.

حيث يجد المتتبع والباحث في رواياتهم عليهم السلام نماذج كثيرة جداً لهذا الإهتمام وهي فوق الإحصاء ومن ثَمَّ نحاول أن نشير إلى هذا الإهتمام ضمن محاور الثلاثة خلالها نقرأ المشهد العقائدي بوضوح وجلاء.

المحور الأول: المعصوم عليه السلام والمراجعة العقائدية:

نشير في هذا المحور إلى مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام بالشأن العقائدي والرؤية الكونية وتتجلى لنا هذه الحقيقة من خلال نماذج ثلاثة يجمعها جامع واحد وهو ضرورة عرض المعتقدات ومراجعتها والتدقيق فيها ومعرفة الصحيح من الباطل ليكون الإنسان دائما على استعداد وجهوزية تامة مستعداً للإنتقال إلى العالم الآخر بعقائد حقة في أي وقت من الأوقات وذلك نتيجة النضج العقائدي والرؤية الصحيحة وهذا ما يحتاج إلى المراجعة

الصحيحة للعقائد،وعدم الغفلة عنها خصوصاً إذا أدركنا هذه الحقيقة وهي أن الإنسان يُحشر يوم القيامة على مرتبته الإعتقادية.

النموذج الأول: النبي صلى الله عليه وآله وحمزة أسد الله ورسوله:

في هذا النموذج نجد أن النبي صلى الله عليه وآله لحرصه. واهتمامه بالشأن العقائدي يتحدث مع أسد الله وأسد رسوله حمزة عليه السلام في ليلة شهادته في أُحُد عن ضرورة الإعتقاد بجملة من الحقائق التي تمثل الرؤية الكونية الصحيحة للإنسان المؤمن فإليك هذه الرواية الكاشفة عن هذا الأمر الخطير.

عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «لما كانت الليلة التي أُصيب حمزة في يومها دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا حمزة يا عمَ رسول الله: يوشك أن تغيب غيبة بعيدة فما تقول لو وردت على الله تبارك وتعالى وسألك عن شرايع الإسلام وشروط الإيمان فبكى حمزة وقال: بأبي أنت وأمي أرشدني وفهمني فقال يا حمزة: تشهد أن لا إله إلا الله مخلصا وأني رسول الله بعثني بالحق فقال حمزة: شهدت وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها والصراط حق والميزان حق ومَن يعمل مثال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وفريق في الجنة وفريق في السعير وأن علياً عليه السلام أمير المؤمنين. قال حمزة: شهدت وأقررت وآمنت وصدقت وقال: الأئمة من ذريته الحسن والحسين، وفي ذريته.

قال حمزة: آمنت وصدقت وقال: فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين قال: نعم صدقت قال: وحمزة سيد الشهداء وأسد الله

وأسد رسوله وعم نبيه فبكى حمزة وقال: نعم صدقت وبررت يا رسول الله وبكى حمزة حتى سقط على وجهه وجعل يقبل عيني رسول الله ﷺ وقال: جعفر ابن أخيك طيار في الجنة مع الملائكة وأن محمداً ﷺ خير البرية وتؤمن يا حمزة بسرهم وعلانيتهم وظاهرهم وباطنهم وتحيى على ذلك وتموت توالي من والاهم وتعادي من عاداهم قال: نعم يا رسول الله اشهد الله وأشهدك وكفى بالله شهيداً فقال رسول الله ﷺ: سددك الله ووفقك»[١].

قراءة معرفية:

إن قراءة هذه الرواية الشريفة قراءة دقيقة وعبر آليات معرفية تظهر لنا جملة من الحقائق وهي:

أن النبي ﷺ أوضح لحمزة عليه السلام جملة من المعتقدات والمقامات التي يجب أن يعقد قلبه عليها وتتحد مع وجوده لكونها تمثل الحقيقة والهوية التي ينبغي أن يكون الإنسان عليها عند لقاء الله سبحانه وتعالى وذلك لكون حقيقة الإنسان تكمن في علمه وعمله أي عقيدته وسلوكه.

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[٢] وذلك لكون حقيقة الإنسان ذلك السعي حيث يحشر يوم القيامة على مرتبته الإعتقادية فلابد إذن من الإهتمام بالشأن العقائدي.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٢ ص٢٩٨ ح٣٢.

(٢) النجم٣٩.

ومن هذه العقائد الإشارة إلى أهمية معرفة الله تعالى والتي تكمن في توحيده والإخلاص له سواء في البعد العقائدي أم السلوكي ومن ثَمَّ نفهم شيئاً من كلام سيد الموحدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما قال: «أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ...إلخ»[1] أهمية المعرفة التوحيدية وأنها المنطلق لكل كمال.

وكذا الإعتقاد بالنبوة المتمثلة في الخاتم صلى الله عليه وآله وكونه خير البرية وأكمل الممكنات.

وعلى المسار نفسه الإعتقاد بالإمامة الإلهية المتمثلة في علي عليه السلام وذريته المعصومة صلوات الله عليهم أجمعين وكونه صاحب مقام أمير المؤمنين عليه السلام وهذا مقام مخصوص له دون سائر الأئمة عليهم السلام.

وأيضاً تمت الإشارة في هذه الوثيقة المعرفية إلى ضرورة الإعتقاد بمقام الصديقة الزهراء عليها السلام وأنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

وكذا الإعتقاد بيوم القيامة وما يجري فيه.

وأيضاً أكدت الرواية الشريفة على ضرورة الإعتقاد بمقام حمزة وكونه سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله ومقام جعفر وكونه الطيار في الجنة مع الملائكة وكذا الإعتقاد بسرهم وظاهرهم والتولي لهم عليهم السلام والتبرِّي من أعدائهم وكذا الحياة على ما حيوا عليه والممات على ما ماتوا

---

(١) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده خطبة١.

عليه. ورد في الدعاء الشريف: «اللهم أحيني على ما حيي عليه علي بن أبي طالب وأمتني على ما مات عليه علي بن أبي طالب عليه السلام»[(١)].

فهذه إشارات لمعتقدات ومقامات لابد من الإعتقاد بها لكي يتكامل بها الإنسان المؤمن في عقيدته فإن العقيدة هي الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

وورد قريب من هذا المضمون في سؤال النبي صلى الله عليه وآله لسلمان وأبي ذر والمقداد وأنه علمهم كيفية الإعتقاد الصحيح فراجع الرواية[(٢)].

---

(١) كامل الزيارات لابن قولويه القمي قدس سره ص١٠٢ فصل زيارة أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) عن موسى بن جعفر، عن أبيه عليهما السلام قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وآله أبا ذر وسلمان والمقداد فقال لهم: تعرفون شرائع الاسلام وشروطه؟ قالوا: نعرف ما عرفنا الله ورسوله، فقال: هي والله أكثر من أن تحصى، أشهدوني على أنفسكم وكفى بالله شهيدا، وملائكته عليكم شهود، بشهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً لا شريك له في سلطانه، ولا نظير له في ملكه، وأني رسول الله بعثني بالحق، وأن القرآن إمام من الله وحكم عدل، وأن القبلة قبلتي شطر المسجد الحرام لكم قبلة، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام وصي محمد وأمير المؤمنين ومولاهم، وأن حقه من الله مفروض واجب، وطاعته طاعة الله ورسوله، والأئمة من ولده، وأن مودة أهل بيتي مفروضة واجبة على كل مؤمن ومؤمنة، مع إقامة الصلاة لوقتها، و إخراج الزكاة من حلها، ووضعها في أهلها، وإخراج الخمس من كل ما يملكه أحد من الناس حتى يرفعه إلى ولي المؤمنين وأميرهم، وبعده إلى ولده فمن عجز ولم يقدر إلا على اليسير من المال فليدفع ذلك إلى الضعفاء من أهل بيتي من ولد الأئمة، فإن لم يقدر فلشيعتهم ممن لا يأكل بهم الناس، ولا يريد بهم إلا الله وما وجب عليهم من حقي، والعدل في الرعية، والقسم بالسوية، والقول بالحق وأن يحكم بالكتاب على ما عمل عليه أمير المؤمنين عليه السلام وبالفرايض على كتاب الله وأحكامه، وإطعام الطعام على حبه، وحج البيت، والجهاد في سبيل الله فإن لم يقدر فلشيعتهم ممن لا يأكل بهم الناس، ولا يريد بهم إلا الله وما وجب

مع الإمام الباقر عليه السلام:

وعلى المسار نفسه نجد حفيد النبي صلى الله عليه وآله الإمام الباقر عليه السلام باقر علم الأولين والآخرين يطلب من بعض أصحابه الخلص أن يعرض عليه عقائده كما نجد ذلك في هذه الرواية الواردة في علل الشرايع:

عن سدير قال أبو جعفر عليه السلام ومعي ابني سدير: «اذكر لنا أمرك الذي أنت عليه فإن كان فيه إغراق كففناك عنه وإن كان مقصرا أشردناك قال: فذهبت أنا أتكلم فقال أبوجعفر عليه السلام: أمسك حتى أكفيك أن العلم الذي وضع رسول الله صلى الله عليه وآله عند علي عليه السلام مَن عرفه كان مؤمنا ومن جحده

عليهم من حقي والبراءة والعداوة لمن عاداهم وشاقهم كعداوة الشيطان الرجيم، والبراءة ممن شايعهم وتابعهم، والاستقامة على طريقة الامام، واعلموا أني لا أقدم على علي أحدا، فمن تقدمه فهو ظالم، والبيعة بعدي لغيره ضلالة وفلتة وذلة، الأول ثم الثاني ثم الثالث وويل للرابع ثم الويل له، وويل له ولأبيه مع ويل لمن كان قبله وويل لهما ولأصحابهما لا غفر الله لهما، فهذه شروط الاسلام وما بقي أكثر، قالوا: سمعنا وأطعنا وقبلنا وصدقنا، ونقول مثل ذلك، ونشهد لك على أنفسنا بالرضا به أبدا حتى نقدم عليك آمنا بسرهم وعلانيتهم ورضينا بهم أئمة وهداة وموالي، قال: وأنا معكم شهيد ثم قال: نعم، وتشهدون أن الجنة حق وهي محرمة على الخلائق حتى أدخلها قالوا: نعم، قال: وتشهدون أن النار حق، وهي محرمة على الكافرين حتى يدخلها أعداء أهل بيتي، والناصبون لهم حربا وعداوة، ولاعنهم ومبغضهم وقاتلهم كمن لعنني أو أبغضني أو قاتلني وهم في النار قالوا: شهدنا وعلى ذلك أقررنا، قال: وتشهدون أن عليا صاحب حوضي، والذائد عنه، وهو قسيم النار، يقول: ذلك لك فاقبضيه ذميما، وهذا لي فلا تقربنه، فينجو سليما؟ قالوا: شهدنا على ذلك ونؤمن به، قال: وأنا على ذلك شهيد ـ كتاب الطرف للسيد ابن طاووس ص١١ ـ ١٣.

كان كافراً ثم كان من بعده الحسن عليه السلام قلت: كيف يكون بتلك المنزلة وقد كان منه ما كان دفعها إلى معاوية؟ فقال: أسكت فإنه أعلم ما صنع لولا ما صنع لكان أمر عظيم»[١].

يتضح من خلال هذه الرواية الشريفة والكلمة النورية العظيمة مدى حرص الإمام الباقر عليه السلام وهو باقر علم الأولين والآخرين كما وصفه جده صلى الله عليه وآله ضرورة عرض المعتقد على المعصوم لكي يقوم بعملية التصحيح فمن هنا قال: «أذكر لنا أمرك الذي أنت عليه» وهذا يكشف لنا عن خطورة الشأن العقائدي فلذا قال له (إن كان فيه إغراق) يعني إن كان فيه عدم وضوح العقيدة أو ينتابها أو يتخللها شئ من الباطل أو كان مقصرا في مراتب التوحيد أو معرفة النبي والأئمة عليهم السلام فإن الإمام يقوم بالتصحيح والإرشاد كما قال عليه السلام: (أرشدناك).

من قواعد الإمامة الإلهية:

في هذه الكلمة النورية يُؤصِّلُ الإمام عليه السلام أصلاً مهما في مسألة الإمامة الإلهية ألا وهو أن من أركانها ومقوماتها العلم الإلهي الخاص الذي يتمتع به الإمام عليه السلام وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله والذي يكون عند الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ثم ابنه الحسن والحسين ثم بقية الأئمة عليهم السلام وبهذه القاعدة التي أسسها الإمام عليه السلام يزيل كل شبهة قد ترد على أفعالهم وتصرفاتهم

---

(١) علل الشرايع للصدوق ج١ ص٢٠٧ باب١٥٩ ح١ وورد مثله في بحار الانوار ج٤٤ ص١ ح١.

وذلك لكونهم معصومين لا يأتي الخطأ في ساحتهم لكون العصمة منشأها العلم أي المعرفة التامة بالله سبحانه وتعالى وبكافة الحقائق والذي عبَّر عنه عليه السلام في هذه الرواية بقوله (أمسك حتى أكفيك ...) ثم قال: «من عرفه كان مؤمنا ومن جحده كان كافراً».

وفي هذا إشارة إلى خطورة هذا المعتقد وضرورته في المنظومة العقدية وذلك أن الإنسان لا يكون مؤمنا حقا بالإمامة الإلهية إلا بالإعتقاد بأن عندهم عليهم السلام علماً إليها خاصا ثم النص الكاشف عن العصمة ثم ديمومتها المتمثلة في وجودهم عليهم السلام.

وعلى أساس هذا التصحيح وهذا التأسيس دفع الإمام عليه السلام الإشكالية التي طرحها سدير في أن الإمام الحسن عليه السلام سلمها إلى معاوية بقوله: «فإنه أي الإمام الحسن أعلم بما صنع لولا ما صنع لكان أمر عظيم» حيث أن الإمام عليه السلام طبق هذا الأصل وهذه القاعدة على فعل الإمام الحسن عليه السلام لكونه عالم بعلم إلهي خاص وبالتالي فهو معصوم في فعله ولولا فعله لكان أمر خطير فسلام على الإمام الحسن المظلوم ما بقي الليل والنهار.

هذا ما أمكننا الإستفادة من هذه الرواية الشريفة وإلا فالإستدلال والتحليل في أجواء هذه الرواية له مجال واسع.

النموذج الثاني: أصحاب الأئمة عليهم السلام وعرض العقيدة:

إن الخلَّص من أصحاب الأئمة عليهم السلام والذين لهم شأن عظيم والحائزين على المراتب العالية في العلم والعمل نجدهم يهتمون بمسألة

عرض العقيدة على الإمام المعصوم عليه السلام فلا يكتفون بمجرد ما عندهم وما يختزنونه من معارف. لكونه هو القادر على تصحيح المسارات العقائدية.

وهذا الأمر ما نجده واضحا في مسار وحياة العالم والفقيه الحقيقي الشاه عبدالعظيم الحسني رحمه الله المنحدر من سلالة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام والمعروف بـ(الشاه عبدالعظيم) والذي له مقام عظيم عند الأئمة عليهم السلام حيث حاز على المرتبة العالية من العلم والعمل وكان ذلك بسبب صدق اتباعه للأئمة المعصومين عليهم السلام وهذا ما تكشفه لنا الرواية التي ننقلها بطولها ليجد المتتبع فيها والمتأمل في كلماتها وفق الآليات والموازين العلمية الدقيقة ما تحويه من كنوز معرفية لو تأملها حق التأمل فإليك نصها:

عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: دخلت على سيدي علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق عليهم السلام فلما أبصرني قال: «لي مرحباً بك يا أبا القاسم أنت ولينا حقا قال: فقلت: يا بن رسول الله إني أريد أن اعرض عليك ديني فإن كان مرضيا أثبت عليه حتى ألقى الله عز وجل، فقال: هات يا أبا القاسم، فقلت: إني أقول إن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شئ خارج من الحدين حد التعطيل وحد الإبطال وحد التشبيه، وأنه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسم الأجسام ومصور الصور، وخالق الأعراض والجواهر، ورب كل شئ، ومالكه وجاعله ومحدثه، وانه حكيم لا يفعل القبيح ولا يخل بالواجب، وأن محمدا عبده ورسوله خاتم النبيين فلا نبي بعده إلى يوم القيامة وأن شريعته خاتمة الشرائع لا شريعة بعدها إلى يوم القيامة وأقول: إن الإمام والخليفة ووالى

الأمر بعده أمير المؤمنين علي بن طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم أنت يا مولاي فقال عليه السلام: ومن بعدي، الحسن ابني وكيف الناس بالخلف من بعده، قال: فقلت: وكيف ذلك يا مولاي، قال عليه السلام: لأنه لا يرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه حتى بخرج فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا قال: فقلت: أقررت، وأقول إن وليهم ولى الله وعدوهم عدو الله وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله وأقول: إن المعراج حق والمساءلة في القبر حق وان الجنة حق، والنار حق، والصراط حق والميزان حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وأقول: إن الفرائض الواجبة بعد الولاية الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحقوق الوالدين فقلت: هذا ديني ومذهبي وعقيدتي ويقيني قد أخبرتك به، فقال علي بن محمد عليه السلام: يا أبا القاسم هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده فاثبت عليه ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة »[(١)].

المنظومة العقائدية (عرض وتأييد):

يتضح لنا من هذه الرواية الشريفة أن عبدالعظيم الحسني رحمه الله عرض منظومته العقائدية بتمامها على الإمام الهادي عليه السلام حيث صدَّرها بقوله: (إني

---

(١) مجموعة رسائل الصدوق قدس سره ـ صفات الشيعة ص ٤١.

أريد أن أعرض عليك ديني فإن كان مرضيا أثبت عليه حتى القى الله عز وجل) ومن ثَمَّ ابتدأ رضوان الله تعالى عليه بأصول المعتقد فابتدأ بالتوحيد ومعتقداته فيه ثم ما يعتقده في النبوة والإمامة وما يرتبط بالمعاد وما يجري فيه ثم عطف الحديث إلى أهم الفروع وما ينبغي عليه العمل في المسار السلوكي.

فهذه الرواية الشريفة وأمثالها تحتاج إلى دراسة مستقلة تعنى بشؤونها وتحليلها وفق آليات علمية كلامية كانت أم فلسفية أم عرفانية وهذا أمر موكول إلى محله وإنما ذكرنا هذه الرواية لكي نؤكد ضرورة عرض المعتقد على الأئمةعليهم السلام إن كان في زمن الأئمةعليهم السلام أو على المختصين من العلماء في الشأن العقائدي كما هو في زمن الغيبة، ومن ثَمَّ يتضح عدم الإقتصار على عرض أعمالنا من وضوء وصلاة وما إلى ذلك على المختصين في الشأن الفقهي بل إن الأمر في عرض العقيدة أهم وأخطر لكون الأعمال والفروع متوقفة على العقيدة وإن قيمتها بقيمة تلك العقيدة التي تقوم عليها وتنصبغ بها فكلما كانت العقيدة أجلى وأصح يكون العمل أجلى وأصح والعكس بالعكس، فالعقيدة هي الأساس والمنطلق لحركة الإنسان نحو الله سبحانه وتعالى، كما ألمعنا إلى ذلك سابقاً.

إذن لابد لنا أن نقتدي بهذا العالم الفقيه والمحدث الجليل في عرض عقائده على المعصومعليه السلام ليعرف الصحيح من غيره حتى لا يخرج من هذه الدنيا إلا ومعه المعتقد الحق، ومن ثمَّ نجد أن الإمامعليه السلام دعا له بأن يثبته الله تعالى على هذا الدين.

تجدر الإشارة إلى أن هذا المعتقد الذي ورد في هذه الرواية الشريفة هو مرتبة من مراتب العقيدة لكونها أمر مشكك لها مراتب في الشدة والضعف وهذا بحث في محله سنشير إلى شئ منه في فصل لاحق - أي في مراتب الإعتقاد - يأتي إن شاء الله تعالى.

النموذج الثالث: العقيدة الصحيحة والإستقامة في السلوك:

لا يخفى مدى التلازم بين العقيدة الصحيحة والسلوك المستقيم. وهذه حقيقة أكد عليها الأئمة المعصومون عليهم السلام في وصاياهم الكثيرة حيث نجد أنهم عليهم السلام يؤكدون على شيعتهم ومحبيهم بانتهاج منهج الإستقامة والسلوك الصحيح ليكون أمارة وطريقا يكشف عن عقيدتهم الصحيحة.

ومن ثَمَّ نشير إلى هذه الحقيقة وخطورتها في تصحيح المعتقدات الخاطئة عند الآخرين عبر السلوك والإستقامة عند أتباع الأئمة عليهم السلام.

رُويَ في باب البر بالوالدين عن زكريا بن إبراهيم قال: (كنت نصرانيا فأسلمت وحججت فدخلت. على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: إني كنت على النصرانية وإني أسلمت، فقال: وأي شئ رأيت في الإسلام؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ﴾ فقال: «لقد هداك الله، ثم قال: اللهم اهده - ثلاثا - سل عما شئت يا بني فقلت: إن أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر فأكون معهم وآكل في آنيتهم؟ فقال: يأكلون لحم الخنزير؟ فقلت: لا ولا يمسونه، فقال: لا بأس فانظر أمك فبرها، فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها ولا تخبرنَّ أحدا أنك أتيتني حتى

تأتيني بمنى إن شاء الله قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنه معلم صبيان، هذا يسأله وهذا يسأله، فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية؟ فقلت: رجل من ولد نبينا أمرني بهذا، فقالت: هذا الرجل هو نبي؟ فقلت: لا ولكنه ابن نبي، فقالت: يا بني إن هذا نبي إن هذه وصايا الأنبياء، فقلت: يا أمه إنه ليس يكون بعد نبينا نبي ولكنه ابنه فقالت: يا بني دينك خير دين، اعرضه علي فعرضته عليها فدخلت في الإسلام وعلمتها، فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم عرض لها عارض في الليل، فقالت: يا بني أعد علي ما علمتني فأعدته عليها، فأقرت به وماتت، فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت أنا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها»[1].

حُسن الخلق من ثمرات العقيدة الصحيحة:

إن الإمام الصادق عليه السلام أكد على زكريا بن إبراهيم الذي كان نصرانيا سابقا بانتهاج نهج الإستقامة وحسن الخلق وذلك تفعيلاً لمعتقداته الصحيحة، فإن العقيدة الصحيحة لابد أن تفرز سلوكاً مستقيما يتناغم مع متطلباتها، وهذا أكدناه في فصل سابق عندما حيث أشرنا إلى أن مقولة العقيدة ليست مقولة تنظيرية وبعداً علمياً صرْفاً بل إن العقيدة تختزن في

---

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٠ ح ١١.

حناياها حرارة كافية لمنهجة الإنسان وصياغته صياغة إلهية بل قلنا أن التوحيد النظري هو مقدمة قريبة جدا للتوحيد العملي، فكلما خلص التوحيد النظري من شوب الشرك ألقى بظلاله على سلوك الإنسان ومنهجه في الحياة، ومن ثَمَّ أن كل معصية أو خطأ يصدر من الإنسان يكشف كشفا إنّيا عن خلل ما في المنظومة الإعتقادية ومن ثَمَّ نعرف (أن حسن الخلق من ثمرات العقل وأن سوء الخلق من ثمرات الجهل).

وعلى هدي هذه الحقيقة نجد التأكيدات والتوصيات الحثيثة من الأئمة المعصومين عليهم السلام على ضرورة كون الموالي لهم متحليا بأعلى مراتب الورع والإستقامة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنكم لن تستطيعوا ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد»[(١)].

وعن أبي أسامة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «عليك بتقوى الله، والورع والإجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زينا ولا تكونوا شينا، وعليكم بطول الركوع والسجود، فإن أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال: يا ويله أطاع وعصيت، وسجد وأبيت»[(٢)].

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٤٦٥ باب كتب أمير المؤمنين عليه السلام ووصاياه إلى أمراء جنده.

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي ج١ من المجلد ٦ ص١٩٢ ح ١٠.

وأيضا عنهعليه السلام قال: «كونوا دعاة للناس إلى الخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»[١].

فعلى هذا الأساس وصّى الإمام الصادقعليه السلام زكريا بن إبراهيم على ضرورة انتهاج منهج الصلاح وحسن الخلق وإيجاد الملائمة التامة بين عقيدته وسلوكه ليكون ذلك مُعبرا عن تساؤل الناس حول عقيدته وبالتالي يكون مدخلا لعرض معارفه وعقائده على الناس لكون الإنسان مفطوراً على إدراك الملازمة والملائمة بين السلوك الصحيح والمستقيم وبين العقيدة الصحيحة وهذا ما كشفته لنا هذه الرواية الشريفة عن اهتمام أمه بالسؤال عن دينه وعقيدته عندما رأته يحسن لها إحسانا لم يكن يتعامل به عندما كان نصرانياً وكانت النتيجة من كل هذا الأمر أنها آمنت وحسن إيمانها وانتقلت إلى بارئها بنفس مطمئنة وبعقيدة صحيحة رحمها الله.

إلى هنا تم عرض نماذج ثلاث كشفت لنا عن أهمية عرض العقيدة و التثبت منها وبأساليب متعددة وقد يجد المتتبع في تراث الأئمة المعصومينعليهم السلام أساليب أخرى استخدموها في هذا الشأن.

المحور الثاني: الأئمةعليهم السلام وتصحيح المعتقدات الخاطئة:

إتبع الأئمة المعصومونعليهم السلام في الإهتمام بالشأن العقائدي والمعارفي أُسلوبا متميزاً وهو تصحيح المعتقدات الخاطئة عند البعض.

(١) المصدر السابق ص ١٩٢ ح ١٣

ولا يخفى أهمية هذا البحث لكونه يكشف لنا جملة من القواعد الخاضعة للمنهج الصحيح عندهم عليهم السلام في تصحيح المسارات العقدية الخاطئة وهذا أمر يتطلب دراسة مكثفة تشمل كل ما يمكن الإحاطة به من تراثهم في هذا الصدد، وعلى أساسه نستطيع أن نضع قواعد أساسية وأُطُراً معرفية وموازين دقيقة نستشفها من خلال كلماتهم عليهم السلام وجعلها منهجاً نتبعه في هذا الصدد.

وإن شاء الله نوفق لإعداد دراسة مستقلة حول هذا المنهج الفريد من نوعه في التراث العقائدي عندهم عليهم السلام لكن نشير إلى نموذجين في هذا الصدد مع تعليق مختصر يتناسب معه وهذا البحث وإلا فإن البحث التفصيلي موكول إلى محله إن شاء الله تعالى.

النموذج الأول: (**لا تقل منتهى علمه**):

عن صفوان بن يحيى، عن الكاهلي قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام في دعاء: الحمد لله منتهى علمه، فكتب إليَّ «لا تقولنَّ منتهى علمه، فليس لعلمه منتهى ولكن قل: منتهى رضاه»[1].

إن هذه الرواية الشريفة الواردة والكلمة النورية العظيمة عن الإمام الرضا عليه السلام عالم آل محمد صلى الله عليه وآله تكشف لنا عن تصحيح معرفي قام به عليه السلام في مسألة الصفات الإلهية، فلكي يتضح لنا مقصود الإمام عليه السلام وبنحو

(١) أصول الكافي ج ١ ص ١٠٧ باب صفات الذات ح ٣، التوحيد للصدوق ص ١٣٤.

مختصر نشير إلى هذه الحقيقة وهي:

*** انقسام الصفات الإلهية:**

إن الصفات الإلهية تنقسم إلى صفات ثبوتية وصفات سلبية والصفة الثبوتية هي ما تثبت لله تعالى والصفة السلبية هي ما تُسلب عنه عزَّ ذكره، وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

قال صدر المتألهين قُدِّسَ سِرُّهُ حول استفادته من هذه الآية: "الصفة إما إيجابية ثبوتية وإما سلبية تقديسية، وقد عبر الكتاب عن هاتين بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فصفة الجلال ما جلَّت ذاته عن مشابهة الغير وصفة الإكرام ما تكرمت ذاته بها وتجملت"[2].

وأيضاً أن الصفة الثبوتية بدورها تنقسم إلى قسمين صفة ذاتية وصفة فعلية.

والجدير بالذكر أن هذا التقسيم لا يوجد إلا عند علماء الإمامية أتباع أهل البيت عليهم السلام ولو وجد عند غيرهم فالضابطة غير واضحة ومن ثَمَّ نجد في كلمات العلماء ضابطتين للتمييز بين الصفتين الذاتية والفعلية:

---

(١) الرحمن ٧٨.

(٢) الحكمة المتعالية ج٦ ص ١١٨.

أ ـ الضابطة الكلامية:

تشير إلى أن كل صفة يقبلها الله تعالى ويقبل ضدها فهي صفة فعلية مثل الرضا والغضب فالله تعالى يرضى ويغضب ويحب ويكره وما إلى ذلك كالخالقية والرازقية وأمثالها.

وأما إذا كانت الصفة يقبلها الله ولا يقبل ضدها فهي صفة ذاتية كالحياة والعلم والقدرة.

وأن الصفة الذاتية عين ذاته سبحانه وتعالى غير زائدة عليه وهذا بحث مهم في عينية الصفات موكول إلى محله.

فالواجب تعالى هو المصداق لكل كمال وجودي ولا يشذ عنه أي كمال من الكمالات، فكلها موجودة بوجود واحد.

وممن ذكر هذه الضابطة ثقة الإسلام الشيخ الكليني قدس سره في أصول الكافي حيث قال ما نصه: "إن كل شيئين وصفت الله بهما وكانا جميعاً في الوجود فذلك صفة فعل، وتفسير هذه الجملة: أنك تثبت في الوجود ما يريد وما لا يريد وما يرضاه وما يسخطه وما يحب وما يبغض فلو كانت الإرادة من صفات الذات مثل العلم والقدرة كان ما لا يريد ناقضاً لتلك الصفة ولو كان ما يحب من صفات الذات كان ما يبغض ناقضاً لتلك الصفة ألا ترى أنا لا نجد في الوجود ما لا يعلم وما لا يقدر عليه وكذلك صفات ذاته الأزلي لسنا نصفه بقدرة وعجز [وعلم وجهل وسفه وحكمة وخطاء وعز] وذلة ويجوز أن يقال: يحب من أطاعه ويبغض من عصاه ويوالي من أطاعه ويعادي من عصاه وإنه يرضا ويسخط ويقال في الدعاء: اللهم ارض

عني ولا تسخط عليَّ وتولني ولا تعادني ولا يجوز أن يقال: يقدر أن يعلم ولا يقدر أن لا يعلم ويقدر أن يملك ولا يقدر أن لا يملك ويقدر أن يكون عزيزاً حكيماً ولا يقدر أن لا يكون عزيزاً حكيماً ويقدر أن يكون جواداً ولا يقدر أن لا يكون جواداً ويقدر أن يكون غفوراً ولا يقدر أن لا يكون غفوراً ولا يجوز أيضا أن يقال: أراد أن يكون رباً وقديماً وعزيزاً وحكيماً ومالكاً وعالِماً وقادراً لأن هذه من صفات الذات والإرادة من صفات الفعل، ألا ترى أنه يقال: أراد هذا ولم يرد هذا وصفات الذات تنفي عنه بكل صفة منها ضدها، يقال: حي وعالم وسميع وبصير وعزيز وحكيم، غني، ملك، حليم عدل، كريم فالعلم ضده الجهل والقدرة ضدها العجز والحياة ضدها الموت والعزة ضدها الذلة والحكمة ضدها الخطأ وضد الحلم العجلة والجهل وضد العدل الجور والظلم»[١].

ب ـ الضابطة الفلسفية:

تعتمد هذه الضابطة في التمييز بين صفة الذات وصفة الفعل على أن الصفة الذاتية هي التي تنتزع من الذات بقطع النظر عن أي شئ آخر كالحياة والعلم والقدرة.

وأن صفة الفعل هي التي تنتزع من مقام الفعل أي تحتاج إلى تحقق الغير مسبقاً كالخالقية التي تنتزع من فعل الحق وهو الخلق وكذا الرازقية.

---

(١) أصول الكافي ج ١ ص ١١١.

يقول العلامة السيد الطباطبائي قدس سره: "ومن وجه آخر تنقسم الصفات إلى صفات الذات وهي التي يكفي في انتزاعها فرض الذات وحسب، وصفات الفعل وهي التي يتوقف انتزاعها على فرض الغير وإذ لا موجود غيره تعالى إلا فعله فالصفات الفعلية هي المنتزعة من مقام الفعل"[(١)].

تجدر الإشارة إلى وجود فوارق بين هذين القسمين من الصفات حيث أن الصفة الذاتية لا متناهية لكونها عين الذات الإلهية وأما الصفة الفعلية فمتناهية وانها خارج الذات ومحدودة.

هذا مضافاً إلى أن الصفة الذاتية قديمة بقدم الذات والصفة الفعلية حادثة بحدوث الفعل.

قال أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله في هذا الصدد ما نصه: "تعود أهم الفروقات بين الإثنين إلى ما يلي:

أولا: الصفات الذاتية لا متناهية لأنها عين الذات أما الصفات الفعلية فمتناهية، وإلا فلا تقبل ما يقابلها علاوة على أنها زائدة على الذات فهي إذا محدودة.

ثانياً: الصفات الذاتية قديمة بقدم الذات بينما الصفات الفعلية حادثة بحدوث الفعل"[(٢)].

---

(١) نهاية الحكمة للعلامة الطباطبائي ص ٢٨٤.

(٢) كتاب التوحيد للعلامة السيد كمال الحيدري ج ١ ص ١٢٣.

وقفة معرفية:

على هدي ما تقدم يتضح لنا جلياً أن الإمام الرضاعليه السلام في هذه الرواية الشريفة مارس تصحيحاً عقائديا لأحد أصحابه عندما أرسل إليه هذه الرسالة مبتدءاً بقوله «الحمدلله منتهى علمه» حيث أوضحعليه السلام أن الخطأ في هذه المقولة هو جعله صفة العلم متناهية وهذا فيما يعني أنها صفة فعلية محدودة متناهية حادثة، وهذا مما يلزم محذوراً عقائدياً خطيراً جداً وهو أن الذات الإلهية عارية عن العلم والذي هو كمال وجودي ـ ولا يشذ عن الذات الإلهية الملآ بكل كمال وجودي والذي هو عين ذاته تعالى، حيث أشار الإمام الصادقعليه السلام إلى هذه الحقيقة بقوله: «العلم هو من كماله»[1] ـ فهذا أشبه بمقولة الكرّامية[2] الذين يعتقدون أن صفاته حادثة زائدة على الذات.

ومن هنا نجد أن الإمام الرضاعليه السلام قال له: «لا تقولنَّ منتهى علمه فليس لعلمه منتهى، ولكن قل منتهى رضاه» وهذا فيما يعني أن العلم من صفات الذات وهو عين الذات فالذات لا منتهى لها فكذا العلم لا منتهى له لكون العلم صفة ذاتية.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٤ ص ٨٣.

(٢) الكرّامية نسبة لمؤسسها محمد بن كرّام السجستاني توفي عام ٢٥٥هـ ولهذه الفرقة عقائد باطلة منها أن الله عز وجل محل للحوادث وأن صفاته زائدة على ذاته، وفيها فرق وصلت إلى إثني عشرة فرقة، راجع (الملل والنحل للشيخ جعفر السبحاني ج٣ ص٢٠١) بتصرف.

ومن ثَمَّ قال له عليه السلام إذا أردت أن تقول في الدعاء: «فلتقل منتهى رضاه» لكون الرضا صفة من صفات الفعل وهي صفة متناهية تنتهي ليبدأ ما يقابلها وهو الغضب.

وعلى ضوء ما تقدم نفهم معنى قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «يا فاطمة إن الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»[1] لكون الرضا والغضب من صفات الفعل لا من صفات الذات فيمكن أن يوجدا عند الحق سبحانه وتعالى.

هذا ما يمكن أن يقال في تحليل هذه الرواية الشريفة والكلام طويل لمن تأمل وتدبر ولمن مارس آلياته المعرفية بشكل صحيح.

النموذج الثاني: إن الله تعالى لا ينسب إلى العجز:

عن محمد بن أبي عمير، عن عمر بن أُذينة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن يصغِّر الدنيا أو يكبر البيضة ؟ قال: «إن الله تبارك وتعالى لا يُنْسَبُ إلى العجز، والذي سألتني لا يكون»[2].

إن هذه الرواية الشريفة والكلمة النورية العظيمة تكشف لنا وبدلالة مكثفة وواضحة إلى منهج سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام في معالجة

(١) بحار الأنوار ج٤٣ ص٢١.

(٢) التوحيد للصدوق ص ١٢٩ ح ٩.

إشكالية قائمة في القابل قد سحبها السائل إلى فاعلية الفاعل وقدرة الله المطلقة، حيث نجد أن الإمامعليه السلام مارس تصحيحاً عقائديا لمقولة خاطئة مفادها:

إن الله تعالى قادر على كل شئ حتى المحال في ذاته، ومن ثَمَّ قام الإمامعليه السلام بتوضيح الحقيقة وهي أن قدرة الله مطلقة وفاعليته تامة ولكن يبقى أن دائرة ومتعلق القدرة الإلهية هو كل أمر ممكن فإذا ما وجدنا أموراً محالةً فهي خارجة عن دائرة القدرة، فالأمور المحالة خارجة خروجاً موضوعياً تخصصياً لا خروجا حُكْمِيًّاً تخصيصياً، فالممتنعات بالذات لا يمكن أن توجد لكونها بطلان محض وإلا لو كانت ممكنة الوجود لما صارت ممتنعة بالذات وهذا مما يلزم التناقض أن ما فرض ممتنعا بالذات ليس ممتنعا بالذات وهذا خُلْفٌ والخلف يرجع في نهاية الأمر إلى التناقض والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ببداهة العقل.

إذن يتضح أن قدرة الله تامة وتشمل كل ما هو ممكن فلا يُنْسَبُ الله إلى عجز أبداً وإنما الإشكالية تكمن في قابلية القابل، فالقابل ممتنع بالذات فهو خارج عن حدود القدرة الإلهية تخصصاً كما قلنا.

ولتقريب هذه الحقيقة نشير إلى هذا المثال:

عندما يقال لعالم رياضي كبير متوغل في علم الرياضيات وله فاعلية تامة في ذلك هل يمكنك أن تجعل الناتج من اثنين ضرب اثنين خمسة، فيقول هذا أمر لا يمكن ومن الواضح أن قوله لا يمكن لا من جهة علمه وتوغله وقدرته على حل المعضلات الرياضية بل الإشكالية في استحالة

كون الناتج خمسة بل هو أربعة وهذا ما نسميه بإشكالية القابل لا إشكالية الفاعل.

فعلى هدي ما تقدم نجد أن الإمام علي عليه السلام ابتدأ مجيباً على هذا التساؤل وهو إدخال الدنيا في البيضة من دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة، فابتدأ عليه السلام بقوله: «إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز» إشارة منه عليه السلام إلى أن الحق سبحانه وتعالى قادر مطلق والقدرة صفة ذاتية فلا يوجد إشكالية في فاعلية الفاعل سبحانه وتعالى وإنما المشكلة كل المشكلة تكمن في قابلية القابل، أي استحالة هذا الأمر في ذاته، وعلى أساسه قال عليه السلام: «والذي سألتني لا يكون».

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره معلقاً على هذه الرواية الشريفة بقوله: "لأن القدرة تتعلق بما يصح حصوله ويمكن وجوده فما هو ممتنع وجوده ومتعذر حصوله لا تتعلق به القدرة ولا يصلح أن يُسأل عنه بأن الله قادر أن يفعله أم لا؟ فإثبات عموم قدرته وتنزيه ساحته من العجز والقصور لا ينفي عدم إمكان حصول تلك الأمور وبالجملة فالنقص في القابل دون الفاعل"[(١)].

إشكالية وجواب:

تجدر الإشارة إلى وجود نص روائي آخر ربما يشعر بالتعارض

(١) بحار الأنوار للعلامة ج٤ تعليقة الطباطبائي قدس سره على الرواية ص١٤٣.

والتهافت بين كلام أمير المؤمنين المتقدم مع كلام الإمام الصادقعليه السلام وذلك في الحوار الذي جرى بين هشام بن الحكم والديصاني حيث سأل الديصاني هشام بن الحكم قائلا له: (ألك ربٌّ؟ فقال: بلى قال : قادر؟ قال: نعم قادر قاهر؟ قال: يقدر أن يدخل الدنيا كلها في البيضة لا يكبر البيضة ولا يصغر الدنيا؟ فقال هشام: النظرة فقال له: قد أنظرتك حولاً ثم خرج عنه.

بعد ذلك جاء هشام بن الحكم مسرعا إلى الإمام الصادقعليه السلام فعرض عليه المسألة فأجابه الإمام عليه السلام: «يا هشام كم حواسك؟ قال: خمس فقال: أيها اصغر؟ فقال : الناظر فقال: وكم قدر الناظر؟ قال: مثل العدسة أو أقل منها فقال: يا هشام فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بماذا ترى فقال: أرى سماء وأرضا ودورا وقصورا وترابا وجبالا وأنهاراً فقال له أبوعبداللهعليه السلام: إن الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقل منها قادر أن يدخل الدنيا كلها البيضة لا يصغر الدنيا ولا يكبر البيضة»[1].

إن هذه الرواية الشريفة والكلمة النورية العظيمة المتمثلة في جواب الإمام الصادقعليه السلام على شبهة أبي عبدالله الديصاني تشير إلى جواب جدلي وليس برهانياً.

وتوضيح ذلك: إن ما يظهر من حال الديصاني كونه معاندا فلو أن الإمام الصادقعليه السلام أجابه جواباً برهانيا كما فعل الإمام أمير المؤمنينعليه السلام مع ذلك السائل في الرواية السابقة من أن الإشكالية قائمة في قابلية القابل لا

---

(١) التوحيد للصدوق باب القدرة ص ١٢٣.

فاعلية الفاعل، لجعل هذا المعاند هذا الجواب مدعاة للمكابرة والمعاندة وذلك لعدم قدرته على التمييز بين محور الإشكالية وهو القابل دون الفاعل، لأنه سوف يسحب إشكالية القابل إلى فاعلية الفاعل فمقتضى الحكمة أن يعطى جواباً جدلياً إسكاتياً لدفع عناده ومكابرته فليست الحكمة دائماً تقتضي طرح الجواب البرهاني لأن بعض الأجوبة البرهانية تتوقف على مدى قدرة استيعاب السائل وقابليته في فهم مقدمات الدليل والوصول إلى النتيجة.

قال العلامة المجلسي رحمه الله في توجيه هذه الرواية حيث ذكر أربعة وجوه لتأويل هذا الخبر واستظهر الجواب الرابع منها حيث قال: "إن السائل لما كان قاصراً عن فهم ما هو الحق معانداً فلو أجاب عليه السلام بعدم تعلق القدرة به لتشبث بذلك ولجَّ وعاند"[١].

وعلى المسار نفسه قال أستاذنا العلامة الحيدري حفظه الله في المقام ما نصه: "فلو أن الإمام عرض الجواب من زاوية أن العجز في القابل لا في الفاعل وذكر أن الله سبحانه لا يقدر على ذلك، لكن لا عجز فيه بل لنقص في القابل لكن يمكن أن نتصور تمسك السائل ذي الشبهة بالمقطع الأول من كلام الإمام الذي يقول فيه : «الذي سألتني لا يكون» وتشبث به متغافلاً عن الجزء الثاني الذي ينطوي على التوضيح "[٢].

---

(١) بحار الأنوار ج ٤ ص ١٤٢.

(٢) كتاب التوحيد للسيد كمال الحيدري ج ١ ص ٣٩١.

على ضوء ما تقدم يتضح لنا أن الأصل في مقام الجواب هو ما قاله الإمام علي عليه السلام فهو الجواب البرهاني وهو المعتمد في علاج هذه الإشكالية بالرفع وعلى أساسه صحح الإمام عليه السلام ذلك المسار العقائدي الخاطئ، وأما جواب الإمام الصادق عليه السلام فهو جواب جدلي يعتمد الدفع والإسكات فيستفاد منه في مثل هذه الموارد فتدبر.

المحور الثالث: دور النخبة التخصصية في المعارف الإلهية:

إن أحد الأساليب التي اتبعها أئمة أهل البيت عليهم السلام في الشأن العقائدي والمعارفي هو إعداد نخبة تخصصية في المعارف الإلهية وذلك أن مدرسة الأئمة عليهم السلام اعتمدت على منهج التخصص بل التخصص في التخصص كما يظهر ذلك للمتتبع.

حيث برزت شخصيات عظيمة في سماء المعارف الإلهية.

ففي زمن النبي وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما وآلهما برز سلمان وأبو ذر والمقداد وعمار بن ياسر وأويس القَرَني وكميل ورشيد الهجري وميثم التمار وغيرهم ممن امتازوا بحمل المعارف ولكن مع ملاحظة تفاوت المستويات فيما بينهم فسلمان المحمدي رحمه الله له حظٌ وافر في ذلك حتى قال النبي صلى الله عليه وآله في حقه: «لو علم أبوذر ما في قلب سلمان لكفره»[1] إشارة منه صلى الله عليه وآله إلى أن سلمان عالماً ببعض الحقائق التي لا

(١) بصائر الدرجات للصفار ج١ باب١١ في أئمة آل محمد عليهم السلام حديثهم صعب مستصعب ح٢١.

يتحملها أبوذر وذلك لاختلاف السعة الوجودية بينهما، وكذا ما يظهر من قوله عليه السلام في حق أويس القَرَني: «إني أشم نَفَسَ ربكم من قبل اليمن»[١]، وذلك لما يتمتع به أويس القَرَني رحمه الله من سعة وجودية تجعله يتحمل بعض الحقائق المعرفية.

تنامي ظاهرة التخصص في زمن الإمامين الصادقين عليهما السلام:

من الوضوح بمكان تنامي ظاهرة التخصص المعارفي في زمن في زمن الإمامين الهمامين الباقر والصادق عليه السلام فمما يلحظ في مزايا مدرسة هذين الإمامين عليهما السلام أنها خصصت العلوم فبرز في كل علم نخبة فمثلاً في الفقه الأصغر برز زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وغيرهما وكان لهم دور كبير في حفظ مدرسة الأئمة عليهم السلام من جهة التخصص في الفقه.

ومنهم من تخصص في علم التفسير والقراءات بل حتى في علم الطب والكيمياء وما شاكل ذلك. وما يهمنا في هذا البحث هو الحديث عن التخصص في البعد المعرفي والعقدي والذي يسمى بالفقه الأكبر ، حيث برزت كوكبة مشرقة في هذا المضمار ممن يعرفون بأصحاب المعارف والعقائد أمثال هشام بن سالم ومؤمن الطاق وهشام بن الحكم وذُرَيح المحاربي وجابر بن يزيد الجعفي وأمثالهم كثير رحمهم الله.

هذا مضافاً إلى أن الأئمة عليهم السلام خصصوا حتى في هذا التخصص

---

(١) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني قدس سره ج٦ ص٢٤.

والشاهد على ذلك ما نجده أن هشام بن سالم يمتاز بمعرفة التوحيد وما يدور في فلكه من مسائل وأن نجد هشام بن الحكم يمتاز في بحث الإمامة الإلهية وعلى المسار نفسه مؤمن الطاق.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن الأئمةعليهم السلام عندما خصصوا في التخصص لم يكن على مرتبة واحدة بل نجد أن في نفس التخصص توجد شدة وضعفا فيما يرتبط بالمعرفة فعلى سبيل المثال ما يُلحظ في مراتب الإمامة الإلهية حيث نجد أن هشام بن الحكم متخصص في بعض مراتبها خصوصا ما يرتبط بالمناظرات في الدفاع عنها ولكن نجد مرتبة أعمق منها وأشد في معرفة الإمام عند ذُرَيح المحاربي لا نجدها في هشام بن الحكم كما يجد الباحث ذلك بوضوح.

جابر بن يزيد الجعفي نموذجا:

لا يخفى على المتتبع أن جابر بن يزيد الجعفيرحمه الله أنه من أصحاب الأسرار وممن يمتلكون معرفة عالية في التوحيد والإمامة أشد مما هو عند هشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم وهذه الحقيقة يجدها المتتبع بوضوح عندما يسبر التراث.

ومما يكشف عن تضلعه في المعارف الإلهية ما رواه ذُرَيح المحاربي.

قال: سألت أبا عبد اللهعليه السلام عن جابر الجعفي وما روى، فلم يجبني

وأظنه قال: سألته بجمع فلم يجبني، فسألته الثالثة فقال: «يا ذُريح، فإن السفلة إذا سمعوا بأحاديثه شنعوا أو قال أذاعوا»[(١)].

ومقصود ذُرَيح المحاربي عما روى جابر هي هذه الرواية التي عن جابر بن يزيد الجعفي حيث قال: رويت خمسين ألف حديث ما سمعه أحد مني[(٢)].

وغير ذلك من الروايات الواردة في علو شأنه في المعارف الإلهية.

قال الشيخ الحر العاملي قدس سره في عظمة ومنزلة جابر ما نصه: "ورُوي أنه روى سبعين ألف حديث عن الباقر عليه السلام وروى مأة وأربعين ألف حديث.

والظاهر أنه ما روى أحدٌ بطريق المشافهة ـ عن الأئمة عليهم السلام أكثر مما روى جابر فيكون عظيم المنزلة عندهم لقولهم عليهم السلام: «اعرفوا منازل الرجال منا على قدر روايتهم عنا»"[(٣)].

تجدر الإشارة إلى أن شخصية جابر بن يزيد من الشخصيات التي وقع جدلٌ واسع فيها من حيث القبول والرفض وذلك لوجود الروايات المتعارضة مضافاً إلى تضعيف النجاشي له حيث اعتبره أنه مختلطاً.

---

(١) مستدرك الوسائل ج ١٢ ص٢٨٩ ح ٢٦.

(٢) المصدر السابق ح ٢٥.

(٣) خاتمة تفصيل وسائل الشيعة الفقيه المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ج٣٠ ص٣٢٩.

لكن الحق والإنصاف أن هذه الشخصية العظيمة فوق كل الشبهات التي أرادت إضعاف هذه الشخصية وتحجيمها وأن ما ذكره الشيخ النجاشي في حقه كان منشأه التضعيف والتوثيق المبني على مدرسة كلامية خاصة به من جهة عدم قبوله لروايات المعارف والأسرار والتي يعتبرها من مراتب الغلو.

لا يخفى أن المتتبع والدارس لهذه الشخصية العظيمة يجد أنها من الشخصيات التي أشادت وأشارت إلى المقامات الغيبية والعظيمة للنبي والأئمة عليهم السلام، حيث بلغ من الإشادة في ذلك أنه عندما يروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه يقول حدثني وصي الأوصياء إشارة منه إلى التأكيد على نهج الوصية في قبال المناهج الأخرى.

ذكر المفيد قدس سره في كتابه الإرشاد وكذلك الطبرسي رحمه الله في أعلام الورى في ذكر فضائل الإمام الباقر عليه السلام ما لفظه: "كان جابر بن يزيد الجعفي إذا روى عن محمد بن علي شيئاً يقول: حدثني وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء محمد بن علي عليه السلام"[1].

هذا مضافاً إلى أنه متحملاً لأسرار الأئمة المعصومين عليهم السلام حتى بات هذا الأمر من المسلمات عند في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهذا ما يعزز لنا نظر كبار الرواة أمثال زرارة وذريح وجميل بن درّاج وغيرهم إلى مقام جابر بإكبار وإجلال لكونه ممن اختص به الأئمة عليهم السلام.

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ص٣٨٣.

بل أن جابراً وصل إلى مقام الكرامات فله حالات عجيبة في هذا الصدد وذلك نتيجة تسليمه المطلق للأئمة عليهم السلام كما في حادثة الجنون المعروفة عنه والتي تكشف عن مدى التسليم المطلق لهم عليهم السلام خصوصا وهو الشخصية العلمية والبارزة والأولى من شيعة أهل البيت عليهم السلام.

هذا مضافاً إلى إجلال كبار علماء العامة له حتى قال صاحب ميزان الإعتدال في حقه نقلاً عن سفيان: "كان جابر الجعفي ورعاً في الحديث ما رأيت أورع منه في الحديث".

وقال وكيع: "ما شككتم في شئ فلا تشكوا أن جابر الجعفي ثقة"(١) وما إلى ذلك من العبارات الدالة على مكانته عند العامة.

ولكن كل ما أخذوا عليه هو أنه دعواه الوصاية للأئمة وإيمانه بالرجعة وأنه رافضي يشتم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله(٢).

وما ينبغي ذكره في هذا المقام كلام للسيد الخوئي قدس سره في هذا الصدد بعد أن عالج الروايات المتعارضة في حق جابر ومناقشته لكلام النجاشي قال ما نصه: "الذي ينبغي أن يقال: أن الرجل لا بد من عده من الثقات الأجلاء لشهادة علي بن إبراهيم والشيخ المفيد في رسالته العددية وشهادة ابن الغضائري على ما حكاه العلامة ولقول الصادق عليه السلام في

---

(١) ميزان الإعتدال للذهبي ج١ رقم الترجمة ١٤٢٥ ص٣٧٩.

(٢) ولأهمية هذا البحث يرجى مراجعة الإجتهاد والتقليد في علم الرجال واثره في التراث العقائدي ـ مصدر سابق ـ لأستاذنا المحقق آية الله الشيخ محمد السند حفظه الله ص٣٦٦.

صحيحة زياد «إنه كان يصدق علينا» ...″ ثم ذكر قدس سره مناقشته في المقام إلى أن قال : ″...وأنه كان عنده من أسرار أهل البيت عليهم السلام كما يؤيد ذلك ما رواه الصفار في بصائر الدرجات في الحديث ٤ من الباب ١٣ من الجزء ٢ من أن الصادق عليه السلام أراه ملكوت السماوات والأرض″[(١)].

قال أستاذنا المحقق الشيخ مسلم الداوري حفظه الله في حق جابر ما نصه:

″والحاصل أنه لا إشكال في وثاقة جابر بن يزيد لما مر من الروايات والكلمات الصريحة الدالة على أنه من الثقات الأجلاء ومن خواص الأئمة عليهم السلام وأنه باب لعلومهم عليهم السلام وحافظٌ لأسرارهم عليهم السلام فلا وجه للتوقف في رواياته، نعم إذا كان هناك توقف ففي مَن روى عنه فلا بد من ملاحظة أحوالهم والله العالم″[(٢)].

وختاما ننقل كلمة نورية عن الإمام الصادق عليه السلام تدل على علو شأنه ومقامه.

عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام إذ دخل المفضل بن عمر، فلما بَصُرَ به ضحك إليه، ثم قال: «إليَّ يا مفضل، فوربي إني لأحبك وأحب من يحبك، يا مفضل لو عرف جميع أصحابي ما تعرف ما اختلف اثنان، فقال له المفضل: يا ابن رسول الله لقد

---

(١) معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ج٤ ص٣٤٤.

(٢) أصول علم الرجال بين النظرية والتطبيق ـ تقريراً لسماحة آية الله الحاج الشيخ مسلم الداوري دام ظله ـ بقلم محمد علي علي المعلم ص٥١٢.

حسبت أن أكون قد أنزلت فوق منزلتي، فقال عليه السلام: «بل أنزلت المنزلة التي أنزلك الله بها، فقال: يا ابن رسول الله فما منزلة جابر بن يزيد منكم؟ قال: منزلة سلمان من رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فما منزلة داود بن كثير الرقي منكم؟ قال: منزلة المقداد من رسول الله صلى الله عليه وآله... الحديث»[(١)].

حقيقتان مهمتان:

تجدر الإشارة إلى ذكر حقيقتين مهمتين في هذا المقام وهما:

الحقيقة الأولى: أن مسألة التخصص في التخصص من الأئمة عليهم السلام كان الهدف منه هو نقل المعارف وحفظها من خلال اختلاف القوابل والإستعدادات في تحملها فلو كان إعطاء الحقائق قائم على مرتبة واحدة كان فيه ضياع للمعارف الإلهية وعدم حفظها وبالتالي توقف حركة التكامل عند الإنسان وهو خلاف الغرض الإلهي من الخلقة والمتمثل في المعرفة الإلهية كما أشرنا سابقاً وهذه الحقيقة من أهم الإستراتيجيات التي انتهجها النبي والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين في نقل المعارف والحقائق مراعين اختلاف القوابل والإستعدادات.

ومما يدعم هذه الحقيقة ما نجده من تفاوت في قبول بعض المعارف وعدم قبولها من الرواة عنهم عليهم السلام كما في عدم قبول زرارة لبعض الحقائق المعرفية مع وجود رواة يقبلون بها كجابر بن يزيد الجعفي وذريح

---

(١) الإختصاص للشيخ المفيد ص٢١٦.

المحاربي وغيرهم.

ولا يخفى أن هذه الحقيقة تحتاج إلى مزيد من البحث والتفصيل لا تتحمله هذه الدراسة وإن الإعداد لمثل هذه الدراسات المستفيضة لهو من أكبر الخدمات التي تُسدى لمذهب أهل البيت عليهم السلام لأنه يؤدي إلى حفظ التراث وعدم إلغاء بعض المعارف بحجة عدم خضوعها لبحث سندي معين أو لعدم تحملها من بعض القوابل العلمية من جهة أخرى، بل تعطينا مثل هذه الدراسات مساحة واسعة لتقبل هذه الحقائق كلٌ بحسب مرتبته وسعته الوجودية، وهذا ما سوف نشير إلى شئ منه في الفصل اللاحق في خصوص تعدد مراتب المعرفة وأنها مشككة وليست متواطئة كما سيأتي إن شاء الله.

الحقيقة الثانية: من الأساليب التي اتبعها الأئمة عليهم السلام في حفظ المعارف أنهم كانوا يُرجعون شيعتهم إلى المختصين من علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام كلٌ على حسب تخصصه ولا يخلطون الأوراق فتضيع الحقيقة.

وعلى سبيل المثال نجد أن الإمام الرضا عليه السلام يُرجع أحد أصحابه إلى المختص في البحث العقائدي في مسألة عقائدية وقع الخلاف فيها بين علمين بارزين من أعلام مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهما زرارة بن أعين وهشام بن الحكم حيث اختلفا في هذه المسألة فنجد أن الإمام الرضا عليه السلام أرجع هذا المتحير إلى قول هشام بن الحكم ولم يرجعه إلى قول زرارة وذلك لأن المسألة مرتبطة بالبعد العقائدي وأما زرارة فهو مختص في

البحث الفقهي ومن الواضح الجلي أن المسألة لو كانت فقهية فرعية ووقع خلاف فيها لأرجع الإمام الرضاعليه السلام ذلك السائل إلى زارارة فهذا التخصص في العلوم هو الذي أعطى القوة والديمومة لمدرسة أهل البيتعليهم السلام في جميع العلوم والمعارف وخصوصاً في المعارف الإلهية.

ونص الرواية الواردة في المقام: عن علي بن يونس بن بهمن قال: قلت للرضاعليه السلام: جعلت فداك إن أصحابنا قد اختلفوا، فقال: في أي شئ اختلفوا؟ فتداخلني من ذلك شئ فلم يحضرني إلا ما قلت: جعلت فداك من ذلك ما اختلف فيه زرارة وهشام بن الحكم، فقال زرارة: النفي[١] ليس بشئ وليس بمخلوق، وقال هشام: إن النفي شئ مخلوق: فقال لي: «قل في هذا بقول هشام ولا تقل بقول زرارة»[٢].

---

(١) يعني الهواء.

(٢) بحار الأنوار ج٤ ص ٣٢٢ تحت عنوان باب نادر نقلاً عن رجال الكشي.

الفصل السابع

مراتب المعرفة

* مراتب المعرفة
* مراتب التشيع للأئمة عليهم السلام
* الإمام المعصوم عليه السلام وخلافة الأسماء والصفات الإلهية
* مراتب الإعتقاد بالإمامة الإلهية

كلمات نورية ومراتب المعرفة:

عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا عبد العزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلَّم يصعد منه مرقاةً بعد مرقاةٍ فلا يقولنَّ صاحب الأثنين لصاحب الواحد لستَ على شئ حتى ينتهي إلى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإن مَن كسر مؤمناً فعليه جبره»[1].

وعن رجل من أصحابنا سرَّاج وكان خادما لأبي عبد الله عليه السلام قال: بعثني أبو عبد الله عليه السلام في حاجة وهو بالحيرة أنا وجماعة من مواليه قال: فانطلقنا فيها ثم رجعنا مغتمين قال: وكان فراشي في الحائر الذي كنا فيه نزولا، فجئت وأنا بحال فرميت بنفسي فبينا أنا كذلك إذا أنا بأبي عبد الله عليه السلام قد أقبل قال : فقال قد أتيناك أو قال: جئناك، فاستويت جالساً

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٥ ح ٢.

وجلس على صدر فراشي فسألني عما بعثني له فأخبرته. فحمد الله ثم جرى ذكر قوم فقلت: جعلت فداك إنا نبرأ منهم، إنهم لا يقولون ما نقول. قال: فقال: يتولونا ولا يقولون ما تقولون تبرؤون منهم؟ قال: قلت: نعم قال: فهو ذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم؟ قال: قلت: لا - جعلت فداك - قال: وهو ذا عند الله ما ليس عندنا أفتراه أطرحنا؟ قال: قلت: لا والله جعلت فداك ما نفعل؟ قال: فتولوهم ولا تبرؤوا منهم، إن من المسلمين من له سهم ومنهم من له سهمان ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولا صاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة ولا صاحب الثلاثة على ما عليه صاحب الأربعة ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة ولا صاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة ، وسأضرب لك مثلا إن رجلا كان له جار وكان نصرانيا فدعاه إلى الإسلام وزينه له فأجابه فأتاه سُحَيراً فقرع عليه الباب فقال له: من هذا؟ قال: أنا فلان قال: وما حاجتك؟ فقال: توضأ والبس ثوبيك ومر بنا إلى الصلاة قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصليا ما شاء الله ثم صليا الفجر ثم مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانيا يريد منزله، فقال له الرجل: أين تذهب؟ النهار قصير والذي بينك وبين الظهر قليل؟ قال: فجلس معه إلى أن صلى الظهر، ثم قال: وما بين الظهر والعصر قليل فاحتبسه حتى صلى العصر، قال. ثم قام وأراد أن ينصرف إلى منزله

فقال له: إن هذا آخر النهار وأقل من أوله فاحتبسه حتى صلى المغرب ثم أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنما بقيت صلاة واحدة قال : فمكث حتى صلى العشاء الآخرة ثم تفرقا فلما كان سُحَيراً غدا عليه فضرب عليه الباب فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضأ والبس ثوبيك واخرج بنا فصل، قال: اطلب لهذا الدين من هو أفرغ مني وأنا إنسان مسكين وعليَّ عيال، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أدخله في شئ أخرجه منه أو قال: أدخله من مثل ذه وأخرجه من مثل هذا[١] .

قراءة معرفية:

من الوضوح بمكان أن المعرفة الإلهية هي غاية ما يسعى إليه الإنسان كما أشرنا إلى هذه الحقيقة في الفصلين الأولين من هذا الكتاب حيث أكدنا على أن كمال الإنسان إنما يكون في قربه من الله سبحانه وتعالى وكلما كان القرب منه تعالى أكثر كان الكمال أكثر، وتتفرع على هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي تفاوت درجات المعرفة فالمعرفة من المفاهيم المشككة والتي لها مراتب عديدة وليست متواطئة.

فهاتان الكلمتان النوريتان والتي صدرنا بهما هذا الفصل تكشفان لنا هذه الحقيقة بجلاء ووضوح وتؤكد لنا أن درجات المعرفة التي يستتبعها الإيمان متفاوتة ومتعددة كما قال الإمام الصادق عليه السلام لعبدالعزيز: «إن

---

(١) أصول الكافي ج٢ ص٤٢ ح٢.

للإيمان عشر درجات بمنزلة السلم».

وتأسيسا على هذه الحقيقة يعطي الإمام الصادق عليه السلام توصياته وإرشاداته الإلهية حيث يؤكد لنا أن هذه الدرجات بمنزلة السلم فلكي يصعد الإنسان إلى المراتب العالية من الإيمان فلابد أن يرقى مرقاة بعد مرقاة، فهذا يعني أن التدرج المعرفي يستتبعه التدرج في الإيمان.

وتوصية أخرى منه عليه السلام تؤكد على عدم جواز إسقاط من هو في المرتبة العالية لمن دونه في المرتبة حيث قال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد: «فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك» بل ينبغي على المؤمن الواعي وصاحب المعرفة أن يأخذ مَن هو دونه في المعرفة ولكن بنحو من الرفق والتلطف.

وبعبارة أخرى أن صاحب الدرجة العالية من المعرفة والإيمان لا بد أن يستخدم الآلية والإسلوب الصحيح في إيصال المعرفة والحقيقة إلى مَن هو دونه بما يتحمله صاحب تلك الدرجة وإلا لو أفاض عليه من الحقائق والمعارف مما لا يتحمله وأدَّى به إلى الخروج من الإيمان فسيكون مسؤولاً أمام الله سبحانه وتعالى.

ومن ثَمَّ نجد التوصيات العديدة في بيانات الأئمة المعصومين عليهم السلام في كيفية التعاطي في نشر المعارف والحقائق بأنه لا يحق أن نُحمِّل صاحب الدرجة الواحدة من المعرفة ما في الدرجتين الثانية والثالثة وهكذا.

كما جاء ذلك في الرواية عن محمد بن سنان عن ابن مسكان عن سدير قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «إن المؤمنين على منازل منهم على

واحدة ومنهم على اثنتين ومنهم على ثلاث ومنهم على أربع ومنهم على خمس ومنهم على ست ومنهم على سبع فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو، و على صاحب الثنتين ثلاثا لم يقو، وعلى صاحب الثلاث أربعا لم يقو، وعلى صاحب الأربع خمسا لم يقو، وعلى صاحب الخمس ستا لم يقو، وعلى صاحب الست سبعا لم يقو، وعلى هذه الدرجات»[(١)].

فهذه الرواية الشريفة وغيرها تشير إلى ما قلناه من مسألة المراعاة في نقل المعارف وعدم إعطائها إلا لمن له استعداد وقابلية على تحمل هذه الحقيقة.

مراتب التشيع للأئمة عليهم السلام:

إن قراءة الرواية الثانية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام في قضية الوفد الذي أرسله عليه السلام لمعرفة ما عليه أتباع أهل البيت عليهم السلام في تلك المنطقة قراءة علمية تفضي إلى مجموعة من الحقائق والتي منها:

إن التشيع للأئمة عليهم السلام ومعرفتهم ليست على درجة واحدة، نعم، هناك حداً لا يمكن تجاوزه وهو الإعتقاد بأن الأئمة منصوص عليهم من الله وهم معصومون، فمن الوضوح بمكان لا يمكن لأحد أن يكون موالياً لهم عليهم السلام وهو لا يعتقد بهذين الأصلين وإلا كان خارجاً عن دائرة الولاية لهم عليهم السلام ثم تتصاعد مراتب المعرفة بإمامتهم عليهم السلام إلى غير النهاية لأن

(١) أصول الكافي ج٢ ص٤٥ ح٣ باب آخر منه.

معرفتهم مرتبطة بمعرفة الله تعالى ومعرفته تعالى غير متناهية وهذا ما قلناه سابقاً في أن المعرفة مشككة.

فهذه حقيقة أوضحها الإمام عليه السلام لهذا الوفد الراجع من تلك المنطقة عندما سألهم عنهم فأجابوا بقولهم: إنَّا نبرأ منهم، إنهم لا يقولون ما نقول، أي أنهم لا يعتقدون بما نعتقد ومن ثَمَّ هم خارجون عن الولاية ظناً منهم أن التولي لأهل البيت عليهم السلام على مرتبة ودرجة واحدة وعلى مقياس واحد، فلذا أجابهم الإمام عليه السلام بنقض مهم بقوله: «فهو ذا عندنا ما ليس عندكم» أي عندنا من الحقائق والمعارف والمعتقدات ما ليس عندكم وما لا تتحملونه، «فينبغي لنا أن نبرأ منكم» فاعتذر الرجل فقال له الإمام داعما هذا الجواب: «وهو ذا عند الله ما ليس عندنا، أفتراه اطَّرحنا؟» أي عند الله ما لا يوجد عند أحد إطلاقاً نبي كان أو إمام.

فبعد أن بلور الإمام هذه الحقيقة وهي أنه لا ينبغي أن يتبرأ أحد من أحد ويخرجه عن دائرة الولاية لأهل البيت عليهم السلام بسبب أنه لا يقول بمقالته ولا يعتقد ما يعتقده، ومن ثَمَّ ركَّز الإمام عليه السلام على حقيقة أخرى أشرنا إليها فيما تقدم وهي أنه لا ينبغي أن نحمل أحداً ما لا يحتمل، فراح الإمام يبين له هذه الحقيقة بما ضربه من مسألة النصراني والجار المسلم.

تفاوت الإستعداد والقابليات:

لا يخفى أن التفاوت المعرفي خاضع وناشئ من تفاوت الإستعداد والقابليات وكما يقول العرفاء (أن ذلك خاضع لمقتضيات العين الثابتة لكل أحد) فإن إيجاد المظاهر الخلقية والوجود العيني قائمٌ على أساس ما هو في

الأعيان الثابتة.

وبعبارة أخرى أن الوجود العيني متحقق على ما اقتضاه الوجود العلمي، وبالتالي فإن العطاء الإلهي والعدل الإلهي إنما هو إعطاء كل مستعد لما استعد له، وعلى هذا الأساس أن من كان مطلعاً على الأعيان الثابتة للأشياء والتي هي لوازم الأسماء والصفات الإلهية في مقام الواحدية فإنه مطلع على الإستعدادت وعلى كيفية خلق الله تبارك وتعالى، فتجد الأنبياء والأئمةعليهم السلام لاطلاعهم على كافة الحقائق واستعدادات الأعيان الثابتة وكيفية خلق الله الخلقَ يفيضون المعارف والحقائق على وفق تلك الإستعدادات ولا يلومون أحداً على ما هو عليه نتيجة ذلك الإطلاع والإنكشاف ومن ثَمَّ أوصوا شيعتهم في التعاطي والتعامل في هذا المسار المعارفي على هدي هذه الحقيقة وهذا أمرٌ أشارت له كلماتهمعليهم السلام.

عن شهاب قال: سمعت أبا عبد اللهعليه السلام يقول: «لو علم الناس كيف خلق الله تبارك وتعالى هذا الخلق لم يلم أحدٌ أحداً فقلت: أصلحك الله فكيف ذاك؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى خلق أجزاء بلغ بها تسعة وأربعين جزءاً. ثم جعل الأجزاء أعشارا فجعل الجزء عشرة أعشار، ثم قسمه بين الخلق فجعل في رجل عُشْرَ جزء وفي آخر عشري جزء حتى بلغ به جزءاً تاما وفي آخر جزءا وعشر جزء وآخر جزءاً وعشري جزء وآخر جزءاً وثلاثة أعشار جزء حتى بلغ به جزئين تامين، ثم بحساب ذلك حتى بلغ أرفعهم تسعة وأربعين جزءاً، فمن لم يجعل فيه إلا عشر جزء لم يقدر على أن يكون مثل صاحب العُشْرين وكذلك صاحب العُشْرين لا يكون مثل

صاحب الثلاثة الأعشار وكذلك من تم له جزء لا يقدر على أن يكون مثل صاحب الجزئين ولو علم الناس أن الله عز وجل خلق هذا الخلق على هذا لم يلم أحدٌ أحداً»(١).

وعلى هدي ما تقدم نفهم جملة من كلماتهم النورية عنهمعليهم السلام كتوصيات في مراعاة بث المعارف الإلهية بملاحظة الإستعداد والقابليات وعدم إعطائها لمن لا يتحمل فمن تلك الكلمات النورية:

عن عبد الله بن جندب قال: قال الصادقعليه السلام: «رحم الله قوما كانوا سراجاً ومناراً، كانوا دعاة إلينا بأعمالهم ومجهود طاقاتهم، ليس كمن يذيع أسرارنا»(٢).

وعنهعليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: «أكتمْ سرنا ولا تذعه، فان من كتم سرنا ولم يذعه، أعزه الله به في الدنيا والآخرة، ومن أذاع سرنا ولم يكتمه، أذله الله به في الدنيا والآخرة، ونزع النور من بين عينيه إلى أن قال: والمذيع لأمرنا كالجاحد له»(٣).

وعنهعليه السلام أنه قال لبعض شيعته: «إن حديثكم هذا وأمركم هذا تشمئز منه قلوب الجاهلين، فمن عرفه فزيدوه ومن أنكره فذروه»(٤).

---

(١) أصول الكافي ج٢ ص٤٤ ح١ تحت عنوان باب آخر منه.

(٢) مستدرك الوسائل ج١٢ باب تحريم اذاعة الحق مع الخوف به ح٢.

(٣) المصدر السابق ح٥.

(٤) المصدر السابق ح٨

عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن أخيه جعفر قال: كنا عند أبي الحسن الرضاعليه السلام وعنده يونس بن عبد الرحمن، إذ استأذن عليه قوم من أهل البصرة، فأومأ أبو الحسنعليه السلام إلى يونس: ادخل البيت، فإذا بيت مسبل عليه ستر، وإياك أن تتحرك حتى يؤذن لك، فدخل البصريون وأكثروا من الوقيعة والقول في يونس، وأبو الحسنعليه السلام مطرق، حتى لما أكثروا فقاموا وودعوا فخرجوا، فأذن ليونس بالخروج، فخرج باكياً فقال: جعلني الله فداك، إني أحامي عن هذه المقالة، وهذه حالي عند أصحابي!؟، فقال له أبو الحسنعليه السلام: «يا يونس، فما عليك مما يقولون، إذا كان إمامك عنك راضياً، يا يونس حدِّث الناسَ بما يعرفون، واتركهم مما لا يعرفون، كأنك تريد أن يكذَّبَ اللهُ في عرشه؟»[1].

فيظهر مما تقدم أن للمعرفة والإيمان مراتب عديدة غير متناهية وذلك أن الكمال مرتبط بالقرب من الله سبحانه وتعالى والذي هو سير في أسمائه وصفاته والتي هي غير متناهية لعدم تناهي ذاته عزَّ شأنه.

ولكي تتضح هذه الحقيقة بنحو تطبيقي نشير إلى نموذجين من خلال الروايات الواردة عن المعصومينعليهم السلام في باب التوحيد والإمامة.

النموذج الأول: مراتب التوحيد:

إن كمال الإنسان مرتبطٌ بتوحيده فكلما كان التوحيد أشد ودرجته

---

(١) المصدر السابق ح٢٤.

أعلى كان الإنسان من الله أقرب ومن ثَمَّ نجد أن القرآن الكريم كله في التوحيد حيث يتجلى عبر توحيد الذات وتوحيد الصفات والأفعال والذي ينبثق منه ما يرتبط به من العدل والنبوة والإمامة والمعاد وسائر المنظومة الإعتقادية، وهذه حقيقة أشرنا إليها في أبحاث سابقة وقلنا:

إن أصل المعرفة الإلهية وأول الدين توحيد الله ولكن هذا التوحيد له مراتب عديدة وليست مرتبة واحدة فمنه ما هو كامل ومنه ما هو أكمل وهذا يعني أن التوحيد مشكك يختلف شدة وضعفاً، وهذه الحقيقة تحتاج إلى دراسة مستفيضة من خلال الآيات والروايات.

وفي هذا النموذج نحاول أن نشير إلى بعض مراتب التوحيد وذلك من خلال الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

المرتبة الأولى:

عن الفتح بن يزيد ، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن أدنى المعرفة فقال: «الإقرار بأنه لا إله غيره ولا شبه له ولا نظير وأنه قديم مثبت موجود غير فقيد وأنه ليس كمثله شئ»[1].

تكشف لنا هذه الرواية الشريفة والكلمة النورية الصادرة من عالم آل محمد عليهم السلام عن أن المعرفة التوحيدية لها مراتب عديدة وهذه المرتبة التي ذكرتها هذه الرواية هي المرتبة الدنيا بل نقول أنها حد النصاب في

(١) أصول الكافي ج١ باب أدنى المعرفة ح١.

المعرفة التوحيدية والتي لا يمكن النزول عنها لأنه لا يعتبر موحداً بل خارج دائرة التوحيد.

حيث قال الإمامعليه السلام جواباً للسائل عن أدنى المعرفة: «هو الإعتقاد بأن لا إله غيره وليس له شبيه ولا نظير وأنه موجود أزلي قديم وأنه ليس كمثله شئ» وما شاكل ذلك، وهذه أدنى المعرفة، ومنها ينطلق الإنسان في مراتب التوحيد صعوداً كما أشرنا آنفاً من أن كمال الإنسان في الصعود في سلم المعرفة التوحيدية أكثر فأكثر.

ونظير هذه الرواية ما جاء جواباً عن الإمام الباقرعليه السلام عندما سُأل عن ما الذي لا يُجتزأ في معرفة الخالق بدونه؟ فقال عليه السلام: «ليس كمثله شئ ولا يشبهه شئ لم يزل عالماً سميعاً بصيراً»(١).

فهذه مرتبة من مراتب التوحيد وهي أدناها كما عبرت الرواية.

المرتبة الثانية:

عن المقدام بن شريح بن هانئ، عن أبيه، قال: إن أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنينعليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، قالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تَقَسُّمِ القلب، فقال أمير المؤمنينعليه السلام: دعوه، فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: «يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على

---

(١) المصدر السابق ح٢.

أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: ثالث ثلاثة. وقول القائل: هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه لأنه تشبيه، وجلَّ ربنا عن ذلك وتعالى، وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربنا، وقول القائل: إنه عز وجل أحدي المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عز وجل»[١].

المعرفة التوحيدية والوحدة الحقة الحقيقية:

هذه الرواية الشريفة تكشف لنا مرتبة أخرى من مراتب التوحيد حيث يشير فيها سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام إلى مراعاة الدقة في المعرفة التوحيدية وذلك من خلال التمييز في إطلاق الواحد على الله تعالى وأن هذا الإطلاق على أربعة أقسام، فيقول عليه السلام: فوجهان منهما لا يجوزان أي لا يمكن عقلاً إنطباق ذلك على الحق سبحانه وتعالى ومن الوضوح بمكان أن المقصود ليس الجواز الفقهي لكون البحث في الأمر التكويني.

فالوجه الأول: هو إطلاق الواحد ويقصد به باب الأعداد، حيث يشير إلى إثبات التوحيد الواحدي ونفي الشريك بأن الإعتقاد أن الله واحد

---

(١) كتاب التوحيد للصدوق باب معنى الواحد والتوحيد والموحد ح٣.

من باب الأعداد فيه إشارة إلى إمكانية فرض وجود واجب آخر حيث علل ذلك عليه السلام بقوله: «لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد» وهذا ما يستلزم الكفر المعرفي لمن قال أن الله ثالث ثلاثة، فأشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى نفي الوحدة العدية عنه سبحانه وتعالى لكي ينفتح البحث إلى إثبات الوحدة الحقة الحقيقية والتي هي معرفة عالية في التوحيد والتي أسماها القرآن بالوحدة القهَّارية أي أن الحق تعالى هو الوجود الصِرف وأن الوحدة عين ذاته لا أنه وجود ثبتت له الوحدة، وهذا يعني استحالة فرض الثاني له تعالى لأن صِرف الشئ لا يتثى ولا يتكرر.

والإطلاق الآخر الممنوع عقلاً عليه سبحانه وتعالى هو قول القائل: «هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس» حيث أشار عليه السلام إلى نفي التركيب وإثبات البساطة للحق سبحانه وتعالى وهذا ما يسمى بالتوحيد الأحدي والذي يعني أنه لابد من نفي كل أقسام التركيب سواء التركيب من أجزاء مقدارية خارجية أم من مادة وصورة خارجية أم من جنس وفصل أم من وجود وماهية أم من وجدان وفقدان وهو أشر أنواع التراكيب أي وجدان بعض الكمالات الوجودية وفقدان بعض الكمالات الوجودية الأخرى.

فيتضح من قراءة النص أن هذين المعنيين من الواحد لا يثبتان للحق عقلاً وعليه يتضح أن الذي يثبت للحق تعالى من معنى الواحد هو الإعتقاد بأنه واحد ليس له في الأشياء شبه أي ليس له نظير وأنه واحد لا شريك له وهذا هو التوحيد الواحدي، وكذا يثبت له الواحد بمعنى الأحدية أي

التوحيد الأحدي وهو إثبات البساطة للذات الإلهية كما قال عليه السلام: «أنه عز وجل أحدي المعنى».

فيظهر لنا من هذا التحليل المختصر لهذه الرواية الشريفة أن المعرفة التوحيدية الواردة فيها متعالية بالنسبة للمعرفة التوحيدية في الرواية السابقة وذلك أن الإمام عليه عليه السلام أوضح لنا أهمية الإعتقاد بالوحدة الحقة الحقيقية وعدم جواز الإعتقاد بالوحدة العددية وهذا بحث يحتاج إلى دراسة مستفيضة موكولة إلى محلها.

المرتبة الثالثة:

عن هشام بن سالم قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: «أتنعت الله؟ فقلت: نعم، قال: هات، فقلت: هو السميع البصير، قال: هذه صفة يشترك فيها المخلوقون قلت: فكيف تنعته؟ فقال: هو نور لا ظلمة فيه، وحياة لا موت فيه، وعلم لا جهل فيه، وحق لا باطل فيه. فخرجت من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد»[1].

الله تعالى الكمال المطلق ومطلق الكمال:

إن قراءة هذه الكلمة النورية الصادرة من معدن الحكمة تكشف لنا مرتبة أخرى من مراتب التوحيد حيث تشير إلى الإعتقاد بأن الحق سبحانه

---

(١) المصدر السابق باب صفات الذات وصفات الفعل ح١٤.

وتعالى وجود كله الكمالات فهو الكمال المطلق وكله الكمال وهو الجمال المطلق وكله الجمال، وذلك حيث أكدت هذه الرواية الشريفة إلى أن الصفات والكمالات الوجودية هي عين الذات الإلهية وليست بزائدة عليها أو عارية عنها، بل أن كل صفة كمالية هي عين الصفة الكمالية الأخرى، فذاته تعالى نور لا ظلمة فيها وحياة لا موت فيها وعلم لا جهل فيها، أي هو علم كله وقدرة كله وحياة كله وهكذا باقي الصفات الكمالية الأخرى.

فهذه الحقيقة تحتاج إلى بعد علمي وصفاء قريحة وسلامة فطرة لإدراكها لأنها من الحقائق العظيمة ومراتب التوحيد العالية، بل أن نفس هذه الحقيقة لها مراتب عديدة ومن ثَمَّ نجد أن هشام بن سالم والذي هو من خواص الإمام الصادق عليه السلام وممن تخصص في علم التوحيد في مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام قال: خرجت من عند الإمام الصادق وأنا أعلم الناس بالتوحيد، ولا يخفى ما في كلمته من دلالةٍ على مقام معرفته التوحيدية ونضوج شخصيته العلمية حيث يستطيع أن يتبحر وأن يترقى معرفياً من خلال هذه الكلمات النورية القليلة في مبناها العظيمة في معناها.

هذه مراتب للمعرفة التوحيدية أحببنا أن نشير فيها إلى ما قلناه سابقاً من أن المعرفة التوحيدية ذات مراتب مشككة وليست مرتبة واحدة بل مراتب متعددة، مما يكشف لنا ضرورة الترقي معرفياً في مراتب التوحيد وعدم الوقوف في مرتبة، لأن الإنسان له كمال لا يقفي؛ وكماله في المعرفة التوحيدية كما أشرنا سابقا فلا ينبغي له أن يقف على مرتبة بل يترقى أكثر فأكثر.

رزقنا الله وإياكم الصعود في سلم المعرفة التوحيدية.

النموذج الثاني: مراتب الإعتقاد بالإمامة الإلهية:

لا يخفى ما للإمامة الإلهية من عظمة وشموخ في المنظومة العقدية ومالها من دور في الهداية، وأن الحديث عن الإمامة هو حديث عن الهداية الإلهية الكبرى وأنها هداية تكوينية وهداية إيصالية وليست هداية إيرائية، وأن الإعتقاد بالإمامة الإلهية هو إعتقاد باستمرار الرابطة بين السماء والأرض مما يجعل من هذا الإنسان دائماً في حالة انشداد إلى خالقه يتلقى منه الواردات والهدايات بلا انقطاع ولا زوال منه تعالى عبر الإمام المعصوم.

إن الإمامة في القرآن الكريم والعترة الشريفة هي عهد إلهي عظيم ومبدأ قرآني رصين وأن الإمام هو رجل إلهي يسير بالبشرية إلى خط الهداية الإيصالية، فمن ثَمَّ له مقامات ومقومات تتناسب مع دوره في هذا النظام الأحسن.

ولسنا هنا بصدد البحث الإستقصائي للإمامة والإمام في منظومة الأئمة عليهم السلام العقائدية لأن ذلك لا يمكن لأنه يقتضي الوقوف على المراتب الوجودية للإمام وأنَّا للإنسان الناقص أن يحيط بمقامات الإنسان الكامل.

الإمام المعصوم عليه السلام وخلافة الأسماء والصفات الإلهية:

إن الإمامة التي نعتقد بها هي الإمامة الإلهية بمعنى أنها الخلافة الإلهية أي كون الإمام خليفة الله في أسمائه وصفاته، لكونه المظهر الأتم

للاسم الأعظم والكلمة التامة.

قال الإمام الصادقعليه السلام: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»[١] أي مظاهر الله التامة ومرآة جماله وجلاله.

وعنهعليه السلام: «نحن الكلمات التامات»، وقول الإمام الهاديعليه السلام: «نحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى»[٢].

وعنهعليه السلام: «نحن الكلمات التي لا تنفد، لا تدرك فضائلنا»[٣].

فيظهر مما تقدم من هذه الكلمات النورية أن الإمام المعصوم المرآة الصافية التي تتجلى فيها الأسماء الإلهية الجمالية والجلالية، ومن ثَمَّ عرفت الإمامة الإلهية عند أهل الحق بأنها: "الخلافة الكلية الإلهية التي من آثارها ولايتهم التكوينية والتشريعية التي منها الإمارة والخلافة الظاهرية"[٤].

وعلى هدي ما تقدم يكون الإمام هو: "الإنسان الكامل الإلهي العالم بجميع ما يحتاج إليه الناس في تعيين مصالحهم ومضارهم، الأمين على أحكام الله تعالى وأسراره، المعصوم من الذنوب والخطايا، المرتبط بالمبدأ الأعلى الصراط المستقيم الحجة على عباده المفترض الطاعة اللائق باقتداء العام به، والتبعية له الحافظ لدين الله، المرجع العلمي لحل المعضلات

---

(١) الكافي ج١ ص١٤٣ باب النوادر ح٤.

(٢) الإختصاص ٩٤وتحف العقول ٤٧٩.

٣) المصدر السابق.

(٤) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية ج٢ ص٨ للسيد محسن الخرازي.

والإختلافات وتفسير المجملات الزعيم السياسي والإجتماعي، الهادي للنفوس إلى درجاتها اللائقة بهم من الكمالات المعنوية، الوسيط في نيل الفيض من المبدأ الأعلى إلى الخلق، وغير ذلك من شؤون الإمامة التي تدل عليها البراهين العقلية والأدلة السمعية"[١].

الإمام المعصوم والهداية الإيصالية:

إن عظمة الإمام المعصوم في اللغة القرآنية تظهر لنا من خلال الهداية الإيصالية للمطلوب التي يتضلع بها فهو الهادي بالأمر الملكوتي المتصرف في بواطن العباد.

من هنا نجد العلامة الطباطبائي قُدِّسَ سِرُّه يُبرز لنا هذا الدور في صورته القرآنية الخلابة بقوله: "وبالجملة فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية الناس في أعمالهم وهدايتها إيصالها إياهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول"[٢].

الإمامة الإلهية بين المقومات والوظائف:

ينطلق السيد العلامة قُدِّسَ سِرُّه في تحديد معالم الإمامة الإلهية في القرآن

---

(١) المصدر السابق ص٩.

(٢) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ج١ ص٢٧٢.

من خلال عرض أهم مقوماتها ووظائفها حيث يكتب: "... وقد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الأول: أن الإمامة لمجعولة.

الثاني: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً بعصمة إلهية.

الثالث: أن الأرض وفيها الناس لا تخلو عن إمام حق.

الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيداً من عند الله تعالى.

الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام .

السادس: أنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم.

السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

فهذه سبعة مسائل هي أمهات مسائل الإمامة تعطيها الآية الشريفة بما ينظم إليها من الآيات والله الهادي"(١).

ومن منطلق هذا التنقيط لمسائل الإمامة الإلهية يمكن لنا القول أن الإمامة تتحرك من خلال مسارين:

مسار المقومات والمكونات ومسار الوظائف والواجبات.

المسار الأول: المقومات والمكونات:

إن الإمامة الإلهية تتقوم بأركان أربعة:

الأول: النص.

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٥.

الثاني: العصمة.

الثالث: العلم الخاص.

الرابع: الديمومة.

المسار الثاني: الوظائف والواجبات:

وإن الإمامة الإلهية لها وظائف عدة أهمها:

الأول: المرجعية الدينية.

الثاني: المرجعية السياسية.

الثالث: القدوة والأسوة.

الرابع: الدور الوجودي.

وبحث هذه الأمور يحتاج إلى دراسة مستفيضة موكولة إلى محلها.

وهنا قد يُثار سؤالٌ مفاده أنه إن كانت الإمامة بهذه العظمة والبهاء فهل هناك سبب كامن من خلاله استحق هذا الإنسان هذه الموهبة الإلهية العظيمة أو أن الأمر ليس كذلك؟

والجواب الحق لهذا التساؤل نتركه للعلامة الطباطبائي قُدِّسَ سِرُّهُ حيث قال مستلهما من الخزائن القرآنية والعترتية ما نصه: "... ثم إنه تعالى بيَّن سبب موهبة الإمامة بقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] تبين أن الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله ـ وقد أطلق الصبر ـ فهو في كل ما يبتلى ويمتحن عبد في عبوديته وكونهم قبل ذلك موقنين، وقد ذكر في

---

(١) السجدة ٢٤.

جملة قصص إبراهيمعليه السلام قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1]، والآية كما ترى تعطي بظاهرها أن إراءة الملكوت لإبراهيم كانت مقدمة لإفاضة اليقين عليه ويتبين به أن اليقين لا ينفك عن مشاهدة الملكوت كما ظاهر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ*كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾- إلى أن قال - ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ*يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3] وهذه الآيات تدل على أن المقربين هم الذي لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبي وهو المعصية والجهل والريب والشك، فهم أهل اليقين بالله وهم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم"[4].

إذن هذه الموهبة الإلهية والمرتبة الوجودية العظيمة لا تعطى جزافاً بل لها سبب ومسوق وهذا السبب يكمن في شخصية الإمام وذاته وهو يسير في مسارين:

الأول: البعد النظري أو العلمي وهو ما يسميه القرآن الكريم بـ(اليقين) حيث أن الإمام يتحلى بانكشاف الحقائق أو رؤية الملكوت.

---

(١) الأنعام ٧٥.

(٢) التكاثر ٦.

(٣) المطففين ٢١.

(٤) المصدر السابق ص٢٧٣.

الثاني: البعد العملي وهو ما يسميه بمقام (الصبر).

إشارة مهمة:

تجدر الإشارة إلى أن الباحث في الشأن العقائدي وخصوصا في بحث الإمامة الإلهية أن يحاول الإستشراف لما يمكن من الآيات في بحث الإمامة وكذلك الروايات والتي هي فوق حد الإحصاء لكي يقف على ما يمكن الوقوف على مقامات ومقومات ووظائف الإمامة الإلهية ابتداءاً من عالم النور إلى عالم المادة، فلابد أن يرسم معالم الإمامة الإلهية من خلال أدوارهم كما هو واردٌ في المعراج والذي يحوي على حقائق جمة وكذلك في زمن ظهور الحجة الغائب عجل الله فرجه الشريف وكذلك أدوارهم ومقاماتهم في دولة الرجعة وكذلك أدوارهم ومقاماتهم في يوم القيامة وما يتلوها من عالم الجنة والنار وما شاء الله وما إلى ذلك.

فهذه حقيقة لابد للباحث الإضطلاع بها لكي يستطيع أن يعطي دوحة معرفية دقيقة عن الإمامة الإلهية فلا ينبغي الإقتصار في تحديد هويتها وتعريفها على مقام أو شأن دون الشؤون الأخرى، فتدبر.

كلمة نورية جامعة في فضل الإمام وصفاته:

ومن الأهمية بمكان أن نذكر وثيقة ونصاً دينياً عن مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يُبَيِّنُ فيه عظمة الإمامة والإمام وكيف أنها المرآة الصافية والعاكسة للجمال والجلال الإلهيين.

يقول عبدالعزيز بن مسلم قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمَرْو فاجتمعنا في

الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال: «يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه عليه السلام حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شئ، بيَّن فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كَمَلاً ، فقال عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره عليه السلام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض عليه السلام حتى بيَّن لامته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد سبيل الحق، وأقام لهم علياً عليه السلام علما وإماما وما ترك [لهم] شيئا يحتاج إليه الأمة إلا بينَّه، فمَن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد ردَّ كتاب الله، ومن رد كتاب الله فهو كافر به.

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم، إن الإمامة أجل قدرا وأعظم شأنا وأعلا مكانا وأمنع جانبا وأبعد غورا من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماما باختيارهم، إن الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ فقال الخليل عليه السلام سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة ثم أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريته أهل الصفوة

والطهارة فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾. فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا فقرنا حتى ورثها الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله، فقال جل وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكانت له خاصة فقلدها صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان، بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فهي في ولد علي عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة، إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله، فمن أين يختار هؤلاء الجهال؟

إن الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، إن الإمامة أسُّ الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيئ والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف. الإمام يحل حلال الله، ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والحجة البالغة، الإمام كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار. الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى وأجواز

البلدان والقفار، ولجج البحار، الإمام الماء العذب على الظماء والدال على الهدى، والمنجي من الردى، الإمام النار على اليفاع، الحار لمن اصطلى به والدليل في المهالك، من فارقه فهالك، الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل والشمس المضيئة، والسماء الظليلة، والأرض البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة. الإمام الأنيس الرفيق، والوالد الشفيق، والأخ الشقيق، والأم البرة بالولد الصغير، ومفزع العباد في الداهية النآد، الإمام أمين الله في خلقه، وحجته على عباده وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله. الإمام المطهر من الذنوب والمبرأ عن العيوب، المخصوص بالعلم، المرسوم بالحلم، نظام الدين، وعز المسلمين وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين.

الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب.

فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، أو يمكنه اختياره، هيهات هيهات، ضلت العقول، وتاهت الحلوم، وحارت الألباب، وخسئت العيون وتصاغرت العظماء، وتحيرت الحكماء، وتقاصرت الحلماء، وحصرت الخطباء، وجهلت الألِبَّاء، وكلت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء، عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله، وأقرت بالعجز والتقصير، وكيف يوصف بكله، أو ينعت بكنهه، أو يفهم شئ من أمره، أو يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه، لا كيف وأنَّى؟ وهو بحيث النجم من يد المتناولين،

ووصف الواصفين، فأين الإختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا؟! أتظنون أن ذلك يوجد في غير آل الرسول محمدﷺ كذبتهم والله أنفسهم، ومنتهم الأباطيل فارتقوا مرتقا صعباً دحضاً، تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم، راموا إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة ناقصة، وآراء مضلة، فلم يزدادوا منه إلا بعداً، [قاتلهم الله أنى يؤفكون] ولقد راموا صعباً، وقالوا إفكاً، وضلوا ضلالاً بعيداً، ووقعوا في الحيرة، إذ تركوا الإمام عن بصيرة، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول اللهﷺ وأهل بيته إلى اختيارهم والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية، وقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُم أَيُّهُم بذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا﴾ أم ﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ أم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ* وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ "أم" ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بل هو ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فكيف لهم باختيار الإمام؟! والإمام عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسول عليه السلام ونسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في نسب، ولا يدانيه ذو حسب، في البيت من قريش والذروة من هاشم، والعترة من الرسول صلى الله عليه وآله والرضا من الله عز وجل، شرف الأشراف، والفرع من عبد مناف، نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله عز وجل، ناصح لعباد الله، حافظ لدين الله. إن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحِكَمِه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى:﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ وقوله في طالوت: ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾وقال لنبيه عليه السلام: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال في الأئمة من أهل بيت نبيه وعترته وذريته صلوات الله عليهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾.

وإن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده، شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاما، فلم يعيَ بعده بجواب، ولا

يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فهل يقدرون على مثل هذا فيختارونه أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدمونه، تعدوا - وبيت الله - الحق ونبذوا ﴿كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وفي كتاب الله الهدى والشفاء، فنبذوه واتبعوا أهواءهم، فذمهم الله ومقتهم وأتعسهم فقال جل وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقال: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ وصلى الله على النبي محمد وآله وسلم تسليما كثيراً»[(١)].

مراتب الإعتقاد بالإمامة الإلهية:

إن هذه الكلمة النورية لهي من أهم الوثائق التي أشارت إلى جملة

---

(١) أصول الكافي ج١ ص١٩٩ ح١ باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته وكذا في الأمالي للصدوق قدس سره ص٩٧ ح١ وأورده قدس سره في عيون أخبار الرضا عليه السلام ج١ باب ٢٠ ص١٤٩ ح١ ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام في وصف الإمامة وذكر فضل الإمام ورتبته وفي كمال الدين وتمام النعمة باب ٥٨ نوادر الكتاب ص٦٧٨ ح٣١ وفي معاني الأخبار باب معنى الإمام المبين ص٩٦ ح٢ وورد في كتاب الغيبة للنعماني رحمه الله باب١٣ ما روي في صفته وسيرته وفعله وما نزل من القرآن فيه ص٢٢١ ح٦، وغيرها من المصادر المعتبرة.

من مقامات الإمامة الإلهية ولأهميتها نجد من الضرورة بمكان إعداد الدراسات والقرءات العقائدية حيالها وذلك من خلال آليات متقنة تستخرج كنوزها وما فيها من لآلئ معرفية.

قد يثار تساؤل مفاده هل أن الإعتقاد بالإمامة الإلهية له مرتبة واحدة أو مراتب متعددة وفي مقام الإجابة على هذا التساؤل نقول:

إن الإعتقاد بالإمامة ذو مراتب متعددة مشككة وليست مرتبة واحدة وهذه حقيقة معرفية تنسحب على كافة المعتقدات كما أشرنا إلى ذلك في بحث التوحيد سابقاً.

بل نقول: إن باب عدم تعدد المراتب في المعارف هو هلاكٌ لنفس المعارف الحقيقية، ومن ثَمَّ نجد أن البيانات الواردة في القرآن وكلام المعصومين عليهم السلام له مراتب عديدة تختلف حسب أفهام الناس، فالبعض يفهم منها معنىً والبعض الآخر معنىً أعمق وهكذا، وهذا ما تشير إليه بعض الروايات.

- قال الإمام الصادق عليه السلام: «كتاب الله على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء»(١).

فهذه الرواية الشريفة تكشف لنا هذه الحقيقة المعرفية المرتبطة بمراتب المعرفة للقرآن الكريم، وهذه الحقيقة سارية في كلام

---

(١) بحار الأنوار ج٨٩ ص١٠٣ ح٨١

المعصومين عليهم السلام لكون معارفهم مع القرآن حقيقة واحدة، فما يأتي في القرآن يأتي في كلامهم لكونهم القرآن الناطق.

عن المفضل بن عمر قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله مَلَك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان... إلى أن قال: «فأحسن الحديث حديثنا لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتى يحده لأن من حدَّ شيئاً فهو أكبر منه»[1] قال العلامة الطباطبائي قدس سره تعليقاً على هذه الرواية الشريفة ما نصه: "قوله عليه السلام: «لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله» يدل أن حديثهم عليهم السلام أمرٌ ذو مراتب يمكن أن يحتمل بعض مراتبه بواسطة التحديد ويشهد له تعبيره عن الحديث في رواية أبي الصامت بقوله: «إن من حديثنا» فيكون حينئذ مورد هذه الرواية مع النصوص التي قالت: «لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[2] مورداً واحداً لكونه مشككاً ذا مراتب.

هذا وتحديد كل واحد من الخلائق حديثهم عليهم السلام لكون ظرفه الذي به يحتمل ما يحتمل وهو ذاته محدود فيصير به ما يحتمله محدوداً وهو السبب في عدم إمكان الإحتمال بكماله، فهو أمر غير محدود وعليه فيكون

---

(١) بصائر الدرجات ج١ ص٦٨ ح١٠٠.

(٢) وردت هذه الكلمات الشريفة في كثير من الروايات على لسانهم عليهم السلام ومن أراد الإطلاع عليها فليراجع كتاب بصائر الدرجات باب أن حديثهم صعب مستعصب وكذا أصول الكافي ج١ وغيرهما الكثير.

خارج عن حدود الإمكان لأنه مقامهم من الله سبحانه، حيث لا يحده حد وهو الولاية المطلقة"[١].

وقال أيضاقُدِّسَ سِرُّه تعليقاً على كلام العلامة المجلسيقُدِّسَ سِرُّه في بحار الأنوار: "...مع أن في الأخبار غرراً تشير إلى حقائق لا ينالها إلا الأفهام العالية والعقول الخالصة فأوجب ذلك اختلاط المعارف الفائضة عنهمعليهم السلام وفساد البيانات العالية بنزولها منزلة ليست هي منزلتها، وفساد البيانات الساذجة أيضاً لفقدها تميزها وتعيبها فما كل سائل من الرواة في سطح واحد من الفهم وما كل حقيقة في سطح واحد من الدقة واللطافة والكتاب والسنة مشحونان بأن معارف الدين ذوات مراتب مختلفة وأن لكل مرتبة أهلاً وأن في إلغاء المعارف هلاك المعارف الحقيقية"[٢].

وعلى هدي هذه الحقيقة يظهر لنا جلياً أن حقيقة واحدة لها مراتب متعددة فمرتبة منها تكون خاصة بالأئمةعليهم السلام ومرتبة تُعطى لمن شاءوا ومرتبة لا يحتملها إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن ممتحن، ومرتبة منها للمؤمنين جميعاً.

وهذا البحث من الأبحاث المهمة التي عرضت له روايات أئمة أهل البيتعليهم السلام بعنوان أن حديثهم «صعب مستصعب»، وقد أشار إلى بيان هذا

---

(١) رسالة الولاية للعلامة الطباطبائي ص٢١٠ تحقيق الشيخ صباح الربيعي والشيخ علي الأسدي.

(٢) بحار الأنوار ج١ ص١٠٠ تعليقة رقم٧.

المعنى أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله في الفصل التاسع من كتاب علم الإمام حيث أشار مفصلاً إلى هذا البحث فراجع.

وعلى هدي هذه القاعدة المعرفية الرصينة يتضح لنا حقيقة تعدد مراتب الإعتقاد بالإمامة الإلهية، ونشير إلى بعض مراتبها تباعاً:

المرتبة الأولى:

الإعتقاد بعصمة الإمام عليه السلام والنص عليه والديمومة والعدد:

إن هذه المرتبة الإعتقادية في الإمامة الإلهية هي أدنى المراتب وحد النصاب الذي لا يمكن أن يتجاوزه المعتقد، وإلا خرج عن كونه إمامياً إثنا عشرياً.

جاء في الأمالي للشيخ الصدوق قدس سره بسنده عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام فدخل عليه رجل من أهل طوس، فقال له: يا بن رسول الله ما لمن زار قبر أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام؟ فقال له: «يا طوسي من زار قبر أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام وهو يعلم أنه إمام من الله مفترض الطاعة على العباد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقبل شفاعته في سبعين مذنباً، ولم يسأل الله عز وجل عند قبره حاجة إلا قضاها له. قال: فدخل موسى بن جعفر عليه السلام، فأجلسه على فخذه، وأقبل يقبل ما بين عينيه، ثم التفت إليه فقال له: يا طوسي، إنه الإمام والخليفة والحجة بعدي، وإنه سيخرج من صلبه

رجل يكون رضاً لله عز وجل في سمائه ولعباده في أرضه، يقتل في أرضكم بالسم ظلما وعدوانا، ويدفن بها غريبا، ألا فمن زاره في غربته، وهو يعلم أنه إمام بعد أبيه مفترض الطاعة من الله عز وجل، كان كمن زار رسول الله عليه السلام»(١).

عن حمزة بن حمران قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يُقتَل حفدتي بأرض خراسان في مدينة يقال لها: طوس من زاره إليها عارفا بحقه أخذته بيدي يوم القيامة فأدخلته الجنة وإن كان من أهل الكبائر قال: قلت: جعلت فداك وما عرفان حقه؟ قال: يعلم إنه إمام مفترض الطاعة شهيد، من زاره عارفا بحقه أعطاه الله تعالى له أجر سبعين ألف شهيد ممن اُستشهد بين يدي رسول الله عليه السلام على حقيقة، وفي حديث آخر قال: قال الصادق عليه السلام: يقتل لهذا وأومى بيده إلى موسى عليه السلام ولد بطوس ولا يزوره من شيعتنا إلا الأندر فالأندر»(٢).

فيظهر من هاتين الروايتين ومن غيرهما من أن حد النصاب في الإعتقاد بالإمامة هو كون الإمام منصوص عليه من الله وأيضاً معصوم بدلالة كونه مفترض الطاعة هذا مضافا إلى ضرورة الإعتقاد بكون الأئمة عليهم السلام إثنا عشر وأن الإمامة دائمة وعليه يتضح معنى أن من مات ولم يعرف إمام زمانه

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق ص١٨٣.

(٢) عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق ج١ ص٢٩٠ باب في ذكر ثواب زيارة الإمام الرضا عليه السلام ح١٨.

مات ميتة جاهلية فالنص والعصمة والديمومة والعدد حد النصاب في الإعتقاد بالإمامة الإلهية وكون المعتقد إمامياً إثنا عشرياً، فلا يمكن القول بأن من ينكر هذه الأمور الأربعة أو أحدها يكون خارجا عن دائرة التشيع بالمعنى الأخص أي (الإمامية الإثني عشرية).

المرتبة الثاني:

لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها:

إن هذه المرتبة تتضمن ما تقدم من الإعتقاد بالنص والعصمة والديمومة والعدد مضافاً إلى أن للأئمةعليهم السلام دور وجودي في حفظ هذا النظام، كما روي في روايات مستفيضة من أن لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

عن سليمان الجعفري قال: سألت أبا الحسن الرضاعليه السلام قلت تخلو الأرض من حجة الله؟ قال: «لو خلت الأرض طرفة عين من حجة لساخت بأهلها»[(١)].

وأيضاً محمد بن عليعليه السلام عن أبيه علي بن الحسينعليهما السلام قال: «نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان

(١) بصائر الدرجات باب في أن الأئمة إذا مضى منهم يعرف الذي بعده ح٨

لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها»[(١)].

وأيضا ورد عن عمرو بن ثابت، عن أبيه، عن أبي جعفرعليه السلام قال: سمعته يقول: «لو بقيت الأرض يوما بلا إمام منا لساخت بأهلها ولعذبهم الله بأشد عذابه، إن الله تبارك وتعالى جعلنا حجة في أرضه وأمانا في الأرض لأهل الأرض، لم يزالوا في أمان من أن تسيخ بهم الأرض ما دمنا بين أظهرهم، فإذا أراد الله أن يهلكهم ثم لا يمهلهم ولا ينظرهم ذهب بنا من بينهم ورفعنا إليه، ثم يفعل الله ما شاء وأحب»[(٢)].

وورد عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقرعليهما السلام: لأي شئ يحتاج إلى النبيصلى الله عليه وآله والإمام؟ فقال: لبقاء العالم على صلاحه وذلك أن الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو أمام قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وقال النبيصلى الله عليه وآله النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون وإذا ذهب أهل بيتي أتى

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوققدس سره ص٢٥٢.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق الباب الحادي والعشرون في العلة التي من أجلها يحتاج إلى الإمامعليه السلام ح١٤.

أهل الأرض ما يكرهون يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون ولا يعصون وهم المؤيدون الموفقون المسددون بهم يرزق الله عباده وبهم تعمر بلاده وبهم ينزل القطر من السماء وبهم يخرج بركات الأرض وبهم يمهل أهل المعاصي ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب لا يفارقهم روح القدس ولا يفارقونه ولا يفارقون القرآن ولا يفارقهم صلوات الله عليهم أجمعين»[(١)].

فهذه الروايات الشريفة وغيرها تكشف عن مرتبة أخرى من مراتب الإعتقاد بالإمامة الإلهية وهي أن للإمام دور وجودي بمعنى أنه هو الحافظ لعالم الإمكان بأسره وهو روح العالم والذي يُبقي العالم على صلاحه، وفي هذه المرتبة تأتي مسألة الإعتقاد بالولاية التكوينية والتشريعية لهمعليهم السلام وكذا علمهم بما كان وما يكون وما هو كائن وما إلى ذلك، والبحث في هذه المسائل موكول إلى محلها .

المرتبة الثالثة:

نحن والله الأسماء الحسنى:

إن هذه المرتبة تتضمن الإعتقاد بما تقدم في المرتبتين السابقتين

---

(١) علل الشرايع باب العلة التي من أجلها يحتاج إلى النبي والإمامعليهما السلام ج١ ح١.

مضافاً إلى الإعتقاد في هذه المرتبة بكونهم عليهم السلام المظاهر التامة لأسماء الله سبحانه وتعالى وكونهم الكلمات التامة بمعنى، أنهم المرائي الصافية التي تعكس جمال الله وجلاله ومن ثَمَّ هم المظاهر للاسم الأعظم والذي تحت حيطته جميع الأسماء الإلهية، فهم وسائط الفيض النازل من الله سبحانه وتعالى لكونهم روح عالم الإمكان ولهم تمام المؤثرية بإذن الله تعالى، ومن ثَمَّ يكون الإعتقاد بالإمامة الإلهية الإعتقاد بالخلافة الأسمائية لله تعالى.

وهذه الحقيقة المعرفية العظيمة أشارت إليها جملة من الروايات.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»[1].

ومن الوضوح بمكان أن المراتب الإعتقادية بالإمامة الإلهية لا يمكن حصرها وكما أشرنا بأن هناك مقامات للإمام لا يعرفها إلا النبي والإمام كما ورد ذلك.

قال النبي صلى الله عليه وآله في حق الإمام علي عليه السلام: «يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا»[2] فتدبر.

وعنه صلى الله عليه وآله في حق نفسه: «لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرب ولا

(١) الكافي ج١ ص١٤٣ باب النوادر ح٤.

٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج٣ ص٢٦٧ و مشارق أنوار اليقين للحافظ البرسي ص١٧٢ وإرشاد القلوب : ٢ج ص٢٠٩.

نبي مرسل ولا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[(١)].

تفاوت معرفة أصحاب الأئمة بالإمامة الإلهية:

على هدي ما تقدم يظهر لنا تفاوت واختلاف مراتب أصحاب الأئمةعليهم السلام في شأن الإعتقاد بالإمامة الإلهية ومن ثَمَّ اختلفت العطايا المعرفية من الأئمةعليهم السلام على أصحابهم لاختلاف القوابل والإستعدادات.

فمثلاً نجد سلمان المحمدي رضي الله عنه له من السعة الوجودية في تحمل الحقائق في معرفة الأئمة ما ليس لغيره.

جاء عن عيسى بن حمزة أنه قال: قلت لأبي عبدالله الصادقعليه السلام الحديث الذي جاء في الأربعة؟ قال: «وما هو؟ قلت: الأربعة التي اشتاقت إليهم الجنة قال: نعم منهم سلمان وأبوذر والمقداد وعمار قلت: فأيهم أفضل؟ قال: سلمان»[(٢)].

عن زرارة قال: سمعت أبا عبدالله الصادقعليه السلام يقول : «أدرك سلمان العلم الأول والعلم الآخر وهو بحر لا ينزح وهو منا أهل البيت»[(٣)].

قال المحدث النوريقدس سره معلقاً على هذه الأحاديث: "ثم إن المقصود من تلك الأخبار واضح بعد ما عرفت إن للإيمان - ونعني به هنا

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج١٨ ص٣٦٠ ح٦٦.

(٢) الكافي ج١ ص٤٠١ ح٢.

(٣) الإختصاص للشيخ المفيد ص١١

التصديق التام الخالص بالله وبرسوله والأئمة الأطهار عليهم صلوات الله الملك الجبار - ولمعرفتهم مراتب ودرجات، ولكل مرتبة ودرجة أحكام وحدود مختصة بها ما دام صاحبها فيها ولم يترق إلى ما فوقها، فإذا أخذ بالحظ الوافر والنصيب المتكاثر انقلبت أحكامه وتكاليفه، كما انشرح صدره الذي كان ضيقا بنور معرفة الله وأوليائه، والعلم بحقائق الأشياء كما هي، فيرى حينئذ أن ما كان عليه قبل ذلك كفر وضلال، لإحاطته بقصور المقام ونقصانه بالنسبة إلى ما هو عليه من المرتبة والكمال، كما أنه وهو في تلك الحالة لو كشف له ما لم يصل إليه يراه كفرا، لعجزه عن دركه ومخالفته لما بنى عليه أمره، ولذا نهى عليه السلام في الأخبار السابقة عن أن يقول صاحب الواحد لصاحب الاثنين: لست على شئ، وهكذا، وكذا عن إسقاط من هو دونه، ومن هنا كانوا عليهم السلام يمسكون عن أشياء كان علمها مختصة بذوي الهمم العالية والقلوب الصافية لو سأل عنها من انهمك في الجهل والغرور، وذلك واضح بعد التتبع التام في تراجم الرواة وأصحاب الأئمة الهداة"[١].

ومنه يتضح أن لكل إمام معصوم خواص يتحملون شيئا من تلك الحقائق والمعارف المرتبطة بمقاماتهم كما نجد ذلك في أويس القرني وكميل بن زياد وميثم التمار بالنسبة للإمام علي عليه السلام.

وكذا جابر بن يزيد الجعفي بالنسبة للإمام الباقر والصادق عليهما السلام والتي

---

(١) كتاب نفس الرحمن في فضائل سلمان للميرزا حسين النوري الطبرسي ص٢٢٣.

عبرت عنه بعض الروايات أنه كـ (سلمان) رضي الله عنه.

عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إذ دخل المفضل بن عمر، فلما بَصُرَ به ضحك إليه، ثم قال: «إليَّ يا مفضل، فوربي إني لأحبك وأحب من يحبك، يا مفضل لو عرف جميع أصحابي ما تعرف ما اختلف اثنان، فقال له المفضل: يا ابن رسول الله لقد حسبت أن أكون قد أنزلت فوق منزلتي، فقال عليه السلام: «بل أنزلت المنزلة التي أنزلك الله بها، فقال: يا ابن رسول الله فما منزلة جابر بن يزيد منكم؟ قال: منزلة سلمان من رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فما منزلة داود بن كثير الرقي منكم؟ قال: منزلة المقداد من رسول الله صلى الله عليه وآله ... الحديث»[١].

للمعارف الإلهية أهل يتحملونه:

ومن ثَمَّ جاء النهي من الأئمة عليهم السلام في عدم رفض الروايات الواردة في هذا الصدد وعدم الإعتقاد بها بحجة عدم فهمها لأن للمعارف أهلٌ يتحملونها دون غيرهم كما ورد ذلك عن زرارة الذي همَّ بإحراق بعضٍ من تلك الروايات بحجة عدم استيعابها وما شاكل ذلك.

عن الحسن بن موسى عن زرارة قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فسألني ما عندك من أحاديث الشيعة؟ قلت: إن عندي منها شيئا كثيرا قد هممت أن أوقد لها نارا ثم أحرقها، قال: ولم؟ هات ما أنكرت منها، فخطر

---

(١) الإختصاص للشيخ المفيد ص٢١٦.

على بالي بعض الأمور فقال لي: ما كان علم الملائكة حيث قالت: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟»[١].

فهذه الرواية تكشف بعداً أخراً عن تفاوت أصحاب الأئمة عليهم السلام بمعرفة مراتب الإمامة الإلهية ومن ثَمَّ علَّق العلامة المجلسي قدس سره على هذه الرواية حيث قال:

"لعل زرارة كان ينكر أحاديث من فضائلهم لا يحتملها عقله فنبهه عليه السلام بذكر قصة الملائكة وإنكارهم فضل آدم عليهم وعدم بلوغهم إلى معرفة فضله على أن نفي هذه الأمور من قلة المعرفة ولا ينبغي أن يكذب المرء بما لم يحط به علمه، بل لابد أن يكون في مقام التسليم فمع قصور الملائكة مع علو شأنهم عن معرفة آدم لا يبعد عجزك عن معرفة الأئمة عليهم السلام"[٢].

فتحصل مما تقدم أن للإيمان والإعتقاد مراتب عديدة وقد ذكرنا للتدليل على هذه الحقيقة نموذجين هما الإعتقاد بالتوحيد والإعتقاد بالإمامة الإلهية وينسحب إلى الإعتقاد بالمعاد وبسائر مسائل المنظومة الإعتقادية.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا للتكامل في مدارج المعارف الإلهية إنه سميع الدعاء وهو الغاية.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج٢٥ باب نفي الغلو عن النبي والأئمة ح٢٨.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الثامن

التقليد في أصول الدين

* الدين أصول وفروع
* الإنسان المكلف بين الأصول والفروع
* أمور مهمة
* التقليد بين الحرمة والجواز
* إشارة مهمة

الدين أصول وفروع:

إن انقسام الدين إلى أصول وفروع أو إلى رؤية كونية[1] وأيديولوجية[2] لهو أمرٌ من الواضحات التي لا مجال للكلام فيها وأن حركة الفروع والأيديولوجية إنما تقوم على الأصول والرؤية الكونية ومن ثَمَّ لا تخفى خطورة الأصول والرؤية الكونية في مسار حركة الإنسان نحو الكمال وبالتالي كلما كانت الرؤية الكونية صحيحة مبنية على الدليل والبرهان كلما أثمرت السعادة لهذا الإنسان في الدنيا والآخرة والعكس بالعكس، وهذه الحقيقة باتت واضحة المعالم حتى في الدراسات الأكاديمية مما يوحي إلى ضرورة الإعتناء بتحديد معالم الرؤية الكونية للإنسان وذلك لعدم إمكانه العيشَ إلا وفق رؤية كونية تحكمه ويسير تحت

---

(١) الرؤية الكونية هي: مجموعة من المعتقدات والنظرات الكونية المتناسقة حول الوجود بصورة عامة.

(٢) الأيديولوجية هي: مجموعة من الآراء الكلية المتناسقة حول سلوك الإنسان وأفعاله.

ظلالها، بل حتى من ينكر ذلك في حياته هو يعيش تحت وقع رؤية كونية قالت له هذا المعنى دون غيره فاعتقد بها، ومن ثَمَّ لا يوجد إنسان ليس له عقيدة صحيحة كانت أم خاطئة .

الإنسان المكلف بين الأصول والفروع:

من المسائل المهمة والتي كانت مورداً للبحث عند الأعلام هي مسألة علاقة الإنسان المكلف بأصول الدين وفروعه.

ذكر المشهور من الأعلام أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين، وعللوا ذلك بأن الأصول هي ما يعقد عليها قلب الإنسان وبالتالي لا يمكن ذلك إلا باليقين والعلم الحاصل من الدليل والبرهان أو ما يسمى بالنظر والإستدلال فلا يمكن أن يكون بتقليد قول الغير.

وأما مسألة الفروع فقد ذكروا أنه إما أن يكون المكلف مجتهداً أو محتاطاً أو مقلداً، وهذا ما يعني أنه لا بد للإنسان أن يجتهد في أصول الدين فلا معنى للإحتياط في المعتقدات فضلاً عن التقليد فيها.

أمور مهمة:

وقبل الدخول إلى هذه المسألة المهمة نمهد لها بمجموعة من الأمور منها:

الأمر الأول: ضابط المسألة الإعتقادية:

ذُكر في المقام رأيان لتحديد الفارق بين المسألة الإعتقادية والفرعية والضابط بينهما:

الرأي الأول:

ما عليه مشهور الأعلام من أن كل أمر يرتبط بفعل المكلف وما يقوم به يكون من فروع الدين كالصلاة والصوم وغيرهما لكونها مرتبطة بأفعال الإنسان.

وأن كل أمر مرتبط بفعل الله سبحانه وتعالى فهو من أصول الدين كالنبوة والإمامة وغيرهما.

*الرأي الثاني:

ما ذكره أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله حيث قال: "أما ما نراه نحن فهو أن المائز الأساسي هو أن ننظر أولاً إلى الأمر الكذائي أكان جعله من قبل الله تعالى لأجل الإعتقاد أولاً وبالذات، أم لأجل العمل أولاً وبالذات، فإن كان المترتب على أصل الجعل هو العمل أولاً وبالذات فهو داخل ضمن ما نصطلح عليه بالأمور العملية أو ما يسمونه بفروع الدين، وإن كان المترتب على أصل الجعل هو الإعتقاد أولاً وبالذات فهو داخل ضمن الأمور الإعتقادية أو ما يعبر عنه أيضاً بأصول الدين.

إذن الفارق الرئيسي بين الجعلين هو أن أحدهما كان مقصوداً منه هو الإعتقاد القلبي ـ وهذا لا يمنع من ترتب أثر عملي عليه ثانياً وبالعرض كوجوب الطاعة المترتب على الإعتقاد بالإمامة، ما دام المقصود من أصل جعل الإمامة هو الإعتقاد لا العمل ـ ومثل هذا الجعل مجاله هو الإعتقاديات ـ وقد اتضح ذلك ـ وأن الآخر كان المقصود من أصل جعله هو العمل

الخارجي كالصلاة والصوم والحج ـ وغير ذلك ـ وهذا الجعل مجاله هو الأمور العملية"[١].

الأمر الثاني: المنظومة الإعتقادية بين المهم والأهم:

إن المسائل الإعتقادية ليست في مرتبة واحدة من حيث الأهمية والخطورة بل يوجد ما هو أهم وما هو مهم، فمثلاً الإعتقاد بالتوحيد هو أهم أصل في المنظومة الإعتقادية والذي لولاه ما تمت بقية الأصول فلا معنى للإعتقاد بنبوة نبي أو بإمامة إمام من دون الإعتقاد بالتوحيد ولا معنى للإعتقاد بعدالة الله والرجوع إليه يوم القيامة كذلك، وهذا مما يكشف لنا أن الإعتقاد بالتوحيد هو أهم أصل ثم يأتي الإعتقاد بالنبوة والإمامة وما إلى ذلك، وهذا يعني لنا وجود التفاوت بينها فيوجد.

وعلى هدي ما تقدم يتضح حال المسائل التفصيلية في الإعتقادات، فالإعتقاد بالنص والعصمة في الإمامة متقدم رتبة على مسائلها التفصيلية، فالأول أساس في الإعتقاد والثاني من كمال الإعتقاد.

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى مسألة اختلاف مراتب الإيمان والإعتقاد بالتوحيد والإمامة كنموذجين فراجع.

ونظير هذه المسألة ما نجده في مسائل الفروع من كون الصلاة أهم الفروع لأنها إن قُبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها فهي بلا شك

---

(١) كتاب التفقه في الدين للعلامة السيد كمال الحيدري ص١١٧.

أهم من الصيام والحج وما إلى ذلك.

ومما تقدم تظهر لنا حقيقة معرفية وهي أن الضرورات الدينية سواء كانت في المسائل الإعتقادية أم المسائل الفرعية ذات مراتب متعددة وليست مرتبة واحدة.

ونظير ذلك ما يرتبط بالبديهيات التصورية أو البديهيات التصديقية حيث يوجد بينها تفاوت فيوجد ما هو أوضح بداهة من بديهي آخر، فليس كل البديهيات في مرتبة واحدة فتدبر.

الأمر الثالث: التفقه في الدين:

إن التفقه في الدين لا ينحصر في فروعه بل ينسحب في الأمور الإعتقادية وذلك لكون الدين شامل للإعتقاديات والفرعيات وهذا ما ذكرناه في أول هذا البحث ومن ثَمَّ نفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة توضح لنا بجلاء أن التفقه في الدين أمر لابد وأن الدين هو مجموع الأصول والفروع.

---

(١) التوبة ١٢٢.

الأمر الرابع : التقليد ممدوح ومذموم:

إن التقليد سواء في أصول الدين أم في فروعه ينقسم إلى قسمين: تقليد مذموم وتقليد ممدوح:

فالتقليد المذموم: هو الذي لا يستند إلى حجة بينما التقليد الممدوح فهو المستند إلى حجة سواء أفضى إلى العلم واليقين أم إلى الظن المعتبر، ومن ثَمَّ نفهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾[(١)].

فهذه الآية تكشف لنا بدلالة مكثفة أن هؤلاء اتبعوا آبائهم من دون حجة ودليل وذلك لكونهم ليسوا من العقلاء وليسوا من المهتدين حيث عللت الآية الشريفة بذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[(٢)]، حيث توضح "أن المشكلة لا تكمن في الرجوع إلى آبائهم لأنهم آباؤهم وإنما لأنهم ليسوا من العقلاء وليسوا من المهتدين، ومن هنا يمكن أن نستفيد نحن من هذه الآية لإثبات جواز الرجوع فيما إذا مَن نرجع إليه عاقلاً وعالماً ومهتدياً، ومن الواضح أن الرجوع إلى غير المؤهل هو مذموم حتى في غير الأمور الدينية، فالمريض لابد أن يرجع إلى الشخص المتخصص وهو الطبيب لا أن يرجع إلى أي شخص وإلا صار رجوعه مذموماً، في حين أن رجوعه إلى المتخصص ممدوح ولابد منه ما

---

(١) البقرة ١٧٠.

(٢) البقرة ١٧٠.

لم يكن طبيباً بنفسه.

إذن فالقرآن الكريم قد قسَّم التقليد إلى قسمين: منه ما هو مذموم وهو الرجوع إلى غير المتخصص، ومنه ما هو ممدوح وهو الرجوع إلى المتخصص في مجاله"[١].

الأمر الخامس: مصطلحات مهمة:

عندنا إصطلاحات ثلاثة مهمة ولها دخالة في بحثنا فلا بد من توضيحها وهي:

- العلم العادي أو البسيط.
- العلم الخاص.
- الظن.

العلم العادي أو البسيط:

والمراد منه هو حصول الجزم عند الإنسان بأن هذا المحمول ثابت لذلك الموضوع مثلاً القضية زيدٌ عالمٌ فمعنى العلم العادي هنا هو الإعتقاد والجزم واليقين بأن العلم ثابت لزيد، ومن ثَمَّ لا يوجد هنا إلا جزم واحد.

---

(١) المصدر السابق ص١٤٤.

العلم الخاص:

وهو الجزم باستحالة انفكاك المحمول عن الموضوع بعد الجزم بثبوت المحمول للموضوع أي عندنا جزمان في العلم الخاص وهما: الجزم بثبوت المحمول للموضوع والجزم باستحالة انفكاك المحمول عن الموضوع، ومن ثَمَّ سمي العلم الخاص بالمركب لأن فيه جزمان بينما العلم العادي علم بسيط لأن فيه جزماً واحداً.

الظن:

هو ترجيح مضمون الخبر أو عدمه مع تجويز الطرف الآخر فمثلاً لو أخبرك شخص ثقة بأن أمرا ما قد وقع فهنا يحصل عندك ظنٌّ أي ٧٠٪ بأن الأمر قد وقع ولكن يبقى احتمال ٣٠٪ بعدم الوقوع وبعبارة أخرى أنك لا تجزم بوقوع الأمر ١٠٠٪.

المعتقدات بين العلم الخاص والعادي والظن:

على هدي ما تقدم يظهر لنا أن بعض أصول الدين لا بد فيها من الجزم واليقين بثبوت المحمول للموضوع وعدم الإنفكاك وهو العلم الخاص فلا يكفي العلم البسيط أو الظن، كالإعتقاد التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، فلابد للإنسان أن يعتقد بوجود الله وأنه واحد ويعتقد باستحالة عدم وجوده وعدم كونه واحداً فهنا قطعان ويقينان، وكذا الحال في نبوة النبي وإمامة الإمام والمعاد، فهذه الأمور لا يكفي فيها العلم العادي

فضلاً عن الظن.

أما بعض المعتقدات يكفي فيها العلم العادي والبعض الآخر يكفي فيها الظن .

قال أستاذنا العلامة السيد كمال الحيدري حفظه الله في هذا الصدد ما نصه: "الواقع أن الإجابة عن ذلك تستدعي منا تقسيم الأمور الإعتقادية إلى عدة أقسام، وهذا أمر ممكن وصحيح ـ على ما نعتقده ـ والأقسام هي ثلاثة:

قسم لا يكفي فيه إلا العلم الخاص، وقسم يكفي فيه العلم العادي، وقسم يكفي فيه حتى الظن، وهذا يعني أن القضية ليست منحصرة بالعلم وإنما فيها تفصيل، فإن الأمور الإعتقادية ليست على درجة واحدة من الأهمية وإنما هي على مراتب، فالمطالب الأساسية والأصلية كإثبات وجود الله وتوحيده وصفاته ونبوة الأنبياء وعصمتهم والإمامة والمعاد تختلف من حيث أهميتها عن مسائل عقائدية أخرى، بل إن تلك المطالب والقضايا الأساسية فيها ما هو الأهم وما هو المهم، فإن أصل التوحيد هو أهم قضية على الإطلاق، فإذا ما انتفى ذلك الأصل عند شخص ـ لا سمح الله ـ فإنه لا تبقى أية فائدة أو معنى للإعتقاد بما عدا ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1] وإن جميع أعماله غير

(١) النساء ٤٨.

مقبولة منه ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾[(١)] وسبق لنا أن أشرنا إلى هذا المعنى من حيث قلنا هناك أن الأمور العملية فيها ما هو أصل وما هو فرع وكذا الحال في الأمور الإعتقادية.

وعلى أي حال، فإن جميع المسائل الرئيسية والأساسية كالأصول الإعتقادية الأولى وما في رتبتها يشترط فيها العلم الخاص".

وقال أيضاً حفظه الله: "ويمكن تقريب ذلك بمثال وهو أن مسائل الإمامة ـ كما نعتقده نحن في مدرسة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ لا يقع جميعها في سطح واحد ، فمنها ما هو أصل وما هو فرع، والاول ما يلزم من إنكاره الخروج عن مدرسة ومذهب أهل البيت عليهم السلام، من قبيل الإعتقاد بعصمة الإمام فإنها من الأصول الإعتقادية في الإمامة عند مدرسة أهل البيت ـ عليهم السلام.

فهي مفترق طرق لمن أراد الدخول أو الخروج من مدرسة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وهذا بخلاف القسم الآخر الذي لا يلزم من إنكاره الخروج من مدرسة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ كما هو الحال في الإعتقاد بعلم الإمام بالغيب، فإنها ليست من ضروريات المذهب، وهكذا في جملة أخرى من المسائل.

إذن فمسائل الأمور الإعتقادية ليست على درجة ورتبة واحدة"[(٢)].

---

(١) الفرقان ٢٣.

(٢) المصدر السابق ص١٢٣ إلى ١٢٥.

تحرير المسألة:

على هدي ما تقدم من أمور أشرنا إليها لأهميتها ودخالتها في تحرير مسألة التقليد في أصول الدين، نأتي إلى تحرير محل النزاع في المقام.

إن محل النزاع هو: هل أن التقليد طريق للوصول إلى الإعتقاديات أم لا بد من سلوك طريق العلم الخاص أو العلم العادي؟

قد أشرنا في الأمر الخامس إلى الفرق بين العلم الخاص والعلم العادي والظن وأوضحنا أن المسائل الإعتقادية ليست على مرتبة واحدة ومن هنا نشير إلى تحرير المسألة وهو أن الأعلام لم يختلفوا أساساً في النتيجة المطلوبة وهو الجزم واليقين في المسائل الإعتقادية فلا يوجد أحد يقول بكفاية الإحتمال أو الظن أو حتى العلم العادي في مسألة أصول الإعتقاديات كالتوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد بل لابد فيها من الجزم واليقين وهو الذي أسميناه بالعلم الخاص، هذا هو الكلام على مستوى النتيجة فلا خلاف في ذلك بينهم.

وإنما وقع الكلام بين الأعلام في مسألة الطريق المفضي والموصل إلى هذا اليقين والجزم خصوصاً كما قلنا في خصوص أصول الإعتقاديات.

ومن ثَمَّ اختلفت كلمات الأعلام في المقام من حيثية الطريق الموصل، فهل يكون الطريق هو العلم الخاص أو العلم العادي أو التقليد ؟

ذهب جملة من الأعلام ومنهم العلامة الحلي قدس سره إلى ضرورة الوصول إلى الجزم واليقين عن طريق الدليل وليس التقليد.

قال قدس سره: "أجمع العلماء كافة على وجوب معرفة الله تعالى وصفاته

الثبوتية والسلبية وما يصح عليه وما يمتنع عنه والنبوة والإمامة والمعاد، بالدليل لا بالتقليد"[١].

قال الشارح المقداد السيوري قدس سره في هذه معنى العبارة ما نصه: "ولا يجوز معرفة الله بالتقليد والتقليد هو قبول قول الغير من غير دليل. وإنما قلنا ذلك لوجهين: الأول: أنه إذا تساوى الناس في العلم، واختلفوا في المعتقدات، فإما أن يعتقد المكلف بجميع ما يعتقدونه، فيلزم اجتماع المتنافيات، أو البعض دون البعض، فأما أن يكون المرجح أو لا، فإن كان الأول فالمرجح هو الدليل وإن كان الثاني، فيلزم الترجيح بلا مرجح وهو محال.

الثاني: أنه تعالى ذم التقليد بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وحث على النظر والإستدلال بقول تعالى: ﴿فائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢][٣].

وعلى المسار نفسه نجد أن الحكيم المتأله المولى محمد مهدي النراقي قدس سره حيث أشار إلى ضرورة سلوك طريق النظر والإستدلال لا التقليد حتى لو كان مفضياً للعلم والجزم كما أشار إلى ذلك[٤].

---

(١) الباب الحادي عشر للعلامة الحلي ص٣.

(٢) الأحقاف ٤.

(٣) الباب الحادي عشر ص٤.

(٤) كتاب أنيس الموحدين للمولى النراقي ص٣٩.

وعلى نفس النسق نجد المحقق الخونساريقُدِّسَ سِرُّهُ يرى ضرورة حصول العلم واليقين عن طريق الإستدلال والنظر وليس عن طريق التقليد، ومن ثَمَّ أورد على المحقق النراقيقُدِّسَ سِرُّهُ أن المكلف لو حصَّل المعرفة بالتقليد دون سلوك طريق الدليل والبرهان فإنه عاصٍ وإن كان محكوما بالإسلام، فظاهر هذا الإيراد أنه يرى ضرورة سلوك طريق الدليل لا طريق التقليد في حصول المعرفة ـ أي المعرفة بالله ـ[1].

وعلى نفس النسق قال صاحب العروة السيد اليزديقُدِّسَ سِرُّهُ في باب الإجتهاد والتقليد في المسألة السابعة والستين ما نصه: "محل التقليد ومورده هو الأحكام الفرعية العملية فلا يجري في أصول الدين".

الرأي الآخر في المسألة:

وفي المسألة رأي آخر يتبناه جملة من الأعلام الكبار من أن المقصود هو حصول الجزم واليقين في المسألة الإعتقادية بغض النظر عن طريقها سواء حصل من التقليد أم حصل من الدليل والبرهان وذلك لكون المهم في الأمر هو النتيجة أي الجزم واليقين وعليه إذا كان التقليد مُفضيا إلى العلم الخاص واليقين فهذا كافٍ على ما يعقد عليه القلب.

وهذا المعنى هو ما ذهب إليه الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاريقُدِّسَ سِرُّهُ حيث أنكر لزوم كون اليقين من الدليل بل يكون حتى لو حصل من التقليد.

---

(١) كتاب مبدأ ومعاد بالفارسي ص١١.

قال قدس سره: "إن مقصود المجمعين هو وجوب معرفة الله تعالى لا اعتبار أن تكون هذه المعرفة حاصلة عن النظر والإستدلال كما هو المصرح به عن بعضٍ والمحكي عن آخرين باعتبار العلم ولو حصل من التقليد"(١).

وعلى المسار نفسه نجد المحقق الكبير والمدقق العظيم السيد الخوئي قدس سره يقول ما نصه: "قد عرفت أن التقليد هو الإستناد إلى فتوى الغير في مقام العمل، والوجه في وجوبه على ما قدمناه استقلال العقل بوجوب دفع الضرر المحتمل بمعنى العقاب ولا يتأتى هذا فيما اعتبر فيه اليقين والاعتقاد كما في الأصول كالتوحيد والنبوة والمعاد، لوضوح أنه لا عمل في تلك الأمور حتى يستند فيها إلى قول الغير أو لا يستند، فإن المطلوب فيها هو اليقين والاعتقاد ونحوهما مما لا يمكن أن يحصل بالتقليد فلا معنى له في مثلها. بل لو عقد القلب - في تلك الأمور - على ما يقوله الغير لم يكتف به بوجه، إذ المعتبر في الأصول إنما هو اليقين والعرفان والإعتقاد، وشئ من ذلك لا يتحقق بعقد القلب على ما يقوله الغير. بل هذا هو القدر المتيقن مما دل على ذم التقليد واتباع قول الغير في الأصول كقوله عز من قائل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. نعم هناك كلام آخر في أنه إذا حصل له اليقين من قول الغير يكتفي به في الأصول أو يعتبر أن يكون اليقين فيها مستندا إلى الدليل والبرهان؟ إلا أنه أمر آخر أجنبي عما نحن بصدده، وإن كان الصحيح جواز الاكتفاء به، إذ المطلوب

---

(١) راجع فرائد الأصول للشيخ الأعظم من ص١٦٩ إلى ص١٧٥.

في الإعتقاديات هو العلم واليقين بلا فرق في ذلك بين أسبابهما وطرقهما. بل حصول اليقين من قول الغير يرجع في الحقيقة إلى اليقين بالبرهان لأنه يتشكل عند المكلف حينئذ صغرى وكبرى فيقول: هذا ما أخبر به أو اعتقده جماعة، وما أخبر به جماعة فهو حق ونتيجتهما أن ذلك الأمر حق فيحصل فيه اليقين بإخبارهم"[١].

وعلى المسار نفسه يقول تلميذه البارز المحقق المدقق الشيخ الميرزا جواد التبريزيقدس سره ما نصه: "... وأما ما يكون من أصول الدين والمذهب مما يكون المطلوب فيه تحصيل العلم والمعرفة والإعتقاد والإيمان بها فلا يكون التقليد فيها مشروعاً بمعنى أن قول الغير فيها لا يُحسب علماً وعرفاً واعتقاداً وإيماناً.

نعم إذا كانت أقوال الصالحين من العلماء العاملين المتقين في طول الأعصار وكذا الشهداء والزهاد موجباً للإنسان اليقينَ والإعتقاد بأصول الدين والمذهب بحيث صار الإنسان على معرفة ويقين واعتقاد بأنه لو لم يكن ما ذكروه في أصول الدين والمذهب حقاً لما كان هؤلاء في دار الدنيا مُتْعَبين في طريق الدين والمذهب فأيقن أو اعتقد بها كفى ذلك مما يجب على المكلف بالإضافة إلى أصول دينه ومذهبه وليس هذا من التقليد فيهما فإن التقليد كما تقدم الأخذ بقول الغير تعبداً أي من غير يقين ودليل عنده على صحة ذلك القول وكونه حقاً مطابقاً للواقع وإنما يكون الأخذ بقوله

(١) التنقيح في شرح العروة الوثقى ج١ مسألة ٦٧ ص٣٤٨.

للدليل عنده على اعتباره في حقه وإن لم يكن حقاً واقعاً.

وبتعبير آخر: الدليل عند العامي إنما على الأخذ بقوله لا على نفس قول الغير في مورد مشروعية التقليد ودعوى أنه لا يكفي اليقين والإعتقاد الناشئ من قول الغير في الإعتقاديات من أصول الدين والمذهب إستظهاراً من الكتاب المجيد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1]، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[2] لا يمكن المساعدة عليها فإنه قد تقدم أنه لا يستفاد منهما عدم اعتبار العلم واليقين والإعتقاد الحاصل مما ذكرنا وظاهر الآية تعبد الجاهل بقول جاهلين مثله كما لا يخفى"[3].

قال سماحة الأستاذ آية الله السيد محسن الخرّازي مؤيداً هذا الرأي ما نصه: "فالأقوى كما ذهب إليه الشيخ الأنصاري قدس سره هو كفاية الجزم ولو حصل من التقليد فلا دليل على لزوم الزائد عليه"[4].

وفي بيان هذه الحقيقة قال أستاذنا العلامة السيد الحيدري حفظه الله ما نصه: "ربما يقال بانحصار طرق الوصول إلى العلم بالنظر والإستدلال، ولكن الصحيح هو وجود طريق آخر بالإضافة إلى طريق النظر وهو الرجوع

---

(١) الزخرف ٢٢.

(٢) البقرة ١٧٠.

(٣) تنقيح مباني العروة الوثقى لآية الله العظمى الميرزا الشيخ جواد التبريزي ج١ ص١٠٥.

(٤) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية السيد محسن الخرازي ج١ ص١٣.

إلى شخص متخصص فيقلده ومن خلال تقليده إياه يحصل لديه العلم، وتطبيقات الطريق الثاني حاصلة وبكثرة ، فلو سألت إنساناً عادياً ـ إمامياً ـ عن إعتقاده بعصمة أهل البيتعليهم السلام فإنه يجيبك بنعم ويؤكد ذلك. ولكنك إذا سألته عن الدليل على ذلك تجده لا يعلم، حيث يقول لك لا أدري فإن قلت له كيف صار لديك إعتقاد وعلم بعصمتهم؟ أجابك بأنه سمع ذلك من المرجع الفلاني، أو المحقق الفلاني وأن هؤلاء العلماء لا يقولون شيئاً بلا دليل، وهذا يعني أنه قد حصل لديه علم دون نظر واستدلال وإنما عن طريق التقليد ...

نعم دليله هو التقليد وإلى هنا يكون قد اتضح لدينا أن هنالك طريقا غير طريق الدليل والنظر في تحصيل العلم في الأمور الإعتقادية"[1].

التقليد بين الحرمة والجواز:

ويوجد رأي في المقام يقول بالتفصيل بين وجوب المعرفة عن طريق النظر والإستدلال والمنع من التقليد في حالة خوف الضلال وعدم الوصول إلى اليقين بدون النظر والإستدلال.

وجواز التقليد مع الأمن من الضلال أي حصول الجزم واليقين من التقليد بل حرمة النظر والإستدلال إذا كان مفضياً إلى الضلال.

قال صاحب المستمسك الفقيه الكبير السيد محسن الطباطبائي

---

(١) كتاب التفقه في الدين ـ مصدر سابق ص١٣٤.

الحكيمقدس سره: "... وتمام الكلام في هذا المقام موكول إلى محله كالكلام في وجوب كون المعرفة عن النظر والدليل ـ كما هو المنسوب إلى جمع ـ وعدم وجوبه ـ كما نسب إلى آخرين ـ وحرمته ـ كما نسب إلى غيرهم ـ وإن كان الأظهر الأول مع خوف الضلال بدون النظر والأخير مع خوف الضلال به والثاني مع الأمن من الضلال على تقدير كل من النظر وعدمه فراجع وتأمل"(١).

وهنا يأتي تساؤل مهم مفاده أن هذا الإتجاه الثاني يذهب إلى جواز التقليد في أصول الدين وهذا فيما يعني أنهم يقبلون عدم العلم واليقين في الأمور الإعتقادية، وبالتالي سوف يكون تقليداً أعمى من غير دليل وهو مذموم عقلاً ونقلاً، فالآيات القرآنية فضلا عن الروايات تشير إلى خطورة هذا المنحى ـ أي التقليد الأعمى ـ.

هذا مضافاً إلى أن يؤدي إلى تجميد أهم ميزة ميَّز الله بها الإنسان وهي ميزة العقل والتعقل وقبول الحقائق بالدليل والبرهان، فكيف يُسَوَّغُ قبول الحقائق خصوصا الإعتقاديات عن طريق التقليد؟!

وفي مقام الجواب على هذه الإشكالية نقول: أنه قد مرَّ أن التقليد على قسمين:

تقليد مذموم وتقليد ممدوح، وأن العقل والآيات والروايات إنما

---

(١) مستمسك العروة الوثقى تأليف فقيه العصر آية الله العظمى السيد محسن الحكيم ج١ ص١٠٤.

ذمت التقليد الأعمى بمعنى قبول قول الغير بلا دليل كما في تقليد الآباء وهم ليسوا عقلاء ولا مهتدين وأما إذا كان التقليد مُفضياً إلى العلم واليقين وكان المُقلَد من أهل الخبرة والإختصاص فإنه لا محذور فيه كما نجد ذلك عند العقلاء.

وهذا معنى رجوع الجاهل للعالم، فالتقليد الممدوح في الحقيقة هو رجوع إلى البرهان وقد أشرنا إلى عبارة السيد الخوئي قُدِّسَ سِرُّه فيما تقدم حيث قال: "... بل حصول اليقين من قول الغير يرجع في الحقيقة لليقين بالبرهان لأنه يتشكل عند المكلف حينئذ صغرى وكبرى فيقول: هذا ما أخبر به أو اعتقده جماعة وما أخبر به جماعة فهو حق ونتيجتهما أن ذلك الأمر حق فيحصل اليقين بإخبارهم"(١).

وللتوضيح أكثر في المقام راجع الأمر الرابع من الأمور المتقدمة.

والحاصل في المقام:

فتحصَّل مما تقدم أن الأقوال في مسألة التقليد في أصول الدين ثلاثة:

الأول: ضرورة سلوك طريق النظر والإستدلال للحصول على اليقين والجزم في أصول الدين.

الثاني: عدم ضرورة سلوك طريق النظر والإستدلال لحصول اليقين في أصول الدين بل يجوز التقليد في ذلك إذا كان مفضياً إلى الجزم

---

(١) التنقيح في شرح العروة الوثقى للإمام الأكبر أبو القاسم الخوئي قُدِّسَ سِرُّه ج١ ص٣٤٩.

واليقين.

الثالث: التفصيل بين ضرورة النظر والإستدلال في حالة وجواز التقليد في حالة أخرى كما أشرنا إلى ذلك.

*** إشارة مهمة:**

تجدر الإشارة إلى ضرورة عدم الخلط بين مسألتين وهما:

المسألة الأولى: جواز التقليد في أصول الدين وعدمه وهذا ما تقدم في هذا البحث.

المسألة الثانية: جواز الإكتفاء بالظن وعدمه في تفاصيل المسائل الإعتقادية.

قال المحقق الميرزا القميقدس سره: "...وبهذا يظهر لك الفرق بين هاتين المسألتين المتداولتين هنا أحدهما: جواز التقليد في الأصول وعدمه.

الثانية: جواز الإكتفاء بالظن وعدمه، إذ قد لا يحصل بالنظر إلا الظن فالظن قد يجامع النظر وقد ينفك عن التقليد في التفاصيل وخصوصيات المسائل..."[1].

وفي المسألة الثانية وقع كلامٌ بين الأعلام في جواز ذلك وعدمه حيث انتهت الأبحاث الأخيرة في أصول الفقه إلى إمكانية إثبات تفاصيل

---

(١) القوانين المحكمة في الأصول المتقنة ـ المحقق النحرير والفقيه الشهير والأصولي الكبير الميرزا ـ أبي القاسم القميقدس سره ج٣/٤ ص٣٥١.

المسائل الإعتقادية بالظن دون أصول العقائد، حيث أشار الشيخ الأعظم الأنصاري قُدِّسَ سِرُّهُ في الرسائل من مبحث الظن إلى أنه يوجد جماعة من العلماء يقبلون ذلك منهم المحقق الطوسي والأردبيلي وصاحب المدارك والشيخ البهائي والعلامة المجلسي والمحدث الكاشاني وغيرهم من الأعلام.

وقد ذكر أستاذنا المحقق الشيخ محمد السند حفظه الله أن هذه المسألة ـ أي المسألة الثانية ـ لا بد أن تُحقق من خلال مرحلتين:

"الأولى: في إمكان ووقوع التعبد بالحكم التكليفي الشرعي في الإعتقاديات من وجوب وحرمة وغيرهما والذي يسمى في مصطلح أصول الفقه بالحكم الواقعي الأولي أي بلحاظ الموضوع والفعل في حد نفسه بعنوانه الأولي.

الثانية: في إمكان ووقوع التعبد بالكاشف الظني الذي يسمى أصولياً بالحكم الظاهري وهل يمكن تدخل الشارع في كيفية الإحراز والإدراك للإعتقاديات التي هي أفعال قلبية؟"[1].

وهذه أبحاث مفصلة موكولة إلى محلها ربما نوفق لعرضها في دراسة أخرى والله المستعان.

---

(١) بحوث في قراءة النص الديني للمحقق آية الله الشيخ محمد السند ص٤٨.

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

١ـ أصول الكافي، لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن إسحاق الكليني الرازي، نشر نور وحي، الطبعة الأولى١٤٢٨هـ مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية.

٢ـ نهج البلاغة، شرح مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده، نشر دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٣ـ كتاب معرفة الله، للعلامة السيد كمال الحيدري، تقرير الشيخ طلال الحسن، إنتشارات فراقد، إيران، الطبعة الأولى١٤٢٨هـ.

٤ـ شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني، ضبط وتصحيح السيد علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٥ـ كتاب من الخلق إلى الحق رحلات السالك في أسفاره الأربعة، للعلامة السيد كمال الحيدري، تقرير الشيخ طلال الحسن، انتشارات دار

فراقد، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٦ـ كتاب غرر الحكم ودرر الكلم، عبدالواحد الآمدي التميمي، طبع دار القارئ ١٤٠٧هـ، بيروت.

٧ـ بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، العلامة فخر الأمة محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء بيروت – لبنان الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ

٨ـ دروس في العقيدة الإسلامية، للأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، نشر مؤسسة المشرق للثقافة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ إيران.

٩ـ تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبومحمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني قُدِّسَ سِرُّهُ عُنِيَ بتصحيحه والتعليق عليه علي أكبر الغفاري الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ش، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران.

١٠ـ كتاب التوحيد، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، صححه وعلق عليه المحقق البارع السيد هاشم الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم المشرفة، الطبعة التاسعة ١٤٢٧هـ.

١١ـ كتاب جنود العقل والجهل للإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ.

١٢ـ الإسلام يقود الحياة ـ الشهيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ

١٣ـ مَن لا يحضره الفقيه، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، نشر مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم

المقدسة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

١٤ـ رسالة الولاية للعلامة الطباطبائي قُدِّسَ سِرُّه من كتاب الإنسان والعقيدة، طبع مؤسسة فدك، إيران ـ قم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

١٥ـ علل الشرايع، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، طبع دار المرتضى، بنان ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

١٦ـ الخصال، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، صححه وعلق عليه علب أكبر غفاري، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجامعة المدرسين، قم المشرفة، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

١٧ـ الخرائج والجرائح، لقطب الدين الراوندي، للفقيه المحدث والمفسر الكبير قطب الدين الراوندي، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، قم المقدسة.

١٨ـ مصباح المتهجد، لشيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١ م مؤسسة فقه الشيعة بيروت، لبنان.

١٩ـ تفسير الصافي،للمولى الفيض الكاشاني، طبع مؤسسة الأعلمي، لبنان ـ بيروت، صححه وقدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي.

٢٠ـ تفسير مجمع البيان،للطبرسي، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن حسن الطبرسي، حققه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، قدم له الامام الأكبر السيد محسن الأمين العاملي، منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.

٢١ـ فرائد السمطين، للمحدث الكبير الجويني الخراساني، تحقيق وتعليق الشيخ محمد باقر المحمودي، طبع دار الحبيب، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٢٢ـ كتاب الأمالي، للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، الطبعة الخامسة، بيروت، مؤسسة الأعلمي ١٤٠٠هـ.

٢٣ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، الطبعة الثانية بيروت دار الكتاب العربي ١٣٨٧هـ.

٢٤ـ صحيح البخاري، بشرح الكرماني، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، الطبعة الثانية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ

٢٥ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، لزكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، تحقيق محمد عمارة، الطبعة الثانية١٤٠٦هـ.

٢٦ـ سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، بيروت دار إحياء التراث العربي.

٢٧ـ جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبدالبر النمري القرطبي، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية، المدينة المنورة، المكتبة السلفية١٣٨٨هـ.

٢٨ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، طبع مصر، مطبعة

الحلبي،١٣٤٧هـ

٢٩ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، الطبعة الخامسة بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

٣٠ـ سنن ابن ماجة، لأبي عبدالله بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر.

٣١ـ أمالي الطوسي،لأبي جعفر شيخ طائفة محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم، بغداد، المكتبة الأهلية١٣٨٤هـ.

٣٢ـ بصائر الدرجات، لأبي جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، تحقيق الميرزا محسن كوجه باغي، الطبعة الثانية إيران، ١٣٩١هـ.

٣٣ـ شرح المهذب، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي، القاهرة، مطبعة العاصمة.

٣٤ـ بحوث في الملل والمحل، تأليف الفقيه المحقق آية الله الشيخ جعفر السبحاني، نشر مؤسسة الإمام الصادق، إيران قم المقدسة، ساحة الشهداء، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ

٣٥ـ الإختصاص، لفخر الشيعة أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الملقب بالشيخ المفيد، صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، الطبعة السابعة ١٤٢٥هـ.

٣٦ـ مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تأليف المحدث الكبير أبو الفضل

علي بن الحسن الطبرسي، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث،قم، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٣٧ـ منية المريد في آدب المفيد والمستفيد، للفقيه الشيخ زين الدين بن علي العاملي المعروف بالشهيد الثاني، تحقيق رضا المختاري، الطبعة السادسة ١٣٦٨هـ ش، نشر مؤسسة مكتب التبليغات الإسلامي، قم، بوستان كتاب.

٣٨ـ كتاب شرح الباب الحادي عشر، للمتكلم النحرير مقداد بن عبدالله السيوري الحلي، حققه وعلق عليه الأستاذ الشيخ علي النظّامي الهمداني، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٣٩ـ عين اليقين الملقب بالأنوار والأسرار، لمؤلفه المحدث الكبير المولى محسن الفيض الكاشاني، تحقيق فالح عبدالرزاق العبيدي، نشر مؤسسة أنوار الهدى، إيران، قم، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ.

٤٠ـ تصحيح إعتقادات الإمامية، تأليف الإمام الشيخ المفيد أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري ، البغدادي، تحقيق حسن دركاهي.

٤١ـ دعوى السفارة في الغيبة الكبرى، المحقق آية الله الشيخ محمد السند، نشر مؤسسة فدك، إيران،قم، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٤٢ـ منهاج الصالحين، لسماحة آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني، نشر مدرسة الإمام باقر العلوم عليه السلام، الطبعة السادسة ١٤٢٨هـ

٤٣ـ المظاهر الإلهية، المظاهر الإلهية للحكيم المتأله صدر الدين محمد

الشيرازي، تحقيق الأستاذ السيد جلال الدين الأشتياني.

٤٤ـ المبدأ والمعاد للمولى صدر الدين محمد الشيرازي، قدمه وصححه الأستاذ السيد جلال الدين الأشتياني، نشر مكتب التبليغات الإسلامي التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ.

٤٥ـ المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، للأستاذ محمد تقي مصبح اليزدي، ترجمة محمد عبدالمنعم الخاقاني، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، الطبعة السادسة ١٤٢٥هـ.

٤٦ـ كتاب شناخت بالفارسية، للشهيد مطهري، انتشارات صدرا،قم.

٤٧ـ مدخل إلى مناهج المعرفة عند الإسلاميين، للعلامة السيد كمال الحيدري، نشر دار فراقد، ايران، قم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٤٨ـ شرح الأسماء الحسنى شرح دعاء الجوشن الكبير، للحكيم المتأله ملا هادي السبزواري قدس سره، تحقيق د. نجفقلي حبيبي، نشر مؤسسة انتشارات جامعة طهران، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ش.

٤٩ـ كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار، للسيد حيدر الآملي، تصحيح وتقديم هنري كوربان وعثمان إسماعيل يحيى، الترجمة الفارسية السيد جواد طباطبائي، المركز الفرنسي للدراسات الإيرانية، شركة المنشورات العلمية والثقافية.

٥٠ـ تمهيد القواعد، صائن الدين ابن تِركة الإصفهاني، مقدمة وتصحيح وتعليق الأستاذ السيد جلال الدين أشتياني، بوستان كتاب، إيران، قم، الطبعة الثالثة.

٥١ـ شرح حكمة الإشراق، للفاضل المحقق والنحرير المدقق الحكيم الإلهي محمد بن مسعود المشهور بقطب الدين الشيرازي قدس سره.

٥٢ـ فلسفة السهروردي، لمؤلفه د. غلام إبراهيم ديناني، منشورات الحكمة.

٥٣ـ ثلاث رسائل لشيخ الإشراق بالفارسية، شهاب الدين يحيى السهروردي، الألواح العمادية، كلمة التصوف، اللمحات، بتصحيح ومقدمة نجفقلي حبيبي، طهران، ١٣٩٧هـ.

٥٤ـ الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، لمؤلفه الحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين محمد الشيرازي مجدد الفلسفة الإسلامية إيران ـ قم، چابخانه مهر استوار.

٥٥ـ أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، للعلامة محمد حسين الطباطبائي، تعليق الأستاذ الشهيد مرتضة مطهري، تعريب محمد عبدالمنعم الخاقاني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٥٦ـ العرشية، لصدر المتألهين صدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بملا صدرا الشيرازي، تصحيح وترجمة غلام حسين آهني.

٥٧ـ رحيق مختوم شرح الأسفار الأربعة العقلية، لآية الله الشيخ جوادي آملي.

٥٨ـ الرسائل للملا صدرا، مكتبة المصطفوي، قم، إيران.

٥٩ـ الإشارات والتنبيهات للشيخ أبي علي حسين بن عبدالله بن سينا، مع شرحي المحقق نصير الدين الطوسي، والعلامة قطب الدين محمد بن

أبي جعفر الرازي.

٦٠ـ المستدرك على الصحيحين المعروف بمستدرك الحاكم، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، بإشراف د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت — لبنان.

٦١ـ الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ،تحقيق عبدالرحمن التركي و كامل الخرّاط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٦٢ـ مسند أحمد، لأحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.

٦٣ـ مشكاة المصابيح للخطيب محمد بن عبدالله التبريزي، تحقيق ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي، بيروت.

٦٤ـ غاية المرام، تأليف المحدث الكبير السيد هاشم البحراني قدس سره، تحقيق مؤسسة البعثة الإسلامية، إيران ـ قم، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ

٦٥ـ شرح المقاصد في علم الكلام لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، طبع دار المعارف النعمانية، باكستان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٦٦ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، نشر دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٦٧ـ أهل البيت للكاتب توفيق أبو علم المصري، طبع مصر.

٦٨ـ عيون أخبار الرضا عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الأقدم والمحدث الأكبر أبي جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي قدس سره، صححه وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ حسين الأعلمي،

منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.

٦٩ـ روضة الواعظين، للفتال النيسابوري، تأليف الشيخ العلامة زين المحدثين محمد بن الفتال النيسابوري، وضع المقدمة العلامة الجليل السيد محمد مهدى السيد حسن الخرسان، منشورات الرضي قم – إيران.

٧٠ـ الأمالي، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة.

٧١ـ ينابيع المودة لذوي القربى، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر دار الأسوة للطباعة والنشر المطبعة أسوة، الطبعة الأولى، تاريخ النشر : ١٤١٦ هـ . ق.

٧٢ـ الميزان في تفسير القرآن، المفسر الفيلسوف الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

٧٣ـ كتاب التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته، تقريرات دروس العلامة السيد كمال الحيدري، بقلم جواد علي كسَّار، نشر دار فراقد، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ إيران قم .

٧٤ـ رسالة علي والفلسفة الإلهية للعلامة الطباطبائي قدس سره من ص٢٧٩ من كتاب الإنسان والعقيدة، طبع مؤسسة فدك، إيران ـ قم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

٧٥ـ شرح المنظومة للحكيم المتأله ملا هادي السبزواري، تعليق آية الله

حسن زاده آملي، تقديم وتحقيق مسعود طالبي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ق.

٧٦ـ شرح أصول الكافي لصدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي ملا صدرا، مع تعليقات المولى علي النوري، عُنيَ بتصحيحه محمد خواجوي، نشر بزوهشكاه علوم انساني ومطالعات فرهنكي، الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ ش.

٧٧ـ علي بن موسى الرضا والفلسفة الإلهية للفقيه المتأله آية الله الشيخ عبدالله الجوادي الآملي، نشر دار الإسراء قم ـ إيران، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

٧٨ـ موسوعة العقائد الإسلامية لمؤلفه الشيخ محمد الريشهري، تحقيق مركز بحوث دار الحديث، نشر دار الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ

٧٩ـ كتاب حق اليقين في معرفة أصول الدين، للعلامة السيد عبدالله شبر، نشر مؤسسة أنوار الهدى، الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ ايران، قم.

٨٠ـ حاشية ملا صدرا على الشفاء

٨١ـ بحوث في قراءة النص الديني، للمحقق آية الله الشيخ محمد السند، بقلم السيد عمار الحكيم والشيخ مصطفى الإسكندري، نشر دار مكتبة فدك، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

٨٢ـ الإجتهاد والتقليد في علم الرجال وأثره في التراث العقائدي، للمحقق آية الله الشيخ محمد السند، بقلم الشيخ محمد آل مكباس والشيخ حسن الكاشاني والشيخ مجتبى الإسكندري، نشر مكتبة فدك، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

٨٣ـ تفسير الصافي، للمحدث الكبير المولى محسن الملقب بالفيض

الكاشاني، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

٨٤ـ كتاب الطرف للسيد ابن طاووس.

٨٥ـ مجموعة رسائل الصدوق، تحقيق اللجنة العلمية مكتبة بارسا، نشر مؤسسة بارسا، إيران قم، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

٨٦ـ تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تأليف الفقيه المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، طبعة ١٤١٤هـ ق.

٨٧ـ نهاية الحكمة، تأليف الأستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره تحقيق وتعليق الشيخ عباس علي الزارعي السبزواري، طبع ونشر مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٧ هـ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٨٨ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تأليف خاتمة المحدثين الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٨٩ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤ هجرية - ١٩٩٣ ميلادية طبعت بموافقة اللجنة الخاصة المشرفة على المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد - دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت. لبنان

٩٠ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف أبي عبد الله محمد بن

أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق على محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

٩١ـ معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، للإمام الأكبر زعيم الحوزات العلمية السيد أبو القاسم الموسوي الخوئيقدس سره، الطبعة الخامسة، ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.

٩٢ـ أصول علم الرجال بين النظرية والتطبيق ـ تقريراً لأبحاث سماحة آية الله الحاج الشيخ مسلم الداوري دام ظله ـ بقلم محمد علي علي المعلم.

٩٣ـ الإختصاص، لفخر الشيعة أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد، صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، إيران، قم، الطبعة السابعة ١٤٢٥هـ.

٩٤ـ بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، محاضرات الأستاذ السيد محسن خرازي، طبع مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة عشر ١٤٢٧هـ إيران ـ قم.

٩٥ـ كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميقدس سره، نشر مؤسسة طليعة نور، إيران ـ قم، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ

٩٦ـ مناقب آل أبي طالب، تأليف الإمام الحافظ ابن شهرآشوب مشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهرآشوب ابن أبي نصر بن أبي حبيشي السروي المازندراني، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدة نسخ

خطية لجنة من أساتذة النجف الأشرف، طبع المطبعة الحيدرية في النجف، ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م.

٩٧ـ مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام، تأليف الحافظ رجب البرسي، تحقيق العلامة السيد علي عاشور، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٩٨ـ إرشاد القلوب المنجي من عَمِلَ به من أليم العقاب، تأليف الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي، تحقيق السيد هاشم الميلاني، نشر دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٩٩ـ نفس الرحمن في فضائل سلمان، لمؤلفه خاتم المحدثين الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، المحقق جواد قيومي الجزه اى الأصفهاني،الطبعة الأولى: ١٣٦٩ش- ١٤١١هـ، مطبعة بنكوئن دائرة التوزيع مؤسسة الكوكب.

١٠٠ـ كتاب التفقه في الدين، للعلامة السيد كمال الحيدري، بقلم طلال الحسن، نشر دار فراقد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

١٠١ـ كتاب أنيس الموحدين للمولى النراقي

١٠٢ـ كتاب مبدأ ومعاد بالفارسي

١٠٣ـ فرائد الأصول، للشيخ الأعظم الشيخ الأنصاري قدس سره، إعداد لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم،نشر مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ إيران ـ قم.

١٠٤ـ التنقيح في شرح العروة الوثقى، تقريرات الأستاذ الأعظم الإمام

أبو القاسم الخوئي قدس سره، تأليف الشهيد الشيخ ميرزا علي الغروي قدس سره، نشر مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي قدس سره، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، إيران ـ قم.

١٠٥ـ تنقيح مباني العروة الوثقى، لآية الله العظمى الميرزا الشيخ جواد التبريزي قدس سره، نشر دار الصديقة الشهيدة عليها السلام، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ إيران ـ قم.

١٠٦ـ مستمسك العروة الوثقى تأليف فقيه العصر آية الله العظمى السيد محسن الحكيم.

١٠٧ـ القوانين المحكمة في الأصول المتقنة ـ المحقق النحرير والفقيه الشهير والأصولي الكبير الميرزا أبي القاسم القمي قدس سره.

١٠٨ـ القواعد والفوائد للشهيد الأول قدس سره.

١٠٩ـ رسائل فقهية للشيخ الأعظم الأنصاري قدس سره.

الفهرست

الفصل الأول:

أهمية المعرفة الإلهية

الفصل الثاني:

أقسام معرفة الله تعالى وعبادته

الفصل الثالث:

أهمية البحث العقائدي

الفصل الرابع:

المدارس الفكرية الخمس في العصر الإسلامي

الفصل الخامس

المعارف الإلهية في الكتاب والعترة عليهم السلام

الفصل السادس:

الإهتمام العقائدي عند النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام

الفصل السابع:
مراتب المعرفة

الفصل الثامن:
التقليد في أصول الدين